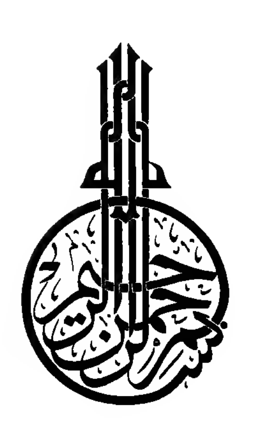


تأليف

محمد محمد حسن شراب


بسم الله الرحمن الرحيم


عز الدين القسام
شيخ المجاهدين في فلسطين

الطبعة الأولى
١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م

تطلب جميع كتبنا من :
دار القلم - دمشق : ص.ب : ٤٥٢٣ - ت : ٢٢٢٩١٧٧
الدار الشامية - بيروت - ت : ٦٥٣٦٥٥ / ٦٥٣٦٦٦
ص.ب : ٦٥٠١ / ١١٣

توزع جميع كتبنا في السعودية عن طريق
دار البشير - جدة : ٢١٤٦١ - ص.ب : ٢٨٩٥
ت : ٦٦٠٨٩٠٤ / ٦٦٥٧٦٢١

هٰـذَا الرَّجُـل

الحمدُ لله، ثمَّ الحمدُ لله، الذي شرّفني باستشهاد أبي، وأعزّني بموته، ولم يذلَّني بهوانِ وطني، واستسلام أُمتي.

ميمنة بنت عزّ الدين القسَّام

ليس لنا من سبيلٍ إلى الخلاص إلا الجهاد الدامي، وقد فتح فقيدنا القسَّام الباب فلنلجه، وإنا لفاعلون.

أكرم زعيتر

لقد أحيا القسَّام وإخوانه في نفوسنا الأمل بعد أن كدنا نفقده، وليتني علمتُ بعصابتهم، لكنت ـ والله ـ أول من ينضم إليهم، فهذا ـ والله ـ سبيل الخلاص وحده.

الدكتور أمين رويحة

القسَّام القسَّام.. اسم سوف يبقى في فلسطين يترددُ في أجوائها، فيوقع الرعب في قلوب الذين يسيطرون عليها بحرابهم، ويُتلى في صفحات تاريخها الخالدة، فيملأُ نفس القارئ إكباراً وإعجاباً.

جمال الحسيني

أولـتْ عمـامتُـك العمـائـمَ كلَّهـا   شــرفــاً تقصِّــرُ دونــه التيجــانُ
إن الـزّعـامـةَ والطـريـقُ مخـوفـةٌ   غيـرُ الـزعـامـة والطـريـقُ أمـانُ
يارهطَ عـزٍّ الدين حسـبُك نعمةً   فـي الخُلْـدِ لاعَنَـتٌ ولا أحـزانُ

فؤاد الخطيب

قوموا انظروا القسّام يشرقُ نورُه فوق الصرودِ
يـوحـي إلـى الـدنيـا ومـن فيهـا بـأسـرارِ الخلـودِ

أبو سلمى



المقـــدّمَة

استأهل عزّ الدين القسّام أن يُنظَمَ في عِقد «أعلام المسلمين»، لأن العرب أجمعوا على إمامته وريادته وسبقه فيما دعا إليه وعمل به، وأقرّوا بتفرّد منهجه التربوي، ومسلكه الجهادي، وقد أحبُّوه حياً، وبكوه ورَثَوْه وأبّنوه ميتاً، واتفقوا على صدقه في القول والعمل.

ودام هذا الوفاء والحبّ لسيرة عزّ الدين القسَّام في العقود التي تلت استشهاده، وزاد تطلّع الناس إلى بعث أنموذجه في الانتفاضة المباركة، التي تفجَّرت في كانون الأول سنة ١٩٨٧م بعد أن يأس من إحياء نموذج (صلاح الدين الأيوبي)، حيث اعتمد القسَّام على القوة الذاتية الكامنة في قلوب المؤمنين، التي تستمدُّ العون من الله تعالى، ولذلك أرعب اسم عزّ الدين الأعداء أكثر مما أرعبتهم الجيوش المدجَّجة بالسلاح.

ومن أجل هذا كله استحق القسَّام أن ينضم إلى كوكبه (الأعلام) لتأخذ الأجيالُ العبرة من سيرته.

وحين عرضتُ اسم الشيخ القسَّام على الأستاذ محمد علي دولة ـ صاحب دار القلم ـ والمشرف على (سلسة أعلام المسلمين)، هشَّ له وبشَّ، وارتاح له، وفرح به، ورغب في أن ينظمَه في عِقده الفريد.

فعهد إليّ بقيد أوابده، وتقريب شوارده، وجمع شذرات مناقبه، ورسم حليته، أو رفع راية سيرته، وبيان منهجه.

فتهيَّبتُ الإقدام، ورغبت إليه أن يكل الأمر إلى باحث مقدام، ليكون في صحبة القسَّام، فصورة الشيخ في مخيلتي عليّة، وما عرفت رجلاً في هذا القرن يفري فريّه، ويقول قوله، ويعمل عمله، وما رأيت له قِرناً، ولا مرّ بي من يوازيه، فأنّى لي أن أوفيه حقّه، وأصوِّر إلى القراء قدره؟

وبعد أخذ ورد، وإرخاء شدّ، أعطيت عهد الوفاء، وطلبت العون من الله العليِّ القدير.

وأخذت أجمع المصادر، وأرصد الأخبار والمآثر، وأتتبع آثاره في مسقط رأسه (جبلة) وفي جوار الأزهر منهل دراسته، وفي الحفة (قلعة صِهْيَون) وفي حيفا وقطر فلسطين.

وبعد أن اجتمع عندي كل ما كتب عنه وقيل، أخذتُ في القراءة والتحليل، ولا أكتم القارئ أنني عندما عرضتُ أخبارَ الرجل على الفحص وقعت في (حَيْصَ بَيْص).

فالقسَّـام كان، وصارَ، وما زالَ، بطلاً قوميـاً، وسيرة شـعبية، يحكيها الأجداد للأحفاد، وينقلها الآباء إلى الأبناء، وصارت موضوعاً يتناوله الكتاب المسرحيون والقصصيون، وتغنى به الشعراء. ومن يكن هذا شأنه يُحَط بالغلو في الحب، ويكثر في قصته الوضع، لزيادة مناقبه وفضائله.

ومنذ القديم كـان باب الفضائل من أوديـة الأحاديـث الضعيفـة والموضوعة، ناهيك بالفنِّ المسـرحي، بوصفه واديـاً آخر من أوديـة الوضع أو ما يسمونه (الخلق الفني) فإذا تناوله (المخرج) لتشـخيصه وقعت الطامَّة الكبرى على التاريخ.

وفي هذا الحال يُعذَر المؤرخ إذا وقـع في (حَيْص بَيْص)، لأنـه لا يدري ماذا يأخذ، وماذا يدع. مع أن عزّ الدين القسَّام قد أغناه الله عن الوضع في مناقبه، حيث أكرمه الله بفضائل حقيقية كثيرة، جرت على يديه، كانت كافية لأن يكون القدوة الحسنة، والمثل الأعلى لأهل عصره وقَرنه، ومَن يـأتي بعدهم، وسـيرته لا تفتقر إلى الخوارق والأسـاطير لتكون من ملاحم العصر الحديث، لأن سيرته العمليّة الواقعية حوت من الأحداث ما يعد أسطورةً وخرافةً في سِيَر الآخرين.

ومن أسباب الاختلاف في أخبار القسّام تأخر تدوين سيرته إلى ما بعد استشهاده بأكثر من ثلاثين عاماً، فأقدم المعلومات التي دوّنها المؤلفون كانت في أواخر الستينيات من القرن العشرين.

ومنها أن أخباره كانت سريّة لا يعلم بها إلا قلَّة قليلة من أنصاره، وبقيت أخبار العُصْبَةِ القسّامية سرية بعد استشهاده، لأن تلاميذه العارفين به قادوا الثورة الفلسطينية الكبرى من ١٩٣٦ ـ ١٩٣٩م، وبقوا كاتمين سرَّ التنظيم مدة الثورة كلها، لأن المخابرات البريطانية كانت ترصدهم، وتحاول الإمساك بهم، وكانوا يجاهدون دون أن يعلنوا عن انتمائهم إلى عصبة القسَّام.

وعرفهم الناس باسم (المشايخ)؛ لأنهم كانوا يطلقون لحاهم، فاستُشهد منهم من استشهد، وتفرّق الذين عاشوا في الأقاليم المختلفة بعد سكوت الثورة.

فلما احتاج إليهم المؤلفون للرواية عنهم، كانوا قد تقدّمت بهم السنُّ، وعفّى النسيان كثيراً من معلوماتهم، ولم يكونوا أهل كتابةٍ وتدوين، فرووا ما بقي في ذاكرتهم ممزوجاً بالتأويل والاجتهاد، وقد يخطئ المؤول المجتهد، وقد يصيب.

ومن أسباب شُحِّ المعلومات عن بعض مراحل حياة القسّام أنّ صاحب الترجمة نشأ رجلاً عصامياً، وصل إلى درجة الوجاهة والزعامة بجدِّه واجتهاده، فلم يكن ابنَ أمير أو رئيس أو ثري، فلم يرصد المؤرخون سيرته في طفولته وشبابه، لأن فراستهم قد خانتهم، فلم يتوقعوا له الصيت والرفعة في مستقبل أيامه.

وعندما اشتغلَ معلماً وواعظاً؛ كان في نظرهم كغيره من آلاف المعلمين والوعاظ الذين أغفلهم التاريخ.

ومما ساعد على نسيان الكثير من سيرته، أنّ القسّام اشتغل بالمجتمع، ولم يتفرّغ لنفسه، فلم يدوّن شيئاً عن حياته، وكان جلُّ نشاطه بأسلوب الكلمة والمشافهة والخطبة، ولم يلتفت إلى الكتابة الصحفية والتأليف، فقد كانت الصحافة تهتمُّ بجوانب لم يعرها القسَّام في بداية حياته عنايته، لأنها لا تُحقِّقُ له الهدف الذي أراده، ولا تخاطب الطبقة الاجتماعية التي بدأ بها.

فقد اهتمَّ القسَّام أولاً بتعليم الأطفال، وتعليم العمال والفلاحين أصول القراءة والكتابة.

واهتمَّ بالتوجيه الديني، الذي يخلِّصُ أو يحررُ الناس من ربقة التبعيّة للإقطاعيين.

فلو بدأ القسّام بالكتابة الصحفية والتأليف، لكان كمن يرقم على الماء؛ لأن الطبقة الاجتماعية التي وجه عنايته إليها لا تعرف القراءة.

وقد اضطر إلى طرق باب التأليف عندما وقف في طريقه المعاندون، فألف رسالة (النقد والبيان) لإفحامهم وإسكاتهم، ولفتح الطريق أمام كلماته كي تصل إلى جمهور الناس دون تشويش.

هذا وقد وصلتنا بعض الكتابات التي تتحدّث عن حياة القسَّام،

نشرت إثْر استشهاده سنة (١٩٣٥م) وسنة (١٩٣٦م) ولكن هذه النصوص كانت مقالات صحفية قيلت في رثائه، وخطباً قيلت في تأبينه، وجُلُّها نصوص تأثرية تعبّرُ عن إعجاب قائليها بما كشف عنه منهج القسَّام، وتصلح أن تكون شهادات لإقرار معاصريه بصحة الطريق التي سلكها، ولكنها لا تقدّم معلومات تاريخية، لأن هذه المقالات والخطب صدرت عن رجال عاصروه ولم يكونوا على اتصال وثيق به، ولم يكونوا يعرفون شيئاً عن أسرار الرجل وأسرار عصبته.

أمام هذا فقد حررت أخبار القسّام بعد عرضها على قواعد وأصول كتابة التاريخ العربي الإسلامي.

وأول هذه القواعد:

١ ـ الرواية عن رجل عاصر القسَّام وصاحبه، وعرف الكثير عن أحواله.

٢ ـ أو الرواية عن وثيقة مكتوبة لا يحتمل وقوع الخطأ فيها.

فإذا غابت الرواية الصحيحة، وشككنا في سند الخبر ومتنه، عرضنا الأخبار على ما اتفق عليه من حال الرجل وخلقه ومنهجه.

فعندما قالوا: إن القسَّام تأثر بالشيخين جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده، رفضنا هذه المقولة، لاختلاف المنهج والأسلوب.

فالقسَّام سلك سبيل الإسلام، واعتمد القرآن والسنَّة لا يحيد

عنهما، ورفض كل صداقة أو وصاية أو معونة تأتي من الأوروبيين.

وكان الأفغاني ماسونياً متطرفاً، متعصباً لماسونيته، بل أسس محفلاً للماسونية، وكان رئيساً له، والرجل القرآني السُّنيّ لا يلتقي مع الماسونية!!.

وأما محمد عبده، فقد وجدناه صديقاً مخلصاً لكرومر رئيس الإنكليز في مصر، ويطلب تأييده وعونه وموافقته فيما دعا إليه مما سُمِّي (الإصلاح) في المؤسسات الشرعية.

ولكن عزّ الدين القسّام كان يعلن ألاّ ولاية لكافر على أحدٍ من المسلمين، ويرفض مولاة المسلمين للإنكليز، ويرى أن الإنكليز رأس الداء.

وكان محمد عبده يقلل من أمر السنة، بوصفها مصدر تشريعٍ، أما القسّام فإنه يراها مصدراً رئيساً مع القرآن، فكيف يجتمع محمد عبده والقسّام؟!

وقالوا: إن القسّام قد شارك في الثورة العربية الكبرى على الأتراك متحالفاً مع بريطانية، وأنه رفع السيف في وجه الأتراك.

فرفضنا هذه المقولة، بعد عرضها على منهج القسّام، وكان من حاله إبان الثورة، فقد تجند القسّام في الجيش التركي في وظيفة (واعظ طابور) ومهمة واعظِ الطابور إبان الحرب تحميس الجنود، ودعوتهم

إلى جهاد الكفار، والكفار هنا هم الإنكليز، فكيف يدعو إلى محاربة الإنكليز، ثم ينقلب إلى محارب معهم، وأمرهم باقٍ على الكفر؟!!

وبعد: فقد ثبت عندي للقسام منقبتان جامعتان لكل خلال الخير وهما: أنه شيخ المجاهدين في فلسطين، ورائد من رواد الدعوة إلى الله وإصلاح المجتمع على نهج السلف الصالح، وسوف يرى القارئ مصداق المشيخة والريادة في فصول هذا الكتاب الذي بذلت له الطاقة التي أمدني الله بها، وما أزعم أني وفّيت الرجل كلّ حقه، أو قلت فيه كلّ ما يمكن أن يقال وذلك لسببين:

أولهما: النقص الذي يلازم أعمالَ البشر، ما عدا الأنبياء.

وثانيهما: أن الشخصيات القيادية الفذة لا تنقضي العبرة من مداومة النظر في سيرهم.

وأستغفر الله من كل تقصير، وأسأله حسن الختام والمصير.

محمّد محمّد حسن شرّاب

الفَصْل الأول

مُقَدِّمَةٌ مُنْذِرة



الفصل الأول

مقدمة مُنذرة

١ ـ في جحيم الانتداب البريطاني :

أ ـ كيف دخل البريطانيون فلسطين؟

الجواب: نحنُ ـ العربَ ـ أدخلنا البريطانيين فلسطين، سنة ١٩١٧م.

وإنّنا ـ العربَ ـ ثبّتنا أقدام البريطانيين في فلسطين من سنة ١٩١٧ ـ ١٩٤٨م، وخرجتْ بريطانية من فلسطين سنة ١٩٤٨م مُخْتارةً بعد تحقيقِ الهدف.

.. وكلّ نكبةٍ حلّتْ بمالنا، وأرضِنا وأنفسِنا، فذلك بما عملتْه أيدينا.

نحن الذين عاهدنا بريطانية على مناصرتها، لتخليصنا من (رمضاء) العثمانين الاتحاديين، فكنا كما قال الشاعر :

المستجير بعمرٍو عنْد كربتهِ كالمستجيرِ من الرّمضاءِ بالنَّارِ

ونحن الذين أعطينا بريطانية صَفْقةَ اليمين، وقبلْنا عَهْدها، وكُنّا في سَعةٍ من الاختيار، فلماذا نلومُ الآخرين: «يَدَاك أَوكتَا وَفُك نفخ».

ومَنْ يقلْ: إنّ بريطانية غدرتْ ونكثتْ عَهْدها، فقد أخطأ. فنحن الذين غدرنا بأنفسنا، وخدعنا أنفسَنا عندما عاهدناها على نُصْرتنا[1]. فبريطانية كانت مُخْلصةً ووفيّة لعقيدتها، ومصلحةِ قومها.

وما كان لنا أن نقبل عَهداً من كافر، لا يؤمن بعقيدتنا، وما كان لنا أن نستعينَ به في حربٍ مع كافر، لأنه لن ينصرَ عقيدتَنا وهو يحاربها، فكيف نستعين به على حرب المسلمين؟ والحقُ أننا لم نستعنْ به، وإنما أعنّاه على قَتْل إخوانٍ لنا في الدين.

لقد كانت القواتُ البريطانية حتى تموز سنة ١٩١٧م قد أخفقت في دخول الأراضي الفلسطينية من الجنوب، وهاجمتْ غزّة مرتين، فرجعت خائِبةً، لأنّ الجندي العربي كان يسانِدُ العثمانيين، فلما قلب العربُ للأتراك ظهر المجن، ووقعوا في الأحبولة البريطانية، قاد الشيخ (فُرَيح أبو مُدّين) القوات البدوية في منطقة غزة، ورفح، وبئر السبع، لمحاربة الجيش العثماني، ومساعدة القوات البريطانية، التي كانت عاجزةً عن

(١) قال شكيب أرسلان سنة ١٩٢٥م: لماذا نلومهم على الكذب وهم أهل استعمار.

احتلال العريش وغزة ـ فدبَّ الذعر في القوات العثمانية حين شاهدوا العرب يحاربونهم، فتمكنت القوات البريطانية بقيادة الجنرال (اللّنبي) من احتلال العريش.

وفي تشرين الأول ١٩١٧م احتلَّت رفح وخان يونس وغزة ويافا وبيت لحم والخليل.

وفي ٩/ ١١/ ١٩١٧م دخلت القوات البريطانية مدينة القدس . . ورحّب العرب بدخول الجنرال (اللنبي) إلى القدس، وهو القائل في ذلك اليوم: «اليوم انتهت الحروب الصليبية».

ب ـ كيف صارتْ فلسطين في لهيب جحيم الانتداب البريطاني؟

أ ـ دخلت بريطانية وعدد اليهود في فلسطين حوالي خمسين ألفاً، فصار عددهم سنة ١٩٤٧م حوالي ستمئة ألف يهودي، بنسبة (٣١٪) من السكان. لأنها ساعدت على فتح أبواب الهجرة اليهودية.

ب ـ كان اليهود يملكون في أعقاب العهد العثماني حوالي ستمئة ألف دونم وخرجت بريطانية وهم يملكون حوالي مليوني دونم.

حيث وهبتهم حكومة الانتداب من الأراضي الحكومية حوالي مليون ونصف مليون دونم، واشتروا البقية من: بعض اللبنانيين والسوريين، الذين امتلكوا الأراضي في العهد العثماني، وطردوا عشرات الألوف من الفلاحين من أرضهم وقراهم لتقوم عليها المستعمرات اليهوديّة.

جـ ـ وقبل خروج بريطانية من فلسطين، أعلن اليهودُ قيامَ دولتهم في الساعة الرابعة من بعد ظهر يوم الجمعة ١٤/ ٥/ ١٩٤٨م، بلا حدودٍ، ومازالت بلا حدود لتكون حُرَّةً في ضمّ أراضٍ جديدة مما يزعمون أنه داخل في أرض إسرائيل أرض الميعاد، من أرض العرب.

٢ ـ وماذا بَعْدُ:

دخلت جيوش الجامعة العربية إلى فلسطين في ١٥/ ٥/ ١٩٤٨م وكانت هُدْنة بَعْدَ هدنةٍ إلى أن عُقدتْ الهدنة الدائمة سنة ١٩٤٩م.

وبَعْد أن استلمت الحكومات العربية مسؤولية الدفاع عن فلسطين، استولى اليهود على (١٧,٥) مليون دونم تقريباً، زيادةً على ما كان بحوزتهم، فَصَار المجموع (٢١) مليون دونم تقريباً.

وبقي بأيدي العرب خمسة ملايين دونم تقريباً، هي ما سُميَّ الضفة الغربية من نهر الأردن، وما سُمّي قِطاع غزة في الجنوب.

ثم أضاعوا ما بقي في حرب سنة ١٩٦٧م التي سِّميت (نكسة حَزِيْرَان).

٣ ـ إضاءات على تاريخ المسألة الفلسطينيّة.

منذ أُنشئتْ أولُ مستوطنة يهودية في العصر العثماني، إلى سنة ١٩٩٥م كانت الأساليب المتبعةُ للوقوف أمامَ الزحف اليهودي أساليب

خاطئة، تتكرر في جميع المراحل، دون تطوير، لتناسب أحوالَ الأعداء، وما طرأ عليها من تغيرات: فهي لا تخرجُ عن المظاهرات والاحتجاجات، وتقديم الشكاوى وكتابة المقالات الصحفية، والخطابات التهديدية، وإنشاء المنظمات والأحزاب المتصارعة، وإقامة الندوات احتفالاً بيوم إنشاء المنظمة أو الحزب... وأخيراً إنشاء المُنظّمات التحريرية المتعدِّدةِ القيادات والاتجاهات والأفكار، وكثرتْ الأيامُ السنويَّةُ التي تُلقى فيها الخطب، وتسير المظاهرات لذكرى المآسي والنكبات، فهناك يوم لذكرى وعد بلفور المشؤوم ويوم لذكرى مذبحة دير ياسين، ويوم لذكرى مذبحة قِبية، ويوم لمذبحة الحرم الإبراهيمي في الخليل.

وما زلنا نسمعُ مَنْ يقول: إنّ اليهود لم يَفُوا بعهودهم.. وهم لم يَفُوا يوماً بوعد. ونسمع مَنْ يطلب مِنْ راعييْ مؤتمر السلام: أمريكة، وروسية، التدخّل للضغط على اليهود: والمعروف أنَّ روسية ليست أقلّ كرهاً لجنس (المسلمين) وهي اليوم عاجزة عن حكم نفسها. وأمريكة تكره أن تسقينا شربة ماء. ويطلبون العون من الاتحاد الأوروبي والمعروف أن أوروبة مَهْد الصليبيّة الحاقدة[1].

---

(١) نقل الأستاذ يوسف الخطيب في (ديوان الوطن المحتل) عن أحد المؤلفين الغربيين قولَه: «إنَّ أطفال المدارس في الغرب يقرؤون منذ قرون عديدة قصة (رولان)، ومع أنّ أعداء (رولان) الحقيقيين كانوا مسيحيين، فإنّهم يظهرون لنا هنا على أنهم من العرب المسلمين الوحوش. لقد انتهى إلينا هذا الشعور =

وهذا كلُّه تاريخٌ أسودُ مُظْلمٌ، خطَّه مَنْ خطَّه في تاريخ المسألة الفلسطينية ومع ذلك لم يخلُ هذا التاريخ من إضاءات مفيدة، لو اهتدى بها السائرون، ومن هذه الإضاءات تجربةُ الشيخ المجاهد عزّ الدين القسّام، الذي أفردنا هذا الكتاب لترجمة حياته، وشرح تجربته، وأثرها الباقي الذي يبشّر بأن زوال اليهود من فلسطين محقَّقٌ ولو بعدَ حينٍ.

٤ ـ مُقدّمة مُنْذِرةٌ غير عاذرة:

أردت بها الأحداث التي جرت على الأرض العربية قبل النكبة الكبرى، وأنيابُ الطمع التي أبداها الأعداءُ منذ أواخر القرن التاسع عشر والأخبارُ التي كشفتْ عن نوايا المعتدين.

= بالخطر والتهديد الديني من خلال أساطير الحروب الصليبية. إننا نجدُ أنّ مفهومات الشجاعة والوطنية والشرف والتبشير في الثقافة العربية، إنما تستمدُّ جذورها من هذا الموقف العدائي ضد العرب والإسلام. إن الصورة التي يحملُها الغربيّون حالياً، والتي ما تزال عميقةَ الغَوْرِ في وعيهم الباطِن، يمكنُ تحديدُها على النحو التالي «العربُ برابرةٌ، إنهم أعداءُ المسيحيّة، لا لأنهم مهرطقون وحسب، ولكن لأنهم يقتلونَ جميع المسيحيين». اهـ. وقال الأستاذ الخطيب معقباً: فمن خلال هذه الصورة الرهيبة الكامنة في خلفية العقل الأوروبي المعاصر، تمَّ الإعداد في أواخر القرن التاسع عشر لتجهيز الحملة الصليبية الراهنة التي تتصل بألف سبب بالصليبية الماضية مهما تتبدل الشارات على صدور المقاتلين، أي أنّ الصليبية المعاصرة استعارت النجمة السداسية ـ شعار اليهود ـ محلَّ الصليب، ص٦٤.

وهذه الأحداث والمطامع التي ظهرت في أواخر القرن التاسع عشر، موصولةٌ بعداءٍ قديم للعرب والمسلمين، توارثه أبناء الأوروبيين عن أجدادهم، يفترُ مدةً، ثم يتجدَّدُ باحثاً عن زمن ضعفٍ يحلُّ بالعرب.

وهذا العداءُ القديم سجّله القرآن في قوله تعالى: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ [البقرة: ١٢٠]. وسجّله تاريخُ الغزو الصليبي، وتاريخُ الفتوحات الصلاحية، وتاريخُ السلاطين الأفذاذ (المماليك)، الذين تابعوا مسيرة صلاح الدين.

فالعداءُ الحديثُ الموصول بالقديم هو المقدّمة المُنْذرة.

والمُنْذِرةُ: المُعلِمة ـ اسم فاعل من أعلم ـ التي تعرِّفُ القومَ بما يكون قد دَهمهم من عَدوّ، وهي المخوِّفة أيضاً، والمُحَذِّرة.

وفي الحديث: «كان النبي ﷺ إذا خطبَ احمرّتْ عيناه، وعلا صوتُه واشتدَّ غضبُه، كأنه مُنْذِرُ جيشٍ، يقول: صبّحكم ومسّاكم» وكانت المُحذرات المنذِراتُ المخوّفات تتوالى متتابعة في كلِّ سنة صارخةً رافعةً عقيرتَها، منشِدَةً مع الشاعر القديم:

يا لَهْفَ نفسي إذا كانتْ أُمورُكُمُ شتَّى وأُحْكِم أَمْرُ الناسِ فاجتمعا

ألا تخافون قوماً لا أبا لكمُ أَمْسَوْا إليكم كأمثالِ الدَّبا سَرَعا[1]

---

(١) الدبى: اسم للجراد إذا تحرّك واسودّ قبل أن تنبتَ له أجنحةٌ، الواحدَةُ (دباة)، وسرعا: مصدر سماعي للفعل (سرع) إذا عجّل، يريد: أمسوا مسرعين.

في كلِّ يومٍ يَسنُّون الحرابَ لكم ... لا يهجَعُونَ إذا ما غافِلٌ هجعا
مالي أراكم نياماً في بُلَهْنِيةٍ ... وقد تَرَوْن شِهابَ الحَرْبِ قد سَطَعا[1]
هم الفناءُ الذي يجتثُّ أصلَكمُ ... فمن رأى مِثْلَ ذا رأياً ومَنْ سَمِعَا
فقلِّدوا أمرَكُم للهِ درُّكُمُ ... رَحْبَ الذراع بأمْرِ الحَرْبِ مُضْطَلِعَا
لا مترفاً إن رخاءُ العيش ساعده ... ولا إذا عضَّ مَكروهٌ به خَشَعَا
لا يطعَمُ النومَ إلا رَيْثَ يَبْعَثُه ... هَمٌّ يكادُ شَبَاه يقصِمُ الضِّلَعَا[2]
مُسْتَنْجَداً يتحدّى الناسَ كلَّهمُ ... لو صارعوه جميعاً في الوغى صَرَعا
لقد نَخَلْتُ لكم رأيي بلا دَخَلٍ ... فاستيقظوا إنَّ خيرَ العلم ما نَفَعا[3]

فأيُّ عُذر لنا، وأيُّ حُجّةٍ نبديها لتبرير الهزيمة، والوقوع في حبائل الأعداء؟ إن الأعداءَ لم يأخذونا على حِين غِرّة، ولم يغدروا بنا، لأنهم كانوا يصرّحون بما يطلبون، وكانت طريقُ النصر مرسومةً، قد رسمها القرآن، ورسمها النبيُّ ﷺ. وذكّرنا بها أهلُ العقل، وقدّم لنا عزّ الدين وعصبتُه أُنموذجَ التطبيق، فلم ننتفع بالذكرى.

* * *

(١) البلهنية: الرفاهُ ورخاءُ العيش، ولعله يريد هنا: الغفلة عن أحداثِ الزمن.
(٢) ريثَ يبعثه: أي: مقدارَ ما يبعثُه، شباه: جمعٌ مفرده (الشباة) وهي حدُّ كلِّ شيءٍ وطرفه، كحدِّ السيف والسِّنانِ، وقد تخيلَ الشاعر أنّ للهمّ حدّاً.
(٣) الدَّخَل: بالفتح والتحريك: ما داخل الإنسانَ من فسادٍ في العقل أو الجسم، أو الخديعةِ.

الفَصل الثاني

في جَبَلة

من المولد حتى الهجرة



الفصل الثاني

في جبلة من المولد إلى الهجرة

١ ـ جَبَلة في النشأة والتاريخ، من ثغورِ المسلمين:

جَبَلـة ـ بفتح الجيم، والبـاء ـ هكذا ضبطها يـاقوتُ الحموي في (معجمـه) وقال: قلعةٌ مشهورة بساحل الشام، من أعمال حلب قُرْبَ اللاذقيّة.

قال أحمد بن يحيى بن جابر البلاذري: لما فرغ عُبَادة بن الصامت من اللاذقية في سنة ١٧ هـ ـ وكان قد سيّره إليها أبو عُبيدة بن الجراح ـ وَرَدَ فيمن معه على مدينةٍ تُعرف بالبلدة، على فرسخين من جَبَلَة، ففتحها عَنْوةً، ثم إنها خربت، وجلا عنها أهلها. فأنشأ معاويةُ جَبَلَة، وكانت حِصناً للروم جَلْـوا عنه عند فتْح المسـلمين حمصاً، وشحنها بالرجال، وبنى معاويةُ بجبلة حصناً خارجاً عن الحصن الرومي القديم.

وكان سُـكّان الحصن القديم قوماً من الرهبـان يتعبّدون فيه على دينهم.

فلم تزل جَبَلَـةَ بأيدي المسـلمين على أحْسـن حال، حتى قويَ الرومُ، وافتتحوا ثغورَ المسلمين، فكان فيما أخذوا، جَبَلَةَ، في سـنة ٣٥٧هـ، بعد وفاة سيف الدولة بسَنة، ولم تزل بأيديهم إلى سنة ٤٧٣هـ.

ثم إنَّ القاضي أبا محمد عبد الله بن منصور بن الحسين التنوخي، المعروف بابن ضليعـة، قاضي جَبَلَة، وثب عليها، واسـتعان بالقاضي جلال الدين بن عمّار صاحب طرابلس، فتقوّى به على مَنْ بها من الروم فأخرجهم منها، ونادى بشعار المسلمين. . وبقيت بأيدي المسلمين.

ثم ملكها الفرنج (الصليبيّون) في سنة ٥٢٠هـ في الثاني والعشرين من ذي القعدة من يد فَخْر المُلْك، إلى أنْ استردّها صلاح الدين يوسف ابن أيوب في سنة ٥٨٤هـ. . وهي الآن بأيدي المسلمين، والحمدُ لله ربّ العالمين.

ونسبَ ياقوت الحموي إلى جَبَلَة عدداً من المُحَدِّثين والعلماء، مما يدلُّ على أنها كانت عامرةً بالعِلْم والعلماء.

ويـؤخذ من تاريخ النشـأة أنها كانت ثغراً يرابِطُ فيه المجاهدون، لأنها كانت مقصِداً للمغيرين القادمين من البحر، باعتبارها مدخلاً إلى ما وراءَها من البلاد، فإذا وجدوا في المسـلمين غفلـةً، انقضوا على ساحلِ بلادِ الشام وأَخذوه. ولذلك كان ساحل اللاذقية، وطرطوس، وجَبَلَة محلَّ عناية الخلفاء والأُمراء مُنْذ الفتح.

قال البلاذري: افتتح أبو عُبيدة، اللاذقية، وجبَلة، وأنطرطوس (طرطوس) على يدي عُبادة بن الصامت، وكان يُوكلُ بها حفظةً إلى انغلاق البحر، فلما كانت شحنة معاوية السواحل وتحصينها، شحنها وحصّنها وأمضى أمرَها على ما أمضى عليه أمرَ السواحل.

وقال البلاذري في (فتوح البلدان، ص١٣٩): وكانت الرومُ قد أغارت على ساحل اللاذقية، فهدموا مدينتها، وسَبَوا أهلها، وذلك في خلافة عمر بن عبد العزيز سنة مئة، فأمر عمرُ ببنائها وتحصينها، ووجّه إلى الطاغية في فِداء مَنْ أسر من المسلمين، فلم يتمَّ ذلك حتى توفي عمر في سنة واحد ومئة، فأتمَّ المدينة وشحنها يزيدُ بن عبد الملك.

وبقي الساحل في حرزٍ أمين في ظل الخلفاء الأقوياء من بني أميّة، وبني العباس. وكان آخر الخلفاء العباسيين الذين سجّل لهم التاريخ وقائعَ جهادية، المعتصم بالله، المتوفي سنة ٢٢٧هـ.

وفي مُدَّة تعاقب الخلفاء الضعفاء، سخّر الله لحماية ثغور المسلمين سيف الدولة الحَمْداني. ويبدو أنَّ معظم الساحل السوري كان تابعاً لإمارة حلب الحَمْدانية، لأن ياقوت الحموي، جعل جَبَلة من أعمال حلب.

وقد ذكرنا في الصفحة الأولى من هذا الفصل ما حلَّ ببلاد الشام بعد وفاة سيف الدولة. وبقيت جبلةُ ـ بعد سيف الدولة ـ يتداولها الروم والعرب والفرنجة الصليبيون، إلى أن رجعتْ إلى أحضانِ المسلمين سنة

٥٨٤هـ على يد صلاح الدين الأيوبي.

ولكنَّ أهلها لم يكونوا يتركونها، عند دخولِ الأجنبيّ إليها، بل كانوا يثبتون في أرضهم ويحكمها الروم، أو الفرنجة بعساكرهم المحمية في الحصون. يدلُّ على ذلك ما قاله ابن الأثير عند فتح جَبَلَة على يد صلاح الدين لما أَقَامَ صلاحُ الدين تحت حِصْنِ الأكراد، أتاه قاضي جَبَلَة، وهو منصور بن ثبيل، يستدعيه إليها ليسلّمها إليه، وكان هذا القاضي عند بيْمُنْد ـ صاحبِ أنطاكيّة وجبلة ـ مسموعَ الكلمة، له الحرمةُ الوافرة، والمنزلةُ العالية، وهو يحكم على جميع المسلمين بجبَلَة ونواحيها[1].

٢ ـ المولد، الاسم، والأسرة، والطفولة:

وُلِدَ محمد عزّ الدين القسّام في بَلْدة جَبَلَة، عام ١٣٠٠هـ الموافق ١٨٨٣م[2]. وشُهر باسم (عزّ الدين)، ولكن اسمه مركب فهو (محمد عزّ الدين)، ولذلك ترجم له الزركلي في (أعلامه) في حرف الميم باسم

---

(١) الكامل: ٩/ ١٩ (حوادث سنة ٥٨٤هـ).

(٢) اختلفوا في سنة الولادة: فذكرت مصادر أنه ولد سنة ١٨٧١م، ومصادر أخرى ذكرت ١٨٨٢م، لكن مصباح غلاونجي ـ وهو من أهل جبلة ـ اختار سنة ١٨٨٣، وقال: هو الصحيح، لأنه مأخوذ من سجلات الأحوال المدنية الرسمية في جبلة، وربما كان الاختلاف بين سنة ١٨٨٢م و١٨٨٣م هو حساب ما يوازي السنة الهجرية المسجلة في أوراق الحكومة التركية والله أعلم.

(محمد عزّ الدين) . . وهكذا جاء اسمَه على رسالة (النقد والبيان) . . وقد جرتْ عادةُ النّاس في مثل هذا التركيب أن يشهروا الاسم الثاني، فقط ويهملوا الاسم الأول (محمد).

أما الأبُ: فهو عبد القادر بن مصطفى بن يوسف بن محمد القسَّام.

وكان الجدُّ مصطفى وشقيقه قد قدما إلى جبلة من العراق، وهما من المقدّمين في الطريقة (القادريّة) المنسوبة إلى (عبد القادر الكيلاني، أو الجيلاني)[1] (٤٧١ ـ ٥٦١هـ) . . ولهذا كان أنصارُ الطريقة القادرية في العراق يقدمون إلى جبلة لزيارة أضرحة عبد القادر ووالده مصطفى، في جبلة، فكان عزّ الدين يردعُ هؤلاء، ويحثّهم على الامتناع عن الحجّ إلى جبلة لهذا الغرض.

تزوج عبد القادر القسَّام بامرأتين: أولاهما من قلعة المرقب، وهي آمنة جَلّول، فأنجب منها، أحمد، ومصطفى، وكاملاً وشريفاً.

وثانيتهما: من جبلة، وهي أمُّ عزّ الدين، حليمة قصاب أو القصاب. وقال بعضهم إنها من آل (نور الله) ولعلَّ القصاب فخذٌ من آل نور الله، أو (نور الله) فخذ من آل القصّاب.

وأشقاءُ عزّ الدين منها: أمينٌ، وفخري ـ أو فخر الدين، وفاطمة.

---

(١) عبد القادر بن موسى بن عبد الله بن جنكي دوستْ الحسني، مؤسس الطريقة القادرية وُلِدَ في جيلان، جنوب بحر قزوين من إيران.

وفي رواية أن اسم البنت (نبيهة).

وكان عزُّ الدين سادس سبعة أخوة وأشقاء، وثاني ثلاثة أشقّاء.

وأُسْـرةُ عزّ الدين القسَّام من مئـات الأُسر التي كانت تعيش على الكفاف والصبر على ما قسم الله تعالى.. ولكنَّ رصيدها من الذكر حسن كبير،. فهي أُسرة مُتديّنة، ولها حظٌّ من العلم الشرعي، يحبُّها الناس لما لها من المكانة الدينيّة: منها أقطاب الطريقة القادريَّة، وكان للطرق الصوفيّة أنصارٌ كثيرون في ذلك الزمان، ولعلَّ الطريقة القادرية - في أصلها - أقـربُ الطرق الصوفيـة إلى الدين. ومن وصايـا عبد القادر الجيلاني: التقشّف، ومحبة الغريب، وهذان أمران، إن اتصف الناسُ بهما، زالت البغضاء، وولّى التحاسد، وسادتْ المحبة بين الخلق... وكان آلُ القسَّام مشهورين بالْعِلم، والصلاح، يُعْطون ولا يأخذون، ويكسبون قوتهم من عملهم.

ولكن المؤرخين اختلفوا في وصف حال عبد القادر القسَّام، وهم معذورون في ذلك، فليس لهم مصدرٌ إلا الروايات الشفوية، التي جاءَت متأخرة عن زمنها، أو نُقِلتْ عمن لم يشهد الحوادثَ، أو لم يكن يوجِّهُ عنايته إليها. فعبد القادر القسَّام واحدٌ من ملايين الرجال الذين عاشوا ما عاشوا، ثم ماتوا دون أن يرصدَ التاريخ حياتهم.. فإذا احتاجَ التاريخ إليهم بعد زمنٍ طويل كانت روايات، وكان تخبُّطٌ في الرواية، وقصة عبد القادر القسَّام، لم يكن التاريخ ليذكرها لولا نبوغ ابنه عزّ الدينِ، ثم

جاءَت العناية بتاريخ الابن عزّ الدين متأخرةً، وكان بين وقوع الأحداث في طفولة عزّ الدين، وبين التدوين عشراتُ السنين. . فهرع المؤرخون إلى مَنْ بقيَ من ذلك الرعيل، أو مَنْ حضرَ الأحداث طفلاً، فأخذ هؤلاء «يعصرون» ذاكرتهم، فتجودُ عليهم حيناً، وتبخلُ عليهم أحياناً كثيرة، فيجتهدون، وقد يخطِئون، وقد يصيبون، فيختلط الصواب بالخطأ.

فقالوا: إن عبد القادر القسّام كان صاحبَ طريقة صوفية تُسمَى (القادرية)، وقالوا: إنه رأسُ هذه الطريقة. وهو يوهِمُ أنّه مؤسسها: والحقيقة أنه ورث الطريقة عن أبيه، وقد نقل أبوه هذه الطريقة من العراق حيثُ موطنُه الأصلي.

وقالوا: إنَّ عبد القادر القسَّام عُرف بأنّه كان (حدَّادًا) وأنه كان تقياً ورعاً مُلمّاً بأصول الدينِ، وهذا ما جعله إماماًلجامع سوق الحدّادين في وسط بلدة جبلة.

وقالوا: إنه كان يديرُ كُتّاباً لتعليم الصبية تلاوةَ القرآن ومبادِئ الكتابةِ.

وقالوا: إنه كان يملك (حاكورة) يزرعها بمساعدة أولاده.

وقالوا: إنه كان يعمل في أرض الأفندي.

. . وهذه وظائف يصعبُ الجمع بينها في وقت واحد.

فكونه صاحب طريقة ورأسها يستغرق جلَّ وقته، ويدرُّ عليه ربحاً

يجعله في بحبوحة العيش، مع أنّه كان فقيراً، تسكنُ أسرتُه كلَها في غرفة واحدة طويلة يجمع فيها مع أولاده دابته وحطبه وعلف دابته.

ولو كان رأسَ طريقة صوفية لكان طعامُه السمن والعسل، الذي يجلبه المريدون. وكونه يدير كُتّاباً لتعليم الصبية يحتاجُ إلى التفرُّغ.. وكيف يكونُ له كُتّابٌ يديره، وهم يروون أن ابنه عزّ الدين تعلّم في كُتّاب الشيخ محمود وفي زاوية الإمام الغزالي؟ فلماذا لم يجلس في حلقة والده؟

وكونه كان يعمل في أرض الأفندي ينافي الوظائف كلها، وينافي حال عيشه.. لأن الذي يعمل في أرض الأفندي يتفرَّغ للعمل كلَّ وقته، وربما سكن وأسرته في الأرض.

ولو كانت له حاكورة يزرعها بمساعدة أولاده، ما عاشَ في غرفةٍ واحدةٍ مع أولاده.

وقالوا أيضاً: إنه كان يعمل مستنطقاً في جبلة، وَيقوم بكتابة أوراقِ النفوس أيام الدولة العثمانية.

ويمكن الجمع بين هذه الأقوال: أن هذه الأعمال والوظائف، مرَّ بها القسامُ ولم يجمع بينها، فاشتغل حداداً في زمن، واشتغل مستنطقاً في وقت وكان يُعلّم الأولادَ القرآن في بعض أوقاته، وكان يصلّي بالناس في جامع السوق مختاراً، يقدمه الناسُ للإمامة إذا حضر.

أما طفولة عزّ الدين فقد أمضاها في بلدة (جبلة) قرأ القرآن، وتعلّم القراءَة والكتاب والحساب في (الكُتّاب) ودرس مبادئ العلوم الدينية على والده، وتتلمذ في جبلة لشَيخين عُرفا بسَعةِ العلم والمعرفة في اللغة والتفسير والحديث والفقه، هما الشيخ سَليم طيارة، البيروتي الأصل، والشيخ أحمد الأروادي.. ولما آنس منه أبوه رغبة في العلم أرسله إلى الأزهر. وبعد عودته إلى جبلة اقترن بالسيدة أمينة نعنوع من جبلة، فأنجبَ منها ولداً ذكراً أسماه (محمد) وثلاثَ بناتٍ هنَّ: عائشة، وميمنة، وخديجة.

وقد وُلد ابنه محمد في فلسطين، حيث كان عمره حين وفاة والده سبعَ سنوات.. وبلغت ميمنةُ درجة عالية من الثقافة في حياة والدها، ونقلنا في الفصل الأخير خطبةً بليغة ألقتها ميمنة بنت عزّ الدين في المؤتمر النسائي الذي عُقِد بالقاهرة سنة ١٩٣٨م، تدلُ على تمكُّنها من ناصية البيان.

٣ ـ في جوار الجامع الأزهر:

أ ـ لماذا قصد الجامع الأزهر؟

لأنَّ الجامع الأزهر، أشهر مؤسسة تعليميّة في ذلك الزمان. وربما كان المنهلَ العلميَّ الوحيدَ في القرنين الأخيرين من العهد العثماني. فقد بُني الجامعُ الأزهر سنة ٩٧٢م بأمر الخليفة الفاطمي المعزّ لدين الله. ولقّب

(الأزهر) إشارةً إلى لقب فاطمة الزهراء. وكان يقصده طُلاب العلم من كل صوبٍ، ويُسَمّوْن المجاورين لسكناهم بجوارِه، في الأروقة التي أُعدّت لسكن طلبة العلم الغرباء.

وكان المدرسون يُسَمَّوْن خدمةَ العلم، لأنّ غايتهم نَقْلُ ما ورثوه في أمانة وإخلاص.

وقد خُصّص لأهل كلِّ إقليم جهةٌ ملاصقةٌ للمسجدِ يسكنونها، تسمّى الرُّوَاق[1]: ولكلِّ رواق شيخٌ من أهله، تكون وظيفتُه الإشرافَ على شؤون الطلاب ورعايتهم. وعاصرنا في أوائل الخمسينات الميلادية عددًا من الأروقة: منها: رواق الشوام، ويسكنه كلُّ مَنْ جاء من بلاد الشام (الأردن ـ سورية ـ فلسطين ـ لبنان) ورواق المغاربة، ويسكنه طلاب المغرب العربي. ورواق الأحباش، لمن جاؤوا من الحبشة، ورواق الصعايدة، لمن جاء من صعيد مصر. ورواق السودان.

ولعلَّ الأصل في إيجاد سكن بجوار المسجد، لسكن طلبة العلم، مأخوذ من (الصُّفَّة) التي كانت مخصصةً لسكن فقراءِ الصحابة في العهد النبوي، في مؤخرة المسجد النبويّ.

وقد بقي الجامع الأزهر قبلة طلاب العلم من بلاد الشام، بل كان

---

(١) الرُّواق: بضم الراء وكسرها: سقف في مقدّم البيت، أو كساءٌ مرسل على مقدم البيت من أعلاه إلى الأرض.

أُمنية الطلاب المتشوقين إلى مناهل العلم، في زمنٍ اندثر فيه العلم، أو كاد أن يندثر في المراكز العلمية التي كانت عامرة في العصر المملوكي: مثل دمشق، والقدس، وحلب، وغزّة.

ب ـ الطريق إلى القاهرة:

كان طلبة العلم يرتحلون في طلب العلم، بعد أن تنفد المناهل العلمية في قريتهم ومحيطهم. وفي مطلع القرن الرابع عشر الهجري، وأواخر القرن التاسع عشر الميلادي، لم يكن في (جَبَلَةَ) إلا (الكُتَّاب) الذي يُعلِّمُ أصول الكتابة والقراءة، وتلاوة القرآن وحفظه، ولم تكن قُرى الساحل ومدنُه أوفرَ حظاً من جَبَلة، ولم تَعُدْ حلقات الدرس في الجامع الأموي بدمشق، في المستوى الذي يستحق الرحيل إليه.. فلم يَبْقَ إلا الأزهر في القاهرة:

فما سِنّه عندما رحل في طلب العلم إلى الأزهر؟

وما الطريق التي سلكها للوصول إلى القاهرة؟ وهل رافقه أحدٌ في رحلته؟.

تتفق الروايات أنه رحل في طلب العلم، عندما بلغ الرابعة عشرة من عمره، سنة ١٣١٤هـ ـ ١٨٩٦م.

أما طريقُه إلى الجامع الأزهر: فجاءَت فيه ثلاث روايات:

تقـول الأولى: إنـه ركب قارب صيدٍ من جزيـرة أرواد[1] إلى الإسكندريّة، وانتقل من الإسكندريّة إلى القاهرة برّاً[2].

وتقول الثانية: إنّه غادر متوجهاً إلى القاهرة، وكان يرافقه أخوه فخر الدّين، وعزّ الدين التنوخي، ورضا مسيلماني، ومصطفى مسيلماني، وذيب البيرص، وناجي أديب، ـابن خالة عزّ الدين ـ ومنح غلاونجي[3].

وتقول الثـالثة: إنه ذهب مع أبيـه عام ١٨٩٦م إلى جزيـرة أرواد القريبـة، ليسـافر على أحد قـوارب الصيد إلى الإسـكندرية.. فسافر عـزّ الدين، وابن خالتـه ناجي أديب، وبرفقتهم أخـوه فخر الديـن، وعزّ الدين التنـوخي وبعض طلاب العلم[4] وتجتمع هذه الروايـة مع الرواية الأولى، في أنه سافر عن طريق جزيرة أرواد بقارب صَيْد. وتجتمع الثانية مع الثالثة في إثبات رفاقٍ في الرحلة من أرواد إلى مصر.

والروايات الثلاث، فيها الصحيح، وفيها الخطأ:

---

(١) جزيرة أرواد: على بعد ثلاثة أكيالٍ من شاطئ مدينة طرطوس، طولها (٨٠٠م) وعرضها (٥٠٠م).

(٢) عن كتاب (القسّام) لعبد الله الطنطاوي ـ منشورات فلسطين المسلمة.

(٣) عن كتاب (عز الدين القسام)، تأليف علي حسين خلف، ط ـ منشورات دار الحوار ـ اللاذقية، ونقل المؤلف الرواية عن عدد من آل القسّام.

(٤) عن كتاب (الشيخ عز الدين القسام)، تأليف حسني أدهم جرار، منشورات دار الضياء ـ عمّان، الأردن.

أمـا الصحيح، فكونه ســافر إلى مصر لطلب العلم في الجامـع الأزهر.

وأما الخطأ، أو ما يحتمل الصحة والخطأ، فهو في وسيلة السفر، ورفاق الطريق. فقولهم: إنه سافر إلى الإسكندرية على أحد قوارب الصيد، فيه نظر:

فـالقارِبُ، في اللغـة والاسـتعمال: سـفينةٌ صغيرة، تكون مع أصحاب السُّفن الكبار، كالجنائب لها، تستخفّ لحوائجهم، ومنها قوارب النجاة، وقد يستخدمها الصيادون للصيد في المياه القريبة من الشاطئ. أما السفرُ الطويل فلا تستخدم القوارب فيه، لأنه يحتاج إلى ماءٍ وزادٍ، وفي السـفر الطويـل يكثـرُ الرُّكـاب.. مما لا يحتمل القـاربُ نقلهم.

والرحلة من أرواد ـ طرطوس ـ إلى الإسكندرية تستغرق أياماً بالقارب الشراعي أو السفينة الشراعيّة، وبحر الشام لا تُؤمَنُ بوائقه، فقد تهيج أَمواجه فتصبحُ كالجبالِ، والقارِبُ الصغيرُ لا يصمدُ أمامَ العواصف البحرية.

وقد اتفقتْ روايتـان على أن في صُحبة القسّـام عدداً من طلاب العلم، قد يكونون خمسة أو أكثر.. فكيف يحتمل القاربُ هذا العدد، والعُدَّة؟

أَظنُّ أن الذين رَوَوْا قصة سفر القسَّام، وقعوا في وَهَمٍ[1]. فالقسَّام ورفاقُه انتقلوا من الشاطئ إلى جزيرة أرواد، بقارب صيد، كما هو الحال في أيامنا، ثم ركبوا سفينةً كبيرة من شاطئ أرواد، لأنّ ميناء طرطوس لم يكن موجوداً، ولا تستطيع السفنُ الكبيرة أن ترسو قريباً من الشاطئ، فيكون مرساها على شاطئ أرواد.

وهل كان سفرهم إلى الاسكندريّة؟ قد يكون هذا، وقد يكونون سافروا إلى إحدى المدن الفلسطينية، ثم انطلقوا برّاً إلى القاهرة، حيث القوافل المنتظمة إلى أرض مصر.

جـ ـ أمّا الخطأ في رفاق الطريق، فالغلط فيه واضحٌ بيّن: فالرّفاق الذين ذُكروا في رحلة القسّام إلى القاهرة، لم يرافقوه جميعاً في الرحلة، وإنما ذهبوا في سنواتٍ متتالية، وكان اجتماعهم في رواق الشام بالأزهر.

وقد كشفتُ الخطأ في هذا الخبر، باستخدام طرق أهل الحديث النبوي، التي ليس لها مثيل في تواريخ الأمم، في اختبار التاريخ، وكشْف كذبه[2] وتحققنا من الخطأ، بالرجوع إلى ترجمة عزّ الدين التنوخي، أحدُ

---

(١) الوَهَم: بالتحريك، الغلط، والوَهْم: بالسكون، أن يسبق القلب إلى شيءٍ مع إرادة غيره.

(٢) نَقَل السخاوي في كتابه (الإعلان بالتوبيخ لمن ذمَّ التاريخ) عن سفيان الثوري قوله: لما استعمل الرواة الكذب، استعملنا لهم التاريخ.

الذين زُعِمَ أنه رافق القسّام في رحلته من أرواد على قارب صيد. ووجدنا اختلافاً في مكان الولادة والمنشأ، واختلافاً بعيداً في سنة الولادة، واختلافاً في مكان الانطلاق إلى الأزهر، وزمنه. ومصدرنا ترجمة عزّ الدين التنوخي التي كتبها بقلمه وأودعها في مجمع اللغة العربية الدمشقي.

وُلِد عزُّ الدين التنوخي سنة ١٣٠٧هـ ـ ١٨٨٩م بدمشق. وبدأ يتلقى علومه الأولية في المدرسة الرُّشدية[1] الابتدائية بدمشق. وقبل أن يتمّ تعلمه هاجر أبوه إلى فلسطين، وأقامت الأُسرة في يافا. وفيها أتم عزّ الدين تحصيله الإعدادي بعد أن انتسب إلى مدرسة الفرير الفرنسية ولما وجد أبوه رغبة منه في الاستزادة من العلم، أرسله إلى الجامع الأزهر، ومكث في مصر نحواً من خمس سنين، ثم عاد إلى دمشق بعد أنْ مَرَّ بأسرته في فلسطين.

وفي سنة ١٩١٠م أوفد في بعثة إلى فرنسة لدراسة الزراعة... إلخ.

---

(١) كانت الدراسة الحكومية في نهاية العصر التركي مقسمة إلى أربع مراحل:
الأولى: ابتدائية دنيا (صبيانية) من ٧ـ١١ ومدة التعليم أربع سنوات.
الثانية: ابتدائية عليا (رُشْدية) مدة التعليم فيها أربع سنوات.
الثالثة: مدارس ثانوية دنيا (إعدادية)، ومدتها ثلاث سنوات.
الرابعة: مدارس ثانوية عليا (سلطانية) ثلاث سنوات.

وبهذه الترجمة يسقطُ واحدٌ من رفاق الرحلة الموهومين من أرواد إلى الإسكندرية فالتنوخي سنة سَفَرِ القسَّام إلى مصر كان عمره سبع سنواتٍ فقط . . ومَنْ كان في هذه السن، لا يغترب عن أهله .

ورأينا أنه أتمَّ تعليمه الإعدادي في يافا مجاوراً أُسرته، ومن يافا انتقل إلى الأزهر، في حدود سنة ١٩٠٣م، فيكون قد زامل القسّام في مصر مدة سنة واحدة فقط . وبقي بَعْدَ القسَّام في مصر حوالي أربع سنوات .

وتقول الروايات : إنَّ أخاه فخر الدين، كان رفيق رحلته من أرواد : ونحن نشك في صحة هذه الروايات : فربما كان من أمر فخر الدين، ما كان من أمر التنوخي، ويكون فخر الدين قد لحق بأخيه بعد سنوات . . لأن عبد القادر القسَّام موصوف بأنه مستورُ الحال، قليلُ ذاتِ اليد، ولا يستطيعُ تحمُّلَ نفقةِ وَلَديْن في بلاد الغُرْبة .

د ـ في رحاب الأزهر :

هناك اتفاق بين الرواة على أن عزّ الدين القسَّام ارتحل إلى الأزهر عندما بلغ الرابعة عشرة من عمره، وهناك اختلاف في المدة التي أمضاها في الدراسة . فمنهم مَنْ قال : إنها ثماني سنوات . ومنهم مَنْ قال : إنها عشر سنوات، ويمكن الجمع بين الروايتين، بأن الذي قال : إنها ثمانية أعوام، أسقط الكسور من البداية والنهاية، والذي قال : إنها عشرة

أعوام، احتسب الكسور فعدَّها عشرة أعوام، ونأخذ بالرأي الأخير، لأنه مبنيٌّ على شهادة معاصر من أهل منطقته، وهو الشيخ محمد المجذوب الطرطوسي، من مقالة كتبها في جريدة (الجامعة العربية) المقدسية في ٢٠/ ١٢/ ١٩٣٥م.

وليسَ بيْن يدينا إحصاء يبيّن المشايخ الذين تتلمذ عليهم الشيخ القسَّام، ولا نملك دراسةً حولَ المنهج الدراسي، والعلوم التي درسها، أو العلوم التي كان يميل إليها وتبحّر في دراستها.. ومن المؤكّد أن القسّام لم يشهد نظام مراحل الدراسة، لأنَّ تقسيم الدراسة الأزهرية إلى مراحل دراسية، كان في سنة ١٩١١م بعد مغادرة القسَّام الأزهر، وكانت الدراسة قبل هذا التاريخ، تسير على طريقة الحلقات، دون نظام للقبول والامتحانات والشهادات، ودون التمييز بين مختلف المراحل الدراسية، ودون تحديد للمناهج. وفي سنة ١٨٧٣م صدر أول قانون ينظم طريقة الحصول على الشهادة العالمية، ويرتب درجاتها ويقرر مواد الامتحان. أما نظام المرحلة النهائية الذي قسّم الأزهر كليات جامعية: الشريعة ـ والأصول ـ واللغة ـ فقد صدر سنة ١٩٣٦م.

وبهذا نستطيع أن نقرّر أن عزّ الدين القسَّام نال شهادة الأزهر العالية دون أن يمرّ بالمراحل الدراسية ـ الابتدائية، فالثانوية ـ بل اعتمدتْ دراسته على الجهد الحُرّ في الدراسة، وكان الانتقال من منزلة إلى أُخرى، بمقدار ما يستوعب من العلوم التي تؤهّله للارتقاء إلى مصافّ العلماء.

وكانت العلوم الدينية ـ الفقه والتفسير والحديث والأصول ـ والمواد اللغوية (النحو والبلاغة) هي مدار الدراسة الأزهرية.

هـ ـ الجهاتِ المؤثرة في بناء شخصية القسّام الثقافية:

● العلوم الإسلامية والعربية: التي درسها أثناء وجوده في الأزهر، هي العنصر الأول في تكوين شخصيّة القسّام. ومهما قيل في نوعيّة المواد المقررّة والكُتُب التي تمثل هذه المواد، فإنها تنتهي في نسبتها إلى التراث الإسلامي. ومَنْ أوتي الذوق السليم، والبصيرة النافذة، استطاع أن يستخرجَ الفوائد مما يقرأه. بل إنَّ الطالبَ الذي ارتحلَ لطلبِ العلمِ، لن يقتصرَ على ما يأخذُه في حلقاتِ الدرس، وإنما يرجعُ إلى المنابعِ الأصلية لهذه العلوم وهي القرآن والحديث، وهما منهلان عَذْبان لم يستطع أحدٌ أن يعكِّر صفوهما.. وعزّ الدين القسَّام، أخذ من النبْع، لِمَا ظهر في أسلوب خطابه المستقبليّ ولما سنرى من استنباطاته الفقهيّة التي واكبتْ الحياة والحاجة.

● صدى الأحداث القريبة: حيث وصل عزّ الدين القسّام إلى القاهرة سنة ١٨٩٦م، وقد مضى على استيلاء الإنكليز على مصر، أربعةَ عشر عاماً وما زالتْ أفكار الثورة العرابية، بزعامة أحمد عرابي، سائدة في المجتمع فقد خسر أحمد عُرابي المعركة العسكرية سنة ١٨٨٢م، ولكن ربح وفاز لأنه بعث الروح الجهادية في نفوس فئةٍ من الناس.

ولعلّ عزّ الدين القسّام سمع قصّة أحمد عرابي قبل قدومه إلى مصر، حيث كان للحركة العرابية صدى في بلاد الشام، وتأثر الناس بها، وتعاطفوا مع شخصيتها، ولهجت الألسنة بالدعاء أن ينصرَ اللهُ عرابي على الأعداء المغيرين.

ففي أعقاب وقفة عرابي في وجه الغزو البريطاني لمصر، بعث القنصل البريطاني في القدس بتقرير سنة ١٨٨٢م حول تجاوب عرب فلسطين مع ثورة عرابي إلى حدٍّ أدى إلى هياجٍ واضطراباتٍ في كلٍّ من يافا والقدس.

وفي نصّ التقرير: «إنه من الثابت والأكيد أنَّ المسلمين المحليين يعطفون بعُمْق على عُرابي، بوصفه مسلماً يحارب المشركين، وبوصفه بطل الجنس العربي المسلم، الذي يتوقّف على نجاحه مستقبل جنسهم».

وفي قصة حياة عُرابي ما يستحقّ أن نَعدَّه مثالاً اتخذه القسَّام أُنموذجاً لتجدّد البطولة العربية الإسلامية في العصر الحديث... فأحمد عُرابي حفظ القرآن في قريته، ثم التحق بالأزهر أربع سنوات، وفي سنة ١٨٥٤م خدم بالجيش جندياً، فضابطاً.. وثار للقضاء على النفوذ الأجنبيّ في البلاد، وقاد أتباعه لمنْع قوات بريطانية من دخول مصر.. وكانت محاولة عُرابي، محكوماً عليها بالفشل العسكريّ، قبل أن تبدأ. لأنَّ رأس حكومة البلاد الخديوي توفيق من أنصار العدوّ الغازي، ولأنَّ الجيش الغازي يتفوق عسكرياً بأضعاف مُضاعفة. ومع ذلك فإن بريطانية

حاولت ثني عرابي عن عَزْمه سلمياً لئلا تكون ثورته بدايةً لتجدد صُور الجهاد، ولئلا يكـون عُرابي البطل الذي يُقْتدىٰ بـه في مسـتقبل الأيام. فلجأت بريطانيـة إلى مسـاومة عرابي عن طريـق آل روتشلد ـ الأسرة الصهيونية التي تسلمت وَعْد بلفور لاحقاً ـ فعرض فرعها البريطاني على عُرابي راتباً تقاعدياً مدى الحياة، بمبلغ أربعة آلاف جنيه مصري في العام. وعرض فرعها الفرنسي مبلغ ستة آلاف جنيه مصري في العام، ثمن مغادرة عُرابي البلاد، فرفض عُرابي المساومة كما رفض الخضوع لتهديد الأسطول البريطاني، وقاتل ما شاء الله له أنْ يقاتل. . وكان جنوده من الفلاحين الفقراء.

فليس بمستغرب أن يحفظ القسَّام هذا الأُنموذج[1]، وأن تكون الأفكار العُرابية قد أثرت فيه، لأن الصورة نفسها تتكرر مع القسَّام، ويعيدُ التاريخ نفسه، عندما وقف القسَّام أمام الفرنسيين في الساحل السوري، ثم حارب الإنكليز في فلسطين، وجنّد لذلك الفلاحين الفقراء في مَرْحَلَتَيْ جهاده، وتكررت إغراءات الفرنسيين والإنكليز للقسام، كما سنعرضه في الفصول التالية، إن شاء الله.

● وأقحم الذين كتبوا عن القسَّام، جمالَ الدين الأفغاني، ومحمد

(١) الأنموذج الأقرب إلى عز الدين القسام هو سميّه عز الدين بن عبد السلام سلطان العلماء، وشيخ الإسلام ابن تيمية رحمهما الله تعالى وغيرهما من الأئمة الأعلام المجاهدين. (الناشر)

عَبْده في ترجمة الرجل، وجعلوا أفكار الرجلين من المؤثرات الكبرى في تكوين شخصية القسَّام الفكرية، والعملية المستقبلية، وربما جعلَ بعضُهم أفكار محمد عبده وجمال الدين الأفغاني الموجِّه الأول لحياته، وزعم بعضهم أن القسّام تتلمذ على الشيخ محمد عبده. قلتُ: وهذا كلام يفتقر إلى الدليل. فليس عند القائلين به دليلٌ، إلا كون أفكار جمال الدين مبثوثة في المجتمع المصري، وكون القسّام عاصر محمد عبده مدَّة وجوده في مصر، وجلوسُ الإنسان أمامَ مائدةٍ متعددة الأطعمة، لا يدلُّ على أنه أكل من الأطعمة كلها، فقد يكون فيها ما تعافه نفسه، فكيف إذا كان على المائدة محرَّمٌ؟

● أمّا جمال الدين الأفغاني (محمد بن صَفْدُر ـ ١٨٣٨ ـ ١٨٩٧م) فقد تواترت أقوال المؤرخين «أنه انضمَّ إلى جماعة (الماسون) وبها الطبقة الممتازة من أبناء الأُمة، ليسيطر على الحياة السياسية، بعد سيطرته على الحياة الاجتماعية.. ولكنه وَجَد المحفل الماسوني يأبى أن يقتحم ميدان السياسة، فثارت ثائرته.. ولما أخفقَ في بعث هذه النار الهامدة في نفوسهم، استقال «وكوّن محفلاً آخر للشرق الفرنسي، وأخذ الأعضاء يزيدون حتى بلغ عددهم ثلاثمئة عضو من نُخْبة المفكرين، ونظمهم شُعباً مختلفة، فشعبة للعدل، وأخرى للمالية، وثالثة للأشغال، ورابعة للجيش... إلخ»[1].

---

(١) الأدب الحديث، لعمر الدسوقي: ١/ ٢٢٦.

والمعروف أن الأفغاني نشأ وهو يرى وحدة الأديان، ويدعو إلى وحدة الأديان الحاليّة، وهي الفكرة التي توجّه الماسونية. ، فهم يريدون أن يهدموا كلَّ شـيء لبناء كيانٍ جديد يريدونـه، ويقول الدسوقي: إنَّ الأفغاني مات في إستانبول، ودُفِنَ في قبر حقير كما يُدْفَنُ أقلُّ الناس، وطُمستْ معالم هذا القبر، إلى أن «قيّض الله له رجلاً أمريكياً بحث عنه حتى وجده فجدده، وبنى عليه حاجزاً حديدياً، وشاده بالرخام، وكتب على أحد وجوه الرخام اسم السيد وتاريخ ولادته ووفاته، وفي وجه آخر العبارة التالية «أنشأ هذا المزار الصديقُ الحميمُ للمسلمين في أنحاء العالم، الخيّرُ الأمريكانيُّ المستر شارلس كرين سنة ١٩٢٦م»[1].

وهذا الشيخ مصطفى عبد الرزاق، (المتوفى سنة ١٩٤٦م) شيخ الأزهر، والتلميذ المحبّ للشـيخ محمد عبده، كتب ترجمةً للشـيخ الأفغاني، منشورة في مطلع العروة الوثقى. . فقال[2]: «وانتظم السيّد (جمال الدين الأفغاني) في الماسونيّة وتقدَّم في درجاتها، ثم أنشأ محفلاً وطنياً جمع فيه نُبَهاءَ طلابه ومريديه حتى صار عدد أعضائه نحو (٣٠٠) وكان هو رئيسه».

---

(١) مجلة (الثقافة)، العدد (٢٦٨)، بقلم أحمد أمين.

(٢) الشـواهد على انتماء الأفغاني إلى الماسونيـة كثيرة، وإنما فقلت قول مَنْ لا يُتَّهم بالهوى، وانظر ترجمة الأفغاني في (زعماء الإصلاح)، لأحمد أمين.

وقال: «وفي جُمادى الأولى ١٣٠٣هـ سافر السيد إلى البلاد الإيرانية بدعوة من الشاه ناصر الدين، فنال مكانةً ساميةً، وتزاحمَ حولَه الأمراء والمجتهدون والكبراء وتمكن من نَظْم كثير منهم في سلك الماسونيّة..».

ونقل الشيخ عبد الرازق شهادة الفيلسوف الفرنسي (رينان) في جمال الدين الأفغاني دون أن ينقضها، وهي قولُ رينان: «لقد تعرفتُ بالشيخ جمال الدين منذ نحو شهرين (سنة ١٨٨٣م) فوقع في نفسي منه ما لم يقعْ لي إلا مِن القليلين، وأثّر فيّ تأثيراً قوياً... والشيخ جمال الدين رجلٌ أفغاني لا سلطان عليه لمؤثرات الإسلام، وهو ينتمي إلى ذلك الجنس القويّ المستوطن إيران العليا الواقعة على حدود الهند والتي ما يزال الذهن الآري يعيش فيها مطوياً في غُلالةٍ رقيقة من الإسلام الرسمي، والشيخ جمال الدين نفسُه خيرُ دليل يمكن أن نسوقه على تلك النظرية القائلة، بأن قيمة الأديان بقيمة الأجناس التي تعتنقها وقد خُيّل إلي.. أنني أرى وجهاً لوجهٍ أحدَ مَنْ عرفتهم من القدماء، وأنني أشهد ابنَ سينا أو ابنَ رُشد أو أحدَ أولئك الملحدين العظام، الذين ظلوا خمسة قرون يعملون على تحرير الإنسانية من الإسار».

هذا ما أثبته المؤرخون في قصة جمال الدين الأفغاني، مع العلم أنني نقلتُ آراءَ مَنْ لا يُتهمون بالمَيل والهوى، لأنهم من المعجبين بشخصية الأفغاني ولأنَّ إثبات الانتساب إلى الماسونية لم يكن مما يُعابُ

به الرجالُ في ذلك الزمن، ذلك لأن المحافلَ الماسونيّة بقيت مشرعةً أبوابُها في الخمسينيات والستينيات، ولم تقفل أبوابها رسمياً إلا عندما لبس مَنْ لَبِس ثوب فلسطين، ولأنّ من تمام الحبكـةِ إغلاقَ المحافل الماسونية، مع بقاء أعضائها أحراراً، يتسنّمون المناصبَ العالية، دون أن يكونَ ماضيهم المُعْلن، وحاضرهم المستتر، قادحًا في مكانتهم.

وبنـاءً على ما سـبق، فإننا نَستبعدُ تأثر عزّ الدين القسَّـام بأفكار جمال الدين الأفغاني. وإذا اتفق القسّام مع الأفغاني في جزء من منهجه، فـإنّ ذلك لا يعني أنه أخذهـا من الأفغاني، فالقرآن والحديث غنيّـان بالدعوة إلى الحرية والعدل والمساواة والعلم والعمل.. مع أنّ بين فِكْر القسَّام، وفكر الأفغاني اختلافاً بيّناً كما اختلفا في أسلوب العمل لما يأتي بيانه.

● أمَّا الشيخ محمد عبده، فقد عاصر القسَّامُ وُجودَه في مصر، ولكننا لا نملكُ دليلاً على جلوسه في حلقته، أو تأثره به، والذي ظهر لنا من منهج عزّ الدينِ القسَّام، يخالف المنهج الذي ارتضاه الشيخ محمد عبده.

فقد ثبت أنّ الشـيخ محمد عبده كان يهادِنُ الإنكليـز في مصر، ويعمل على الاستعانة بهم في نواحي الإصلاح التي كان يدعو إليها، وكان (كرومر) يدافعُ عنه ويحميه، ويرفض عَزْله عن منصب الإفتاء، وكان الشيخ محمد عبده كارِهًا ثورةَ عُرابي، وانضمّ إليها بأخرةٍ عندما

وجد نفسَه وحيداً، والأُمةُ كلُّها في صفٍ واحد تناوئ الأعداء.

والمعروف أنّ محمد عبده وجّه عنايته في الإصلاح المزعوم، إلى الأزهر، والأوقاف والمحاكم الشرعية.. وهذه قضايا لا يصحُّ الاستعانة بالأعداءِ لإصلاحها إن كان بها فَسَادٌ، لأنّها تتعلق بالعقيدة الإسلاميّة، التي لا يكون للأجنبي رضا عنها، وما يندبون مَنْ يندبون لإصلاحها، إلا لإفسادها، لقوله تعالى: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ [البقرة: ١٢٠].

وعلى هذا فلا مصلحة للإنكليز في إصلاح الجهات المذكورة. أما الاستعانة المباحة بالأجنبي، فإنما تكون في القضايا التجارية والصناعية على ألا تكون هذه الاستعانةُ بعدوّ يُعلِنُ الحربَ على المسلمين، وتؤدي الاستعانةُ به إلى تقويته وإمدادِه بالعتادِ اللازم لحرب المسلمين، كما هي حال الإنكليز عندما كانوا مستولين على مصر لنهب خيراتها، وإبعادِ الأمة عن عقيدتها، وسلخها عن تاريخها.

فشتّان ما بين القسَّام ومحمد عبده، فهما على طرفي نقيض، لما سنرى أنّ القسَّام كان لا يرى الاستعانة بالأجنبي، وأعلنَ الحربَ على الطليان في ليبية، والفرنسيين في سورية، والإنكليز في فلسطين

وإذا ثبت بالدليل القطعي، أن جمالَ الدين الأفغاني ماسوني، ومؤسس محفل ماسوني في مصر فإن الشيخ محمد عبده لن يكون بعيداً عن الماسونية، لأنه التلميذ النجيب لجمال الدين الأفغاني.

وَبعدُ: فإننا لا ننكرُ تأثيرَ الأفغاني ومحمد عبده في المجتمع المصري، ولا ننكر أن تكونَ بعضُ أفكارهما قد وصلت إلى أسماع عزّ الدين القسّام، ولكننا ننكرُ أن يكون هذان الرجلان المدرسةَ الوحيدة التي استفاد منها عزّ الدين القسَّام، وأن يكونَ أخذَ منهما أفكارَه الثورية، فالله قادر على أن يشرح صدر عزّ الدين القسَّام، وأنْ يفقهه في الدين، ويعلمه التأويل، فذلك فَتْحٌ من الباري يمنحه لمن أخلص النيّةَ والعمل لله.

وقال ﷺ: «إنَّ الحلال بيّنٌ والحرام بيّنٌ، وبينهما مُشْتبَهاتٌ، لا يعلمهنّ كثيرٌ من الناس، فمن اتقى الشُّبُهَات، استبرأَ لدينه وعِرْضه...»[1].

والشاهد: أنّ الممنوعَ والمباحَ ظاهران لمن عرف أدلتهما، وأدلتهما في القرآن والسنَّة، وفيه أنّ مَنْ يتقي الشُّبُهَات، برأ دينه من النقص وعِرْضه من الطعن فيه. وقد انتقل القسَّام إلى الرفيق الأعلى فاتفق الناسُ على صحة دينه، ونقاوة عِرضه.. ولم يطعن أحدٌ في مسلكه.

أما الأفغانيُّ، ومحمد عبده، فلم يتقيا الشبهات، على فرض أنّ الانتساب إلى الماسونية كان في زمن الأفغاني من الشبهات. وأنّ التعاونَ مع الإنكليز في زمن محمد عبده من غوامض الأحكام، ولذلك وُجد في

---

(١) أخرجه البخاري رقم (٥٢).

زمانهما، وبعد مماتهما مَنْ يقدح في عدالتهما، ويصفهما بالبُعْد عن الدين، بَلْ وصفَ الأفغانيُّ بالإلحاد.

فالتأثيرُ الأقوى في سلوك عزّ الدين القسَّام، كان للقرآن والسُّنَّة، بعد أنْ نَهَل منهما، وتبحّر فيهما.. وإنْ وُجد مَنْ تتلمذ عليه القسَّام ممّن سبقوه فإننا نذكر عبد الله النديم في مصر، الذي وُصف بأنه خطيبُ الثورةِ العرابية، ونذكر عبدَ الرحمن الكواكبي، الذي عاصر القسَّامُ في مصر جزءاً من حياته، حيث توفي الكواكبي في مصر سنة ١٩٠٢م وكان حرباً على الاستعمار والاستبداد. ونشرَ مقالاته في «طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد» في جريدة (المؤيد) في مدّة دراسة القسَّام في الأزهر، ثم جُمعتْ مقالاته في كتاب سنة ١٩٠٠م. وكان لمقالاتِ وآراءِ الكوكبي أثرٌ خطيرٌ في مصر والشام.

● إن أهمَّ خلاف بين القسَّام ومحمد عبده، هو المصادر التي يعتمد عليها كل منهما في الدعوة والعمل:

فقد نُقِلَ عن محمد عبده أنه يعتمد على القرآن وحدَه مصدراً للإسلام والتشريع، وقلل من مكانة الحديث الشريف والسُّنَّة النبويّة، ولا يرى للسُّنَّة منزلةً بجانب القرآن.

ونقل أهلُ المعرفة بالرجال، أن محمد عبده، كان قليلَ البضاعة من الحديث، وكان يرى في الاعتماد على المنطق والبرهان العقليين خيرَ

سلاحٍ للدفاع عن الإسلام، ونُقِل عنه قوله: «لا يمكن لهذه الأُمَّة أن تقومَ ما دامت هذه الكتبُ فيها (يعني الكُتُب التي تـدرَّسُ في الأزهـر ـ ومنها الحديث، والتفسير والفقه ـ) وأن هذه الكُتُب حِجابٌ قائم بين القرآن، وبين العلم والعمل[1]:

أما عزُّ الدين القسَّام، فإنه يرى أن السُّنَّة متممةٌ للقرآن، وشارحةٌ له ولا يمكن، بل لا يجوزُ إهمالها، لأن تنحية السُّنَّة معناه ضياع نصف الدين، ولذلـك فإنّ القسَّام اعتمدَ على السـيرة النبويّـة في دعوتـه إلى الجهاد، واقتفى آثارَ الصحابة والتابعين لهم بإحسان، واعتمد القسّام على السُّنَّة في إصلاح المجتمع، وحاربَ كلَّ بدعةٍ تخالف السُّنَّة النبويّة. ومَنْ يقرأ رسالة (النقد والبيان) يعرفْ مقدارَ تمسّكِ القسَّام بالسنّة النبوية ويعرف منزلة الكتب الدينيّة التي كتبها الأقدمون، ومنها ما يُدرس في الأزهر، حيث نهل القسَّام ثقافته.

فأين محمد عبده[2] من محمد عزّ الدين القسَّام؟! فهما كما قال الشاعر:

---

(١) انظر كتاب السنة ومكانتها في التشريع، للدكتور مصطفى السباعي، ص٣٠؛ ودراسات في الحديث النبوي، للدكتور محمد مصطفى الأعظمي: ١/ ٢٦. (الناشر)

(٢) نقل الشيخ يوسف النبهاني (١٨٤٩ ـ ١٩٣٢م) في كتابه (العقود اللؤلؤية) أنه اجتمع بالسيد رشيد رضا في لبنان، وجرت بينهما مناقشة يذكر منها قوله: «لماذا تتخذ محمد عبده أستاذك، وهو مقصرٌ بالفرائض، حيث حضر عندي في العام الماضي، ولم يصلّ الفريضةَ مع عدم وجود عُذْرٍ له».

سارت مشرقةً وسرتُ مُغَرِّبًا   شتّان بين مشرِّقٍ ومُغرِّب

● إنَّ الذين يبحثون عن المؤثرات في عزّ الدين يخدعهم البرقَ الخُلّبُ، ويغفلون عن تاريخ الأزهر في الجهاد وحماية البيضة. فالأزهر وقف في وجه الغزو الفرنسي، فاقتحمه الفرنسيون بخيولهم واستباحوا حُرمته، ومن الأزهر كانت أول عُصْبة سريّة تهزُّ كيان الجيش الفرنسي.. ولماذا لا نذكرُ من المؤثرات، سليمان الحلبي، والعصبة الغَزيّة الأزهرية التي تعاونت معه لقتل خليفة نابليون في مصر ـ كليبر ـ.

فسليمان الحلبي وُلد ونشأ في حلب، جارة جبلة، وأقام ثلاث سنوات في القاهرة يتعلّم بالأزهر، وعاد إلى حلب، فحجّ مرتين، وزار القدس وغزّة، وحمل من علماء غزّة رسائلَ إلى بعض إخوانهم الغزيين في الأزهر، لمساعدته في مهمته.. وقصد القاهرة، وتعقّب كليبر مدة شهرٍ حتى ظفر به، وطعنه بخنجر كان يخفيه في ثيابه عدةَ طعناتٍ مات كليبر على أثرها... فقبضَ عليه، فقضت محكمة عسكريّة فرنسية بإعدامه صلباً على الخازوق، بعد أن تحرق يده اليمنى، ثم يُترك طُعْمةً للعقبان، ونفذ الحكم يوم ١٧/ ٦/ ١٨٠٠م، وعُلّقت إلى جانبه رؤوس ثلاثةٍ من علماء الأزهر الغزيين، كان قد أفضى إليهم بعزمه على القَتْل، ولم يُفْشوا سرّه: وهم:

الشيخ عبد الله الغزّي، والشيخ محمد الغزّي، والشيخ أحمد الوالي. واحتفظ الفرنسيون بالهيكل العظمي من جسم سليمان، فوضعوه

في مُتحف حديقة الحيوانات والنباتات في باريس، كما حفظوا جمجمته في غرفة التشريح بمدرسة الطبّ في باريس، وما زال الخنجر الذي طُعِنَ به كليبر محفوظاً في مدينة «كاركاسون» بفرنسة. لقد حفظ الأزهريون قصة سليمان الحلبي، وكان العلماءُ يروونها لتلاميذهم في حلقات الدرس، ويذكرون سليمان الحلبي محاطاً بالتبجيل والتقديرِ فأين يكون محل القدوة والتأثير؟ محمد عبده، صديق كرومر، أم سليمان الحلبي رجل المهمات الجهاديّة؟.

٤ ـ العودة إلى جَبَلة:

عاد عزُّ الدين القسَّام إلى أهله، بعد أن أمضى حوالي ثماني سنوات في جوار الأزهر، نال في نهايتها الإجازة العالميّة الدالة على تضلّعه في العلوم الإسلاميّة، وعرفنا من نهجه الحياتي المستقبلي، أنّ الرجل لم يكن جمَّاعةً حافظاً فقط، وإنما كان فقيهاً في كل ما جمع من العلوم والمعارف، فالغاية من الرحلة في طلب العلم، هو الفهم، والعلمُ والتمكن من دلالات الألفاظ، ليتمكن الداعيةُ من التوجيه. قال ﷺ: «مَنْ يُرِد اللهُ به خيراً يفقهه في الدين»[1]. وبوّب البخاري في كتاب العلم باب (الفهم في العلم). قال ابن حجر: والفهمُ فطنةٌ يفهمُ بها صاحبُها مِنَ الكلام ما يقترنُ به من قولٍ أو فِعْل.

---

(١) أخرجه البخاري، رقم (٧١).

أ ـ وأول تطبيق عملي التزم به عزُّ الدين القسَّام، هدمُ طبقة الأفندية المستعلية على الناس، بما حازته من الأَرض بغير وَجْه شرعي. فقد كان المجتمع الريفي ينقسم إلى طبقتين: الأولى: طبقة الأفندية. والثانية: طبقة الفلاحين.

أما طبقة الأفندية فقد امتلكت ثلاثة أرباع الأرض، بسبب الظلم الذي أوقعه بعض الحكامِ العثمانيين على الفلاحين.

وأما طبقة الفلاحين: فإنهم يعملون في الأرض التي ورثوها عن أجدادهم بما يسدّ جوعهم، وتذهب أكثر خيراتها إلى الأفندية، ينفقونها على شهواتهم، وقد أشعروا الفلاحين بأن حياتهم مرهونة بتقديم فروض الولاء والطاعة للأفندي.. ولذلك حرص عبد القادر القسَّام أن يصحبَ ابنه عزّ الدين إلى قَصْر الأفندي ديب الذي تعمل أُسرةُ القسّام في أرضه، للسلام عليه، وإعلامه بالعودة.

ولكن عزّ الدين رأى في هذا الأُسلوب عكساً للسُّنَّة: فالمقيم هو الذي يغشى العائدَ من سفره، ويسلِّم عليه. وهذه هي سنةُ المسلمين وعُرْفُ الناس، ولذلك رفض الابن نصيحة أبيه، لأنه كان يريد أن يُجنِّبَ نفسَه وأباه المذلّة، وأن يُصْلح العُرْفَ الخاطئ الذي سنَّه الظالمون. فالناسُ سواسية، يتفاضلون بالعمل الصالح، وبما يحملُ كلُّ واحد في صدره من نيّات الخير للأُمَّة.

وعزُّ الدين القسَّام الحافظ للقرآن، العارف بالسُّنَّة، المتَضلّع من فقه الإسلام هو أعلى مرتبةً من المستبدّ، والقيادةُ في المجتمع تكون له ولأمثاله.

قال الله تعالى: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [المجادلة: ١١]، وتفسيرُها: أنّ الله يرفع المؤمنَ العالمَ على المؤمنِ غيرِ العالم، ورفعة الدرجات تدلُّ على الفضل. ورفعتُها تشمل المعنوية في الدنيا بعلوّ المنزلة وحسن الصيت، والحسيّة في الآخرة بعلوّ المنزلة في الجنة.

وفي (صحيح مسلم) عن نافع بن عبد الحارث الخزاعي ـ وكان عامل عُمر على مكـة ـ أنه لقيه بعُسْـفان[1]، فقال له: مَنْ استخلفتَ؟ فقال: استخلفتُ ابنَ أبزى، مولى لنا، فقال عمرُ: استخلفتَ مولى؟ قال: إنه قارئ لكتابِ الله، عالمٌ بالفرائض، فقال عمرُ: أَما إنَّ نبيّكم قد قال: «إنَّ الله يرفعُ بهذا الكتاب أَقواماً ويضعُ به آخرين».

وسبب الاستبداد والاستعباد، هو الجهل الفاشي في الأُمة، فالمستبدُّ ترتعدُ فرائصُه من انتشارِ العلم، لأنّ العلمَ يوسّعُ العقولَ، ويعرِّف الإنسانَ مَنْ هو الإنسانُ، وما هي حقوقُه، ويكره المستبدُّ أَنْ يرى وجهَ عالمٍ ذكيٍّ، فإن اضطرّ إليه، اختارَ المتصاغِرَ المتملِّقَ. فبين الاستبداد

---

(١) عُسْفان: بلد على مسافة ثمانين كيلاً من مكة شمالاً على طريق المدينة النبويّة.

والعلم حربٌ دائمة، يسعى العلمُ في نشر الحرية، ويسعى المستبدُّ في طيّها، وكلاهمايتجاذبان العوامّ إلى طرفيهما. فالعوامّ هم قوتُ المستبدّ وقوّته، إذا أفلتوا منه بالعلم خسِر كلَّ شيء، ذلك لأنهم حين يتعلمون يفهمون حقيقة الحرية والعزّة والشرف، فلا سبيلَ إلى العبودية والاستبداد.

ولذلك ضاق الأفندية ذَرْعاً بوجود عزّ الدين في هذا الريف الغافي على الظلم، ورأوا فيه إرهاصاً بزوال دولتهم، لأنه أخذ ينبّه الغافلين، ويرشد الضالين، ويجعل الأفنديةَ ذوي الجاه المالي معزولين في قلاعهم بلا نصير.

يروي عبد الوهاب زيتون الجبلي أنّ القوى الإقطاعية من أفندية الساحل السوري، قد تألبتْ عليه، وأرادت نفيه إلى أزمير التركية، للتخلص من صوته الثوري الجريء.

ب ـ وَبعْدَ أمدٍ قصير من عودته إلى الأهل، جدّدالعزم على الرحلة، فتوجّه إلى عاصمة الخلافة العثمانية، وكانت رحلةً من نوع جديد، لهدفٍ جديدٍ. فقد اطلع عزّ الدين القسّام أثناء دراسته الأزهرية على كتاب (اقتضاء العلم العمل) للخطيب البغدادي[1]. ومما جاء فيه:

---

(١) الخطيب البغدادي أحمد بن علي بن ثابت (٣٩٢ ـ ٤٦٣هـ) صاحب كتاب (تاريخ بغداد) ترجم فيه لكل من دخل بغداد.

«موصيك يا طالب العلم بإخلاص النيّة في طلبه، وإجهادِ النفس على العمل بموجبه، فإنَّ العلم شجرةٌ والعمل ثمرةٌ». ومن العمل بالعلم، أن تبثَّه بين الناس، وأن تكونَ مُعَلِّماً.

ولكن المُعَلّم الذي يريدُ انتفاع الناسِ بعلمه، يبحث عن جواب سؤالين: الأول: مِنْ أين يبدأ؟ وما الأُسلوبَ المناسب لنشر العلم في البيئة التي يعيش فيها. والمعلم: يتضلّعُ من العلم أولاً، ويبحث عن الأسلوب التربوي المناسب لبثِّ العلم ثانياً.

وقد وَجَد القسّامُ العِلْمَ في رحلته إلى الأزهر. وجدَّدَ الرحلة إلى عاصمة الخلافة، ليطلعَ على الأساليب المتبعة في الدروس المسجديّة.

هذا، ومن فوائد الإكثار من الارتحال في سبيل المعرفة: التمكنُ من الجوانب العلميّة: «ذلك أنَّ الانسانَ يتأثر ببيئته ومحيطه، وقد تتحكم فيه المألوفات التي عاش بينها، فإذا رحل إلى بيئة أُخرى، وجد مشكلاتٍ جديدة تُبحثُ، وآراءً جديدة في مسائل درسها من قَبْلُ، فيتّسع أُفقه واجتهاده بدراسة الجديد من المسائل، أو الاطّلاع على الآراء الجديدة. وكثيراً ما يؤدي ذلك إلى تغييرٍ في آرائه واجتهاداته.

ومنها اتساع الثقافة العامّة، لكثرة الاتصال بالناس، وما لديهم من عادات وثقافة، وحِكم، وأمثال، فيتأثر بذلك.

ومنها اكتساب خلُق الصبر، لكثرة ما يلاقيه الراحلُ من متاعب بدنية وآلام نفسية لفراق الأهل.

وقد قال أبو تمام في فضل الرحلة:

وطولُ مُقامِ المرءِ في الحيِّ مُخْلِقٌ ... لـديباجَتَيْـه، فـاغتـربْ تَتَجَـدَّدِ[1]
فإني رأيتُ الشمسَ زِيْدَتْ مَحَبةً ... إلى النّاسِ أَنْ ليستْ عليهم بِسَرْمَدِ

وقال الطُغرائي:

إن العـلا حـدَّثتني وهـي صـادقـةٌ ... فيمـا تُحـدِّثُ أنَّ العِـزَّ فـي النُّقَـلِ
لو كان في شَرَف المأوْى بلوغَ مُنًى ... لـم تبـرحِ الشَّمْـسُ دارةَ الحَمَـلِ

فهل وَجَد عزُّ الدين بُغيته في هذه الرحلة؟، وما الذي اطَّلع عليه في رحلته؟ لم يطل مقامُ الشيخ عزّ الدين في البلاد التركية، لأنه شاهد في القرى والمدن التي زارها، من الجهل ما روّعه: جهلٍ بالدين الإسلامي ورسالته، وجهلٍ بفروضه وسُننه، حتى إنهم لا يحسنون الوُضوءَ والصلاة، لأنَّ الأُميّة متفشيّة فيهم. وكان يقف في المساجد خطيباً ومعلماً، ولكنَّ الناس لا يفهمون ما يقول، لأنهم يجهلون اللغة العربية.

جـ ـ وَجَدَ عزُّ الدين الجهلَ يعمُّ البلاد كلها، فرأى أنَّ الجهل سببُ كلِّ تخلّف وفساد.

فالأميّة المنتشـرة في أصقاع المسـلمين، ومنها بلدتُـه جبلة من

---

(١) الديباجتان: الخدّان، ويريد الوجه، يريد: اغترب لكي يُشتاقَ إليك، وأكثر ما يرى الناسُ من الإنسان وَجْهه.

أسباب سكوتِ الناس على الظلم والاستبداد، والظلمُ إذا ساد، يُؤْذِنُ بزوال العمران.

فعاد إلى بلدته جبلة وهو عازمٌ على البداية من أول الطريق، وقرَّرَ أن يتولى تعليمَ الأطفال في الصباح، وتعليمَ الكبار في المساء، ووظف كل طاقته وإمكاناته في التعليم.

فكان يزورُ بيوتَ القرية، ويُقنِعُ الأهلين بوجوب تعليم أبنائهم، لأنّ العلم أَوْلى من العمل في الحقل، وأَوْلى من تعليمهم صيد السمك، فالعلمُ أولاً والعمل ثانياً، وأقنعهم أن العلم لن يمنعَ أولادهم من العمل في الجبل أو في البحر، بل يتعلّمون، ويعملون.

ولتحقيق هذا الهدف فتح مدرسة في جبلة سنة ١٩١٢م درّس فيها الأطفالَ واليافعينَ نهاراً والرجالَ الكبارَ مساءً، بعد أن كان مُدرِّساً في مدينتي بانياس واللاذقية.

ودرَّس الحديث، وتفسير القرآن الكريم في جامع إبراهيم بن أدهم[١] بجبلة. ثمَّ عُيّنَ موظفاً في شعبة التجنيد بجبلة، فكان بعد فراغه من عمله يعقد الحلقات الدَّرْسِية في مساجد البلد.

---

(١) إبراهيم بن أدهم: (ـ ١٦١هـ) زاهدٌ مشهور، كان من أهل (بَلْخ)، ورحل إلى بغداد، وجال في العراق والشام والحجاز، أخبارُه كثيرةٌ، وفيها اختلافٌ في مسكنه ومتوفاه.

فأضحى اسم الشيخ عزّ الدين على كلّ لسان: في جَبَلة، وبانياس، وطرطوس، واللاذقية، وفي قُرى التركمان والحَفَّة، وجبل صِهْيَون.. فقد عرفهُ رجالُ تلك المدن والقرى، وعرفتْه نساؤهم وأطفالُهم، لأنّه كان كثيرَ التردد عليهم، يزورهم في بيوتهم، ويرتادُ مضافاتِهم، ويدرّس ويخطبُ في مساجدهم.

د ـ وعندما صار خطيباً في جامع المنصوري ـ في وسط البلدة ـ كان المصلّون يتوافدون إلى المسجد من أحياء البلدة القريبة والبعيدة، ومن القرى المجاورة. كانوا يتوافدون لسماع هذا النمط الجديد من خُطب الجمعة، التي تهزُّ المشاعر، وتعالِجُ المشكلات اليومية وتتناول همومَ المسلمين، وتقدِّمُ لهم الإسلام غضاً طريّاً بعيدًا عن الخرافة والبدع، في أُسلوبٍ سهلٍ يفهمونه، ويتناولُ موضوعاتٍ تمثّلُ الواقعَ وتضعُ لها الحلولَ المناسبة، فيحسُّ المصلّي أنه في كلِّ جُمعةٍ يخطو خُطوةً في الطريق الصحيح.

وكانَ الخطباء قد تعوّدوا أن يُسمِعُوا المصلين في كل خطبة عبارات التبجيل والتسبيح بحياة السلطان والوالي، وكلمات الإطراءِ والحمد للأفندية والأغوات المحسنين.

أما الشيخ عزّ الدين فقد كسر العُرْف عندما اعتلى منبر جامع المنصوري فقال: ﴿... إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١]. كونوا أعزّةً كرماء ﴿... وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ

وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨]. . ولا إيمان لمن رضي بالخنوع، واستكانَ للظلم، واستعذبَ العبودية للبشر». وفي هذا إشارة إلى رفض التسلط الإقطاعي.

وكان يدعو المصلين إلى محاربة الفقر والبُؤْسِ، بالعمل الدؤوب، واستنباط خيرات الأرض. . ويدعو الناس إلى التعاون، والمحبّة، والإيثار.

وبثَّ فيهم روحَ المساواة، ونبْذ الطبقيّة. . وأنّ الناس يتفاضلون بتقوى الله تعالى، والعمل الصالح، وليس بالمال والنسب.

وبهذا أضحى المسجدُ مدرسةً تعلّم فيه المئات من الرجال أبجديةَ الإيمانِ الصادقِ بالله، ورفض الظلم الاجتماعي.

٥ ـ الريادة الفكرية، والريادة العمليّة:

نشأ عزُّ الدين القسَّام، وشبَّ وترعرعَ في عصرٍ تكالبَ على الأُمَّة عَدُوَّان: الجهلُ والفقرُ من الداخل، والغُزاةُ الطامعون من الخارج. فكان القسّامُ رائداً في كلِّ ما دعا إليه وعمله.

كان رائداً في معاجة الجهل: عندما نزل إلى الميدان يحارب الجهل في ثلاثة ميادين:

تعليم الأطفال أصولَ القراءةِ والكتابة، وتلاوة القرآن.

وتعليم الكبار في المساء.

وتعليم النـاسِ كافةً في المسـجد من خلال خطبـة الجمعة، والدروس اليومية بعد الصلوات.

وهذه فضيلة لم يسبقْهُ إليها أحدٌ من رجال الإصلاح في العصر الحديث[1].

فجمال الدين الأفغانيّ، ومحمد عبده، والكواكبي، كانوا فلاسفةً يخاطبون القِمّةَ، في وقتٍ لم يكن يفهم فلسفتهم إلا قِلّة، ولم نرَ واحداً منهم نزلَ إلى الميدان الذي نزله القسّامُ.

الأفغاني: كان فيلسوفاً انقلابياً، يهدِفُ إلى تغيير أنظمة الحكم في البلاد التي دخلها، وكيف لك أن تجدَ البديل الأصلح، وقد ران على كبار القوم حبُّ المنصب والجاه والمال، كيف يستطيعُ الأفغاني إصلاح الأمة من خلالِ المحفلِ الماسوني الذي يضمُّ أعداءَ الأمة؟ وجه الأفغاني جلَّ جهوده لمحاربة الاستعمار الإنكليزي، ونسي أو تناسى الاستعمارَ الفرنسي، وأرادَ أن يطردَ الاستعمارَ بالفلسفة الماسونيّة التي تُعَدُّ أفكارُها الشرقية فرعاً من أفكارِها في أوروبة، فلم نجدْه يدعو إلى جهادِ الأعداء بالأسلوب الذي اتبعوه في الاستيلاء على البلادِ، وهو أسلوب السلاح العسكري.

---

(١) ومن سار على هذا النهج العلامة الشيخ علي الدقر رحمه الله تعالى. (الناشر)

الأفغاني دعا إلى جامعةٍ إسلاميةٍ بين حُكّام الأقاليم، ولم يدعُ إلى وحدةِ الأمةِ تحتَ لواءِ إمامٍ واحدٍ، والوحدةُ بين الملوكِ والحكامِ، وحدةُ مصالح خاصةٍ بهم، وليست وحدة قلوبٍ تجمَعُ الأمّةَ.

ومحمد عبده: كان فيلسوفاً بدأ من القمة أيضاً، وجّهَ عنايتَهُ لإصلاح الأزهر، فكان كمن أراد أن يُصلح الصالح، ويترك الفاسد.

فالأزهر ـ مهما كان منهجُ تدريسِ العلوم فيه ـ كان أداةً لنشر العلمِ العربيِّ والإسلامي وإن كان فيه وفي منهجه نقصٌ، فإنه لم يُلْحِقْ بالأُمةِ فساداً[1] ولم ينزل محمد عبده إلى ميدان العمال والفلاحين ليبعثَ فيهم

---

(١) بل كان في جميع مراحله مركز تنوير، وكان القاعدةَ الروحية التي يخشاها المستعمرون، فحاولوا سرّاً وعلناً أن يدمروها ليتقوها، فلما استيأسوا من تدميرها، أو إضعاف تأثيرها، سالموها ونافقوها، ثم جهدوا أن يستميلوها ليستغلوها. ودعواتُ إصلاح الأزهر التي تتابعت كان المقصدُ منها توجيهَ دراستِه كما يشتهون، لتخريج أجيالٍ تمالِئ الظالمين والمستعمرين وقد أطلق كرومر يد محمد عبده لإصلاح الأزهر، لتقليل هيمنة التراث الإسلامي على الناس، ولأنَّ الأزهر معقل اللغة العربية، وكان الإنكليز حريصون على سيادة اللغة الإنكليزية، وإزالة اللغة العربية الفصحى، لأنها لغة القرآن والحديث والتراث الإسلامي، وإحلال العاميّة مكانها وقد أرّخ لهذه القضيّة حافظ إبراهيم في قصيدته الشهيرة على لسان اللغة العربية، ومطلعها:

رجعـتُ لنفسـي فـاتهمـتُ حصـاتـي
ونـاديـتُ قـومـي فـاحتسبـتُ حيـاتـي

الحياةَ الكريمةَ ويعلِّمهم أبجديةَ الانعتاق من رِبْقِ العبوديّة للإقطاعيين ولصوص المال.

ورأى محمد عبده الإصلاح لذات الإصلاح، بعيداً عن أهدافِ الأُمّةِ العليا في العقيدة والاستقلال وحريّة الوطن، ولذلك تعاونَ من أجله مع الإنكليز حُكَّام مصر مع اختلاف هدف الأُمّة، وهدف المستعمر الطامع في خيرات البلاد، ولذلك فإنّهم لن يناصروه في وَضْع منهج يدعو إلى الاستغلال. . وكان القسَّام رائداً في الدعوة إلى الجهاد، والدفاع عن كيان الأُمّة. . . والصحيح أن نقول: إنه كان رائداً في بعث حركة الجهاد المبنيّة على فكرةِ وحدةِ الأُمّة، ووجوبِ مشاركةِ المسلمين جميعاً في الجهادِ إذا اعتُدي على بلدٍ من بلدان المسلمين.

وكان رائداً في بعث فكرة الأُخوّة العربيّة، أو فكرة العروبة التي تمتزج بالإسلام، بل يُعدُّ الإسلام الركنَ الركين فيها، لأن العروبة لم يكن لها هذه المكانة إلا بالإسلام، فهو دينها لمن يتدين به، وهو تراثها الحضاريّ لكلِّ ناطق بالعربية.

وقد برزت ريادتُه في كلِّ ما قدمنا في سيرته العمليّة، ومنهجه الجهادي وكانت تطبيقاً عملياً في ثلاثة مواقف تاريخية واقعية:

الأول: عندما غزا الإيطاليون البلاد الليبيّة.

والثاني: في مقاومة الغزو الفرنسي لسورية.

والثالث: في قيادة الجهاد في فلسطين.

أ ـ الريادة في محاربة الغزو الإيطالي لطرابلس الغرب:

كانت الدول الأوروبية الاستعمارية تتسابق لبسط سيطرتها على مشرق العرب ومغربهم منذ أواخر القرن التاسع عشر، وكان بينها صراعٌ، ثم تمَّ الاتفاق على القسمة، حيث عُقِدتْ اتفاقية بين إيطالية وفرنسة، تنصُّ على أن تتخلّى الأخيرة عن مطامعها في طرابلس، وتطلق إيطالية يدَ فرنسة في مراكش. وضمنت إيطالية موافقة بريطانية وروسية على ذلك.

وفي سنة ١٩١١م قررت إيطالية الاستيلاءَ على طرابلس الغرب، فحاصر أسطولها مدينة طرابلس في ٣٠/ ٩/ ١٩١١م.

وعندما وصل خبرُ الحصار إلى مسامع أهل بلاد الشام، ثارتْ موجةٌ عارمة من الغضب، كان للقسام دورٌ بارزٌ فيها، ونهض الشاب عزُّ الدين بكلِّ ما أُوتي من غَيْرةٍ وحماسةٍ وقدرة خطابية للتأثير في جمهور الساحل السوري، وإثارة دم الأُخوة، والأريحيّة العربية، واستنفار الطاقات، وتفجير العواطف الكامنة، للدفاع عن وجودِ الأمة ومجدِها الذي بناه الأجدادُ بدمائهم. وخرج القسّام إلى الشوارع، يقود الجماهيرَ في جبلة واللاذقية ومدن وقرى الساحل، وكان يهتف وينادي:

يا عرب ويا إسلام   قوموا كلكم على الطغيان
اضربوا أسطول الطليان   في المواني والخلجان

هـــا الأرض العـــربيـــة بـــدهـــا وحـــدة وحـــريّـــة
مـــن طـــوروس لـــلأطلســـي كلّهـــا ثـــورة وغليـــان
يـــا رحيـــم ويـــا رحمٰـــن غـــرّق أسطـــول الطليـــان

وعندما تمكّن الجند الإيطالي من احتلال (ليبية) انتقل القسّام من قيادة التظاهرات الشعبية إلى قيادة حملات تجنيد الشباب، باسم الجهاد، للدفاع عن شرف المسلمين، ومَنْع نزول المذلّة بهم.

وتمكّن عزُّ الدين من تجنيد مئاتِ الشباب من الساحل السوري، وقادهم بنفسه، وتعهدّهم بالتدريب العسكري والفكري، وقام أيضاً بحملة لجمْع الأموال والمُؤَنِ الكافية للنفقة على المتطوعين وأسرهم، ولمساعدة المجاهدين في ليبية.

واتصل عزُّ الدين القسَّام بالحكومة التركية، وحصل على موافقة الباب العالي في إستانبول بنقل المتطوعين إلى الإسكندرونة، ونقلهم بعد ذلك بالباخرة إلى ليبية. . . فودّع المجاهدون أهليهم، واتجهوا إلى شاطئ الإسكندرونة، فوصل بعضهم برّاً على قدميه، وبعضهم ركب دابة، وبعضهم ركب البحر، وبعد أن اكتمل جمعهم انتظروا قدوم الباخرة التي تُقِلُّهم إلى أرض الشهادة، ولكن انتظارهم قد طال، ومضى على وجودهم في الإسكندرونة مدة أربعين يوماً أو يزيد دون أن يأتيهم خبرٌ[1]

---

(١) يبدو أنَّ خبر هؤلاء المجاهدين وصل إلى كلِّ بقعة في بلاد الشام، وكان =

ب ـ هل عاد المجاهدون إلى مدنهم وقراهم، أم تابع بعضهم طريقه إلى ليبية برّاً؟

هناك روايتان: الأولى: تقول: إن المجاهدين رجعوا إلى مُدنهم وقُراهم، وَبَنْوا مدرسة بمال التبرعات لتعليم الأميّين.

والرواية الثانية تقول: إنَّ عزّ الدين القسّام صمم على لقاء الأشقّاء المجاهدين في ليبية، وأنْ ينقل إليهم ما استطاع جَمْعَه من معوناتٍ مادية وأنه انتقل سِرّاً إلى الأرض الليبية، وأنَّ عِزّ الدين الْتقى المجاهدَ الكبيرَ عمرَ المختار.

= شكيب أرسلان أيامها في صوفر بلبنان فكتب إلى صديقه محمد رشيد رضا في مصر، يدعوه إلى مناصرة أهل ليبية من مصر، لأنّ الطريق البرّيّ هو الطريق الوحيد للإغاثة فقال: «وقد ظهر لنا بعد تقليب وجوهِ الحيل كلِّها وتمحيصِ آراء الإغاثة بأجمعها، أنّه لم يبقَ إلا طريقُ البرّ، وان طريقاً سلكه آباؤنا مراراً في فتوحاتهم لجديرٌ بأن نسلكه في أحرج موقف، وأضيق حال، أفلا ينهض الإسلام إلى إغاثتهم بما يمسك أرماقهم على الأقل، حتى تطول الحرب ويستمر الدفاع، فإن طول أجل الحرب يستدعي تدخّل الدول، ويَفتّ في عضد تجارة إيطالية، ويثير عليها ثائر سكانها، فتنتهي النازلةُ بصورةٍ ليست فيها هذه الغضاضة وهذا الذل، ولا يُطأطأ فيها الرأسُ أمام الطلياني. فياما أحلى الغلبة للإنكليزي بالقياس إلى هذه الحالة وياما أحلى الموت إذا صرنا ننهزم أمام مَنْ هزمهم الأحباش» (شكيب أرسلان) لأحمد الشرباصي، ص٣١.

والرواية الأولى نقلها سميح حمودة في كتاب (الوعي الثوري) نقلاً عن جريدة الدفاع اليافيّة في ٢/ ١/ ١٩٣٦م.

وزهير مارديني في كتابه (ألف يوم مع الحاج أمين).

ولم تذكر جريدة الدفاع مصدر هذه المعلومة، وهي منشورة بعد استشهاد عزّ الدين القسَّام بسنة، ولم يذكر المارديني مصدره أيضاً.

ولم تذكر هذه المصادر أين بُنيتْ هذه المدرسة، وماذا كان مصيرها بعد رحيل القسّام، مع العلم أنّ المجاهدين المتطوعين لم يكونوا من جَبَلة وحدَها، بل كانوا من الساحل السوري، والأموال المجموعة كانت من الساحل السوريّ أيضاً، وحاجة المدن والقُرى الساحلية إلى التعليم ليستْ أقلّ من حاجة جبلة إليها.. مع العلم أن سميح حمودة، وزهير ماريني اللذين نقلا المعلومة لاينتميان إلى الساحل السوري..

وأما الرواية الثانية التي تقول: إنّ عزّ الدين نقلَ الأموال إلى ليبية بنفسه فقد نقلها عبد الوهاب زيتون، وهو من أهل جبلة، ولعله سمع القصة عمن عاصرها، أو تناقلها الناسُ في جبلة، فما زال بعضُ مَنْ عاصر الأحداث موجودًا.

قلتُ: ولا مانعَ من قبول هذه الرواية، بل نقول: لعلّ القسَّام ذهب برفقته عددٌ من هؤلاء المتطوعين، لأنَّ أخبار شكيب أرسلان تقول: إنه كتب من لبنان رسالة إلى الشيخ علي يوسف في مصر، ودعاه فيها إلى

العمل لمناصرة أهل طرابلس، فكتب الشيخ إلى شكيب يقترح عليه أَن يحضر إلى مصر، للعمل من أجل طرابلس، فصادف هذا الاقتراح هوىً في نفسه، فسافر إلى مصر متطوعاً مع طائفة من المجاهدين، واستطاع أن يدخلَ طرابلس متخفياً[1]. ولعلَّ المجاهدين الذين رافقوا شكيب أرسلان، كانوا ممن تطوعوا مع عزّ الدين القسَّام، فوصل خبرُهم إلى شكيب أرسلان في لبنان فرافقهم في رحلة الجهاد.

لقد روى الشيخ الحنفي أن القسَّام فتح مدرسة لتعليم الصغار والكبار سنة ١٩١٢م، ولكنه لم يربط بين هذه المدرسة، والمال الذي جُمعَ للإنفاق على الجهاد في ليبية.

٦ ـ هل شارك القسَّامُ في الثورة العربية على الأتراك متحالفة مع الإنكليز والفرنسيين؟

للإجابة عن هذا السؤال نسجّلُ الثوابت التاريخيّة التالية:

أ ـ بدأت الحركة العربية الداعية إلى إبراز شخصية الأُمّة العربية، واستقلالها الذاتي، ووجوب كون الزعامة لها بين المسلمين، منذ أواخر القرن التاسع عشر عندما تأسست (الجمعية السوريّة العلمية)، وكانت تضمُّ رواد النهضة الأدبية والعلمية العربية الحديثة، وأطلقوا صرختهم «تنبَّهُوا واستيقظوا أيها العرب». وذلك سنة ١٨٦٨م.

---

(١) من كتاب ـ شكيب أرسلان ـ للثريا، ص٣٣.

ومما يدلُّ على وجود هذه النزعة المكبوتة، تقرير كتبه القنصل البريطاني في دمشق سنة ١٨٧٥م، ولاحظ فيه «وجود نزعة مكبوتة بين بعض الطبقات، ولاسيما بين المسلمين في سورية نحو التوحُّد مع مصر، وأن هذه النزعة أخذتْ تشتد في الآونة الأخيرة».

وفي حزيران سنة ١٨٨٠م كتب القنصل البريطاني في بيروت تقريراً حول ظهور منشورات ثورية في بيروت، أتبعه بتقارير سجلت النقاط الرئيسة لأول برنامج سياسي عربي سنة ١٨٨٦م. ومن أبرز هذه النقاط: استقلال سورية[1] ووحدتها مع لبنان، والاعتراف باللغة العربية لغـةً رسميّة في البلاد.

ومن هذه الأدلة: التقارير التي رصدت وجود تعاطف في بلاد الشام بعامة مع ثورة عُرابي سنة ١٨٨٢م وثورة المهدي في السودان سنة ١٨٨٤م باعتبارهما قائدين عربيين، يحاربان الإنكليز.

وكان للحركة الفكرية والأدبية أثرها الكبير في يقظة الوعي السياسي العربي كما كان لأفكار عبد الرحمن الكواكبي (١٨٥٤ـ١٩٠٢م) المناوئة للاستبداد ومطالبته بإرجاع الخلافة إلى قريش، وإظهاره أثر العرب في نشر الإسلام، كان لذلك صداه البعيد في المجتمع العربي.

---

(١) اصطلاح (سورية) في العصر التركي، يشمل: فلسطين والأردن، أو ما يسمى بلاد الشام.

وفي سنة ١٩٠٥م صدر كتاب نجيب عازوري (يقظة العرب) بيّن فيه أن المخططات الصهيونية تناقض الأماني العربية، ونادى بضرورة فصل الأجزاء العربية عن الدولة العثمانية لإقامة دولة عربية واحدة.. ولعل الذي دفع بنجيب عازوري إلى المطالبة بالانفصال الكامل عن الدولة العثمانية، الاعتقادُ باستحالة رَدْع المطامع الصهيونية من خلال دولة مكبلة بقيود (الامتيازات الأجنبية) التي كان اليهود يعتمدون عليها. وقد أدّى دخول كتاب عازوري إلى فلسطين في مطلع صيف ١٩٠٥م إلى اعتقال عددٍ من الشخصيات في يافا وغزّة والرملة.

وظهر الاتجاه القومي الطوراني، الذي يقضي بسياسة التتريك وطمس معالم اللغة العربية والشخصية العربية... وكان من مظاهره نتائج انتخابات المجلس التشريعي سنة ١٩٠٨م حيث بلغ عدد النواب العرب ستين نائباً، وبلغ عدد النواب الأتراك مئة وخمسين نائباً، مع أن العرب يفوقون الأتراك عددًا في الإمبراطورية، بنسبة ثلاثة إلى اثنين تقريباً وذلك بسبب سيطرة (الاتحاد والترقي) على الانتخابات.

وردًّا على هذه الأفكار والاتجاهات، تحركتْ الفكرة العربية قوية، عن طريق النوادي الأدبية العلنية والجمعيات السريّة ذات الأهداف العربية وكان (المنتدى الأدبي) أول هذه النوادي والجمعيات العربية، حيث تأسس في صيف ١٩٠٩م برعاية عددٍ من النواب والأدباء والطلاب

العرب في إستانبول، وسمحت السلطات بفتح فروع له في فلسطين وسورية ولبنان.

وبعد مُدّةٍ قصيرة قامت (الجمعيـة القحطانية) السـريّة، وكانت أهدافها إقامة إمبراطوريّة تركية عربية، بحيث تتوحد الأجزاء العربية في ظلّ مملكة لها برلماها وحكومتها المحلية، وتكون لغتها العربية. وفي سنة ١٩١١م تأسست جمعية (العربية الفتاة) في باريس وفي سنة ١٩١٣م انتقل مقرها إلى بيروت، ثم إلى دمشق. وكانت تدعو إلى الاستقلال الكامل، والانفصال عن جسم الدولة التركية.

وفي سنة ١٩١٢م ظهر حزب اللامركزية الإدارية العثماني ومقرّه القاهرة، وكان هدفُه اقناعُ الحكام بالأخذ بنظام اللامركزية الإدارية، وحمْل العرب على القبول بهذه الفكرة.

وقد أدى نشــاط هذه الجمعيات إلى تحرّك سـياسي واسـع، مما ساعد على تشكيل لجنة الإصلاح. المكونة من (٨٦ عضواً في بيروت سنة ١٩١٢م وكان هدفها وَضْع مشروع يضمن الحكم الذاتي اللامركزي للمقاطعات العربية في الدولة العثمانية.

ب ـ هذا هو موجز الحركات العربية المتطلعة إلى الحكم الذاتي بوصف العرب جزءاً من الدولة العثمانية، أو بالعمل على الانفصال التام، وكان ذلك قبل إعلان الحرب العالميّة الأولى.

وأرى أنه نشاط مشروع ودعوة إلى حقّ:

١ ـ لأن الدولة التركية (تحت ظل جمعية الاتحاد والترقي) أهملت اللغة العربية، واتَّخذت اللغة التركية لغةً للدولة ولم تفعلْ ذلك دولة من الدول التي بسطت سلطانها على الأقاليم العربية قبل الدولة التركية. والمناضلةُ من أجل اللغة العربية واجب شرعي قبل أن يكون قومياً، لأن اللغة العربية لغة القرآن والسّنة، وكلٌّ تراث أو آثار شرعيّة تحقِق للأمّة التميّز والتفرد. وإهمال اللغة يؤدي إلى وجود قطيعة بين الأجيال القادمة، وبين المكونات الرئيسة للأمّة. وضياع اللغة، معناه الذوبان والانصهار في الأمم الأخرى، وضياع شخصية الأمَّة. والمعروف أنّ اللغة العربية من الدين، ومعرفتها فرضٌ واجب، فإن فَهْم الكتاب والسُّنَّة فرضٌ، ولا يُفهمان إلا بتعلّم اللغة العربية، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب[1].

وكتب عمرُ إلى أبي موسى الأشعري «أما بَعْدُ، فتفقهوا في السُّنَّة وتفقهوا في العربية، وأعربوا القرآن، فإنه عربيّ». وقال عمر «تعلموا العربية فإنّها من دينكم..».

وقال الإمام ابن تيمية: يُكْره أن يتعوّد الرجلُ النطقَ بغير العربية،

---

(١) عن كتاب اقتضاء الصراط المستقيم، ص٢٠٧.

فإن اللسان العربي شعارُ الإسلام وأهله، واللغات من أعظم شعائر الأمم التي بها يتميزون».

٢ ـ ولأن الحُكّام الأتراك الاتحاديين، ظهر من سلوكهم ما يدلُّ على بُغضهم العرب، والعمل على محو شخصيتهم، وإحياء تاريخ الأتراك الأوائل في جاهليتهم، وتخليص الفكر التركي من المؤثرات العربية الإسلاميّة. وهذا يعني أنهم نفضوا أيديهم من الإسلام الجامع بينهم وبين العرب، لأنّ الآثار العربية التي يريدون التخلص منها هي آثار إسلاميّة، فالإسلام عربيّ اللغة، وآثارُ المسلمين هي آثار عربية، وما أثّر العربُ في الأمم إلا بسبب الدين.

تلك الأسباب، وغيرها، من مسوّغات الثورة، أو الإنكار، أو الخروج على الدولة العثمانية، لتغيير الحال، ووضْع السياسة في مسارها الصحيح.

جـ ـ فهل شارك عزُّ لدين القسَّام في الثورة أو الإنكار على الدولة العثمانيّة؟

الجواب له شقان: الأول: ليس عندنا خبرٌ فيه تصريح أو تلميح بانتماء عزّ الدين إلى إحدى الجمعيات أو النوادي التي كانت تعملُ لإيجاد كيانٍ عربي منفصل عن الدولة التركية أو متصل بها[1].

---

(١) قال الأستاذ محبّ الدين الخطيب ـ وهو من أبرز رجالات الحركة العربية ـ في=

الثاني: كان القسّامُ غير راضٍ عن الأحوال الثقافية والاجتماعية والاقتصادية والسياسيّة السائدة في أيامه، فانهماكُه في تعليم الأطفال في الصباح والكبار في المساء دليلٌ على إنكارِه تقصير الدولة في التعليم.

وخروجُ القسّام على العرف السائد بتعظيم الأفنديّة، فيه إنكارُ الحال الاجتماعية التي قسّمت الناس إلى طبقة إقطاعيين، وطبقة عبيد الأرض.

وقيادته المظاهرات المؤيدة لأهل ليبية، في أثناء الغزو الإيطالي، فيه إنكار على الدولة تقصيرها في حماية أقاليم الإسلام.

ومع ذلك لم يُنْقلْ أنه دعا إلى الإنفصال عن الدولة التركية، وإنما كان يعمل لإصلاح مجتمعه في النواحي التي قصّرت فيها الدولة، بدعوة الناس إلى تغيير سلوكهم، وكان يقرأ قوله تعالى ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الأنفال: ٥٣]، وقوله تعالى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١].

وهناك روايةٌ تدلُّ على أنه كان متمسكاً بالولاء للسلطان العثماني بوصفه إماماً وقائداً للمسلمين. فقد روى محسن محمد صالح في كتابه

= (مذكراته)، ص١٣٦: إنني أقرر بكل صدق أنا وجميع من استعنت بهم، أو تعاونت معهم من رجالات العرب وشبابهم لم يخطر على بالنا الانفصال عن الدولة العثمانية. (الناشر)

(التيار الإسلامي في فلسطين) أنّ المتظاهرين الذين قادَهم القسّام إبّان الغزو الإيطالي لطرابلس الغرب كانوا يهتفون «يا رحيم ويا رحمان، انصر مولانا السلطان، واكسر أعداءَنا الطليان».

والمعروف أنّ هذا الهُتاف كان من نظم عزّ الدين القسَّام، وقد نقلتْه الكتب الأخرى وليس فيه «انصر مولانا السلطان» لأنها اعتمدتْ على رواية أُخرى، وربما حَذَف العبارة مَنْ حَذَفها، لأنها لا تناسبُ هواه، ولأن بعض الذين كتبوا سيرة عزّ الدين القسَّام، وصفوه بأنه قوميّ متعصبٌ لقوميته، ونسبوه إلى الطائفة التي ثارت على الأتراك، للعصبية القوميّة.

د ـ وجاءَت المرحلة الثانية من الثورة العربية في أثناء الحرب العالميّة الأولى متحالفة مع بريطانية. حيث أعلن العربُ الثورة المسلحة على الأتراك، بل على الجيش التركي المرابط في بلاد الحجاز والشام، وناصروا الجيش البريطاني، مقابل وَعْد بريطانية لهم بمنح الولايات العربية التي كانت خاضعة للسلطة التركية، الاستقلال في مملكة يجلس على عرشها الشريف الهاشمي الحسين بن علي.

وإذا أجمع العربُ على الثورة الإصلاحيّة السلميّة التي تحدثنا عنها في الفِقْرة السابقة. فإنَّ الثورة المسلّحة كان لها معارضون، ومن هؤلاء المعارضين الشيخ سليم اليعقوبي (١٨٨٠ ـ ١٩٤٦م)، إذْ كان من الداعين إلى الجامعة الإسلاميَّة، والالتفاف حول الخليفة العثماني،

وكان يعارض الثورة العربية الكبرى التي دعا إليها الحسين بن علي، ونظم قصائد في هجائها، وأصدر فتوى يكفِّرُ فيها الانتفاض على الخليفة العثماني. ولذلك نُفي اليعقوبي ـ بعد الاحتلال البريطاني ـ إلى معتقل سيدي بشر في الإسكندرية. ومن هذا الاتجاه في فلسطين الشيخ أسعد الشقيري، والشيخ عبد القادر المظفّر مع العلم بأن الذين عارضوا الثورة على الأتـراك اشـتدتْ معارضتهم بعد أن وضع العربُ يـدهم في يـد بريطانيـة، لأنهم كانوا واعين لما تنطوي عليـه نيّة بريطانيـة من الغدر والخيانة، ومن هذا الاتجاه أمير البيان شكيب أرسلان، الذي قال: «لم يمنعنا من الاشتراك في الثورة العربية إلا اعتقادنا أن هذه البلاد العربية ستصبح نهباً مقسَّمًا بين إنكلترة وفرنسة وتكون فلسطين وطناً قومياً لليهود، وهذا التكهن كان مجزوماً به، حتى إني كنتُ أقول قبل الحرب: لو ارتفع الغطاءُ ما ازددتُ يقيناً، ثم انتهت الحرب، وانتصر الحلفاءُ، وارتفع الغطاء، فما حصل شيء غير ما كُنَّا نقول».

ويقول: «إنه لو علم أن الثورة يومئذٍ تؤدي إلى استقلال العرب لما سبقه أحدٌ إليها، ولكنه فضّل الدولة العثمانية الشرقية الإسلامية على احتلال الإفرنج الأعداء الغرباء». ويذكر أن اعتقاده بصيرورة البلاد العربية حينئذٍ إلى احتلال الأجانب لم يكن حَدْساً وتخميناً وأخذاً بالقرائن، بل عرف تقسيم فرنسة وإنكلترة لسورية وفلسطين سنة ١٩١٢م.

ونقل الشيخ أحمد الشرباصي عن الحاج أمين الحسيني قوله: «إنَّ

شكيب لم ينخدع في الحلفاء مع المنخدعين، وكان يجاهر بهذا، ويقول لمخالفيه» أنا أشدُّ عربيةً منكم، ولكني أعلم أنَّ الحلفاء سينكثون عهودهم، وستظهر الحقائق لكم.

والحقيقة أنّ عقلاء العرب كانوا يفقهون أنه إذا وقع الانفصال بين العرب والترك تسقط بلاد العرب تحت حكم الإفرنج، فلذلك كانوا يختارون البقاء تحت حكم الدولة العثمانية خوفًا من حكم الأجانب، اختياراً لأهون الشرّين.

وفي غمرة الشعور بحبّ الاستقلال، وتكوين المملكة العربية، ضاعت الصيحات المحذّرة، وقوبلت بالشكّ والاتهام، كما غابت عن الأنظار تلك الحقائق الصارخة، التي تشير إلى خيانة البريطانيين، وساهم في ذلك جوّ الثقة الذي نشرته قيادة الثورة العربية بالبريطانيين ووعودهم.

قال عجاج نويهض في كتابه (رجال من فلسطين): ومن سذاجة العرب، أو قلة خبرتهم من الناحية السياسيّة، لم يلاحظوا بعمق كافٍ أوائلَ هذا القرن ما للاستعمار الأوروبي من غايات ونهايات، ولعلَّ شدّة ميلهم إلى الأخذ بالعقائد القوميّة لينجوا من نير الترك، ثم من الطورانية، حجبَ عن بصائرهم أن يتصوروا تلك الغايات والنهايات. وإنما قد تمَّ ذلك من جهة العرب، لأنهم لم يكونوا قد خبروا الاستعمار البريطاني خبرةً صحيحةً، حتى ولا شبه صحيحة.. كان يظن الناسُ أنَّ الإنكليز قوم لهم من الشرف والنبل كما تصورهم دعاياتهم.

والحقيقة أن قِلّة الخبرة السياسية راجعةٌ إلى ضعف الثقافة القرآنية، وعدم الاطلاع على التاريخ، والعجزُ عن استخلاص العبرةِ منه.

وقد عرضنا فيما سبقَ آراء أهلِ الحلِّ والعقدِ في المجتمع فقط، أما العامّة فلا رأيَ لهم. فالشعب العربيُّ كان منذ قرونٍ مضت، وما زال، يسوقُه واحدٌ، ويردّه واحدٌ، وقد يصبح على رأي، ويمسي على رأيٍ آخر. فقد كان الشعب في فلسطين في بداية الحرب العالميّة الأولى متمسكاً بالخلافة العثمانية، ومتحمساً لها، واستجاب كثيرٌ منهم لنداء الجهاد، الذي أعلنه السلطان العثماني، واستقبلوا الجيش العثماني المتجه إلى قناة السويس سنة ١٩١٤م بالهتاف والتصفيق والأناشيد، واستجاب أبناء القبائل في بئر السبع، وكان لهم أثرٌ كبير في دَحْر الإنكليز، وفي منتصف تشرين الثاني سنة ١٩١٤م اجتمع حشدٌ كبير من أبناء القدس في ساحة المسجد الأقصى للاحتجاج على روسية وإنكلترة وفرنسة والدعاء للدولة العثمانية وحليفتها بالنصر، وخطب فيهم الشيخ عبد القادر المظفر.

هكذا: الدعاء للدولة العثمانية، وحليفتها بالنصر.. وإذا كان الدعاء للدولة العثمانية مقبولاً، باعتبارهم من المسلمين، فكيف نقبل الدعاء للحليفة ألمانية بالنصر؟! أليس هذا عنوان الجهل؟

وما إن حلّ أول سنة ١٩١٦م حتى تحوّل الشعب إلى معارضة الدولة العثمانية، وصار البريطانيّون حلفاءَ وأصدقاء، وأصبح الذين كانوا يحاربون في صف الأتراك، يحاربون في صف الإنكليز. وعندما دخل

الإنكليز القدس، كان الكثيرون من الناس المخدوعين يشقّ هتافهم عنان السماء ترحيباً «بالأصدقاء الإنكليز» الذين عُدَّ انتصارهم فوزًا كبيرًا للعرب.

وصدقَ على العرب قولُ الشاعر في رثاء الشريف حسين:

قُـمْ تحَـدَّثْ أبـا علـيّ إلينـا كيف غامـرتَ في جـوارِ الأراقمْ
قـدْ رَجَـوْنـا مـن المغـانـمِ حَظًّـا ووردنـا الـوغَـى فكنَّـا الغنـائـمْ

فماذا كان رأي عزّ الدين القسَّام في الثورة العربية الكبرى المسلحة التي عاهدت الإنكليز على النصرة، وهل شارك القسَّام فيها بالسلاح؟

إنَّ أكثر المصادر التي ترجمت لعز الدين القسَّام، سكتتْ عن الخوض في هذه المرحلة من حياة القسَّام، فلم تُثبت مشاركةً، ولم تثبت معارضةً، وبعضُ المصادر ألمحتْ إلى وجودِ مشاركةٍ، وبعضُ المصادر صرّحتْ بمشاركة القسَّام في الثورة المسلحة على الأتراك.

أما مَنْ ألمح إلى المشاركة[1]، ولم يصرّحْ بها، فلأنه لا يملك الدليل، وربّما مالَ إلى المشاركة بمجاورته صالح العلي الذي شارك في محاربـة الأتراك بالسلاح، كما شـارك في محاربـة الفرنسيين (والجرُّ

---

(١) انظر (عز الدين القسام) ـ لعلي حسين خلف، ص١٥؛ و(جوانب مجهولة من حياة عز الدين القسَّام) في كتاب (الشـهيد عز الدين القسَّـام) من إصدار المستشارية الثقافية الإيرانية في دمشق.

بالمجاورة سماعيّ لا يُقاسُ عليه، بل هو مبني على الوهم، ولا تُبنى عليه قاعدة).

وأما الذي صرّح بمشاركة القسَّام في الثورة العربية المسلحة على الأتراك فهو الأستاذ عبد الوهاب زيتون، في كتابه (من ثورة المجاهد عزّ الدين القسَّام إلى ثورة أبطال الحجارة) ومما قاله المؤلف:

«قام الشيخ كامل القصّاب بصفته مفتي دمشق يؤازره فقهاء البلد، ومنهم الشيخ التنوخي، والشيخ القسَّام، بإعلان الجهاد المقدس في سائر البلاد ضد الأتراك»[1].

وقال: «وفي تلك المرحلة الصعبة من تاريخ كفاح أُمتنا ـ في الجزيرة العربية وبلاد الشام ـ كان المجاهد القسَّام في الساحل السوري يُلهِبُ حماس الجماهير، ويقود الهجمات على ثكنات الأتراك ومعسكراتهم، داعياً المجاهدين إلى التمسك بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾ [الممتحنة: ١]»[2].

وأعاد المؤلف الكلام نفسَه في محاضرة ألقاها في مدينة جبلة، في الندوة التي عقدتها المستشارية الإيرانية بدمشق بمناسبة الذكرى السنوية

---

(١) انظر كتاب (من ثورة المجاهد عز الدين القسَّام إلى ثورة أبطال الحجارة)، لعبد الوهاب زيتون، ص٣٦.

(٢) المرجع السابق، ص٣٧.

السابعة والخمسين لاستشهاد القسَّام في ٢ ـ ٣/ ١٢/ ١٩٩٣م.

والمؤلف من أهل جَبَلة، ووجدتُ اسمَه مسبوقاً بلقب (العميد)، وأظنه لقباً عسكريًا. ومن المفترض في مؤلف جمع بين مواطنة القسَّام، واللقب العسكري الرفيع، أن يتحرّى الصحّة فيما يكتب... ولذلك فرحتُ جداً عندما وقعت على كتابه، ولكنني صُدمتُ عندما وقعتُ على أخطاء تاريخيّة فاضحة فجعلتني أشكُّ في كل ما كتب.

ومن هذه الأخطاء، إثباته شعراً لحافظ إبراهيم شاعر النيل، في رثاء عزّ الدين القسَّام. مع أنّ حافظ إبراهيم توفي سنة ١٩٣٢م، واستشهد القسَّام سنة ١٩٣٥م والأبيات التي أثبتها للشاعر فؤاد الخطيب، ونسب شعراً لعمر أبو ريشة في رثاء القسَّام وهو للشاعر صادق عرنوس.

وذكر المؤلف أنَّ عزّ الدين القسَّام التقى عبد الرحمن الكواكبي في دمشق حين كان القسَّام يؤدي الخدمة العسكرية في العصر التركي سنة ١٩١٣م، والمعروف أن عبد الرحمن الكواكبي توفي سنة ١٩٠٢م في مصر.

والمؤلف لا يسند رواياته، ولا يوثقها، وعرفنا الخطأ في روايتين سابقتين من تاريخ الوفيات، فكيف تمتحن الأخبارَ التي قال فيها: إن القسّام شارك في الثورة المسلحة على الأتراك؟ وفيها أمور:

الأول: موافقته القصاب في فتواه، بإعلان الجهاد المقدس على الأتراك.

الثاني: كون العرب في ثورتهم المسلحة على الأتراك، كانوا يدعمون بريطانية ويؤيدونها في حربها الأتراك، وكونهم تابعين للقيادة البريطانيـة. . فبريطانيـة هي التي استعانت بهم لحرب الأتراك، ولم يستعن العرب ببريطانية.

الثالث: الهجوم على ثكنات الجنود الأتراك في الساحل.

الرابع: الاستشهاد بآيات من كتاب الله في جواز قَتْل الأتراك.

الجواب: إذا لم نجد رواية مسندة ومُوَثَّقة، فإننا نمتحن الأخبار بالرجوع إلى حال القسّام من قَبْلُ ومن بَعْدُ، ونقيسُ هذه الأخبار على ما كان من أفعاله، فإنْ وجدناها متآخية مع أحوالِه قبلناها، وإن وجدناها متنافرةً رفضناها.

ونمتحن الأخبار أيضاً بالرجوع إلى المنهج الذي اتخذه القسّام لنفسِه وإلى الدستورِ الذي يوجّه أفعاله.

أما حالُ القسَّـام، فإنها تمنعـه من رفع السلاح في وَجْه الجنـود الأتراك، باعتبارهم من المسلمين، ولأن القسّام يعترفُ بإمامة السلطان العثماني، فعندما دعا السلطان العثماني إلى مناصرة الشعب الليبي على الغزو الإيطالي لبّى القسَّـامُ النداء، وجنّد المتطوعيـن لهذا الغـرض، وقادَهم للجهـاد تحت راية السـلطان العثماني، مهما كانت صفـة هذا السلطان.

فالقسّام فقيهٌ، ويعرف «أنّ الجهاد ماضٍ مع البرَّ والفاجر»، فقد

بوّب البخاري تحت هذا العنوان، فقال ابن حجر في (فتح الباري): «لم يقيّد الجهاد بما إذا كان الإمام عادلاً، فدلَّ على أنْ لا فرقَ في حصول فضْل الجهاد بين أن يكون الغزو مع الإمام العادل أو الجائر. ومعنى هذا، أنّ القسَّام لا يرى الخروج على الإمام الجائر»، إذا أدّى ذلك إلى فتنة تؤدي إلى مفسدةٍ أكبر، يُقْتَلُ فيها المسلمون. فكيف إذا كان الخارج على الإمام هم الإنكليز الكُفَّار؟!

ولا يُعْقلُ أن يجاهد القسَّامُ سنة ١٩١١م تحت قيادة الإمام العثماني، ثم يحاربه ويرفع في وجهه السلاح مناصراً الإنكليز في سنة ١٩١٦م. والسلطان العثماني، هو نفسه الذي حارب معه، لم يتغيّر، ولم يطرأْ على سلوكه جديدٌ يجعل القسّام يغيّر منهجه. إلا شنق عدد من رجالات العرب بيد جمال السفّاح، وقصة هؤلاء فيها شبهةُ التعاون مع الأجنبيّ، لأن جمال باشا، وجد أسماءَهم في القنصلية الفرنسيّة، بوصفهم قادة حركة التعاون مع فرنسة لمحاربة الدولة التركية. ثمَّ إنّ عزّ الدين القسَّام، رأى الإنكليز يحتلون مصر، ويعيثون فيها فساداً فكيف يتعاون معهم وهم قومٌ غُدر، لا ذمَّةَ لهم ولا عهدٌ. إن كانوا صادقين، فليخرجوا من مصر، ومن كل أرض عربيّة أولاً.

أما الدستور الذي وجَّهَ حياةَ القسَّام، فهو القرآن والسَّنَّة النبويّة، وحياة الصحابة الكرام، وسِيَر المجاهدين مِنْ بَعْدهم، أمثال طارق بن زياد، ونور الدين زنكي، وصلاح الدين الأيوبي، وهذه المرجعيّة تمنعُ وقوعَ ما نُسِبَ إلى القسّام.

أما إعلان محمد القصاب الجهاد المقدس، وتأييد القسَّام هذا الإعلان، الذي يبيح مقاتلةَ المسلمين العثمانيين، فالجواب عنه:

١ ـ أما إعلان الجهاد، فلا يحتاجُ إلى مَنْ يُعلنه، فالجهاد فرض لم يَمُت، ولم يتوقف، لأنّ الجهاد ماضٍ إلى يوم قيام الساعة، والذي يُعلَنُ هو النفير العام.

٢ ـ وقولهم: «الجهاد المقدس» كلام مولّد، فالجهاد مقدسٌ في الإسلام دون وصف.

٣ ـ محمد كامل قصاب: ليس مفتياً، ولم يُعيَّنْ في وظيفة الإفتاء، ومع ذلك ليس من حقّ المفتي إعلانُ الجهاد، وإنما هو من حقِّ إمام المسلمين.

٤ ـ الحُكَّامُ الأتراك، والشعب التركي من المسلمين، ويقرّون بأركان الإسلام الخمسة، ولا يصحُ إعلان الجهاد، أو إعلان النفير العام لحربهم، لأنّ الجهاد فرضه الله على المسلمين، لنشر الدعوة، وحماية الثغور الإسلامية إذا داهمها عدوٌّ كافر.

٥ ـ كانت صورةُ المعركة كالتالي: تحالفت تركية مع ألمانية لحرب الإنكليز والفرنسيين، أو استعانت تركية المسلمة بالألمان الكفار لحرب الإنكليز الكُفَّار، وهذه مسألة خلافيةٌ.

وأما العرب؛ فقد كانوا عوناً للإنكليز الكُفَّار لحرب الأتراك المسلمين، وهذه مسألة لا خلافَ في أنَّها مُحرَّمة.

ولو قُلْنا: إن العرب المسلمين، استعانوا بالإنكليز الكُفَّار، لحرب المسلمين الأتراك، فإنها صورة مُحرَّمة أيضاً.

٦ ـ إنَّ مطالب العرب، وعلى رأسها الاستقلال، أو الانفصال عن الدولة التركية لا يُعْلَنُ النفيرُ العام والجهاد من أجلها، لأنّ الأصلَ هو الوحدة بين المسلمين، والانفصالُ ممنوع، لأن رسولُ الله ﷺ قال: «ستكون هَناتٌ وهَناتٌ، فمن أرادَ أن يفرِّقَ أمرَ هذه الأُمّة وهي جميعٌ، فاضربوه بالسيف، كائناً مَنْ كان»[١].

وكون الخليفة التركي ليس أهلاً للإمامة ووجوب كون خليفة المسلمين من العرب أو من قريش، فهذه مسائل تدخل في باب جواز إمامة المفضول مع وجود الأفضل.. ولا تشتعل الحروبُ من أجلها بين المسلمين. وقس على ذلك بقية القضايا الإصلاحية ـ التعليميّة والاقتصادية.

... فهذه كلها موانع، وصوارفُ تمنعُ القسّام وتصرِفهُ عن موافقة القصاب في فتواه، لأنّ فتوى القصاب لا تقوم على قاعدة شرعيّة إسلامية.

ونسبة عبد الوهاب زيتون إلى القسّام، أنه كان يحثُّ الناس على محاربة الأتراك، مستشهداً بقوله تعالى، في أول سورة الممتحنة: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِمَا

(١) رواه مسلم، باب حكم من فرّق أمر المسلمين وهو مجتمع، كتاب الإمارة.

جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ﴾ [الممتحنة: ١]، فهذا من اختراع المؤلف، لأن القسَّام فقيه، عالم بمدلولات القرآن، وأسباب نزوله، وهذه الآية، إنْ كان القسّام قد استشهد بها أيام الثورة العربية فإنها تدلُّ على أنّ القسّام كان معارِضاً الثورة على الأتراك، لأنّ العرب هم الذين اتخذوا (الإنكليز) عدوَّ الله، وعدوّ المسلمين، أولياء، يُلقون إليهم بالمودة، مع أن الإنكليز يكفرون بما أُنزل على نبي المسلمين والعرب ﷺ ذلك أن سببَ نزول هذه الآية، قصةُ حاطب بن أبي بلتعة الصحابي، الذي أراد أن يفشي أسرارَ خطة فتح مكة، متقرِّباً إلى المشركين، لئلا يصيبَ قومَه القائمين في مكة أذًى. فأطلع الله النبيَّ محمداً على ما دبّره حاطب، ونزل قوله تعالى في أول سورة الممتحنة يحذِّرُ المسلمينَ من موادّة الكُفّار.

وخلاصة الكلام، أنّ عزَّ الدين القسّام، لم يشارِكْ في الثورة العربية التي أعلنها الحسين بن عليّ.

حيث عمل القسَّام، بعد عودته من مصر، مُوظَّفًا في شعبة التجنيد بجَبَلَة[1] وعندما نشبت الحرب العالميّة الأولى سنة ١٩١٤م تطوّعَ للخدمة في الجيش التركي، وأُرسل إلى معسكر جنوب دمشق[2]، ربما كان في (الكسوة). ولعلَّ القسَّام استجاب لإعلان الجهاد الذي أصدره

---

(١) عن مجلة (التراث العربي) التي يصدرها اتحاد الكتاب العرب في دمشق، العددين ١٣ ـ ١٤، لسنة ١٩٨٤م، من مقالة لمصباح غلاونجي، من أهل جبلة، نقلاً عن السجلات الرسمية في منطقة جبلة.

(٢) المصدر السابق نفسه.

السلطان العثماني، وطلبَ من جميع رجال الدين في الدولة أن يحثّوا المسلمين على محاربة أعداء المسلمين، بريطانية وحليفاتها. وأصدر شيخ الإسلام، ووعّاظ الجيش التركي، وعدد من علماء المسلمين بياناً دعوا فيه المسلمين إلى النفير العام.

والمرجَّحُ أنّ القسّام، اعتزل الحرب ورجع إلى بلده بعد سنة ١٩١٦م، عندما أعلن الشريف حسين الثورةَ على الأتراك، ورأى القسامُ العربَ يهاجمون المواقع التركية، لأنه يرفض أن يرفعَ السلاح في وَجْه أخيه العربي[١]، مع اعتقاده أنّ العرب قد ابتعدوا عن جادة الحقّ عندما أعلنوا الحرب على الأتراك المسلمين وعندما حالفوا بريطانية عدوّ الأتراك والعرب كافَّةً.

وقلتُ: إنّ القسَّام اعتزل الحرب، لأن كلَّ من ترجم له، اعترف بأنه فقيه عالم بالحلال والحرام، لم يسجِلْ عليه أحدٌ من أصدقائه، ومن حاسديه، أنه عمل لدنيا يصيبها... ومَنْ كان هذا حاله، فإنه يكره اقتتال الإخوان، ويعدُّ هذه الحرب فتنةً يجب اعتزالها. لقول الرسول ﷺ: «مَنْ حمل علينا السلاحَ فليس مَنّا»[٢]، وقوله: «لا ترجعوا بعدي كفاراً

---

(١) ومن هذا الاتجاه الأمير شكيب أرسلان الذي وجّه رسالة لأحد الأشراف أثناء الحرب قال فيها: «ماذا تصنعون؟ أتقاتلون العرب بالعرب؟ وتسفكون دماء العرب بأيدي الغرب لأجل أن تكون سورية لفرنسة، أو العراق لإنكلترة، وفلسطين لليهود؟» عن كتاب (شكيب أرسلان) لأحمد الشرباصي، ص٨٧-٨٩

(٢) متفق عليه من حديث ابن عمر رضي الله عنهما. (الناشر)

يضرِبُ بعضكُم رقاب بعض»[١]، وقال عليه الصلاة والسلام: «ستكون فِتَنٌ، القاعدُ فيها خيرٌ من القائمِ، والقائمُ فيها خيرٌ من الماشي، والماشي فيها خيرٌ من الساعي... فمن وجد منها ملجأً أو معاذاً فَلْيَعُذْ بهِ».

وفي روايةٍ: «فإذا نزلتْ فمنْ كان له إبلٌ فليلحق بإبله».. وذكر الغنم والأرض.. قال رجل: يا رسول الله: أرأيت مَنْ لم يكنْ له؟ قال: «يعمد إلى سيفه فيدقّ على حدّه بحجر، ثم لينجُ إن استطاع». وفي هذه الأحاديث: التحذيرُ من الفتنة، والحثُّ على اجتناب الدخول فيها، وأن شرَّها يكونُ بحسب التعلّق بها.

والمراد بالفتنة: ما ينشأ عن الاختلاف في طلب المُلْك، حيث لا يُعْلَمُ المحقُّ من المبطل.

مع أنّ الثورة العربية بقيادة الحسين بن علي، كان وجهَ الباطل ظاهراً فيها لاعتمادها على الإنكليز، أو لاستعانتهم بالإنكليز، أو لمناصَرتهم الإنكليز في مسائل لا يتوسط فيها أجنبيّ. ولو أنَّ الثورة العربية قامت معتمدة على ذاتها، لوجدت مَنْ يسوّغ ثورتها، ولو حملت السلاح.

قلتُ: لعلَّ الذين قالوا باشتراك القسَّام في محاربة الأتراك، توهّموا ذلك للصداقة التي ربطت عزّ الدين القسَّام برجلين ناشطين في الثورة وهما: عزّ الدين التنوخي، ومحمد كامل قصّاب. مع أنّ الصداقة

---

(١) متفق عليه. (الناشر)

لا تمنعُ اختلاف الآراء، وكما قيل: «اختلاف الرأي لا يُفْسِدُ للودِّ قضيةً»، ثم إنّ هذه الصداقة نشأتْ، لرابطة سابقة بين القسَّام والتنوخي في أيام الدراسة الأزهرية، ولأن القسَّام أبلى بلاءً حسناً في الدفاع عن الوطن، والدفاع عن الحكم الفيصلي، كما سنبينه في الفِقْرة التالية.

٧ ـ بين مُنْعَرج اللِّوى، وضُحى الغد[١]:

بين مُنْعَرَجَ اللّوى، وبين ضُحَى الغدِ، كانت الخسارة، وعند الضحى كانت الندامة.

بمنعرج اللّوى، كان النُّصْحُ للعرب أَلا يضعوا يدهم بيد الإنكليز، لأن الإنكليز، لا عهد ولا ذمّة لهم، وأنهم لا يريدون للعرب خيراً.. كان الناصحون يقولون: من الخير أن يأتي الإصلاح من الداخل.. فالحِلْفُ إنْ

---

(١) كان دُرَيْد بن الصّمّة، نَصَح لقومه، عند المكان المسمّى (مُنْعرج اللّوى)، أن لا يصحبوا معهم نساءهم وأموالهم ولكنهم عَصَوْا أمره، ولم يتبيّنوا صحة كلامه إلا عندما هزمهم عدوّهم، وأوقع بهم فندموا ولات ساعة مندم، فقال دريد:

أَمَرْتُهُم أمري بمُنْعَرَجِ اللِّوى
فلم يستبينوا النُّصْح إلا ضُحى الغَدِ

كما قال المتلمس:

عصاني فلم يَلْقَ الرَّشادَ وإنَّما
يُبَيِّنُ عن أَمْرِ الغويِّ عواقبُه

لم يكن بين قَوِيَّيْنِ كان حِلْفاً بين السَّبعُ والحمل. . لو نظر العربُ في الواقع ما وثقوا بعهد الإنكليز. كيف يضمنُ الإنكليز الاستقلال للعرب، وهم يحتلّون مصْرَ وعدن، ومطامعهم في الأرض العربية لاتخفى على المترقب الحذر؟ ولو رجعوا إلى التاريخ لعرفوا أن مطمع الإنكليز في البلاد العربية كان منذ الغزو الصليبي، حيث قاد أميرهم (ريكاردوس) المعروف بقلب الأسد، إحدى حملات الغزو الصليبي.

وتجددت هذه المطامع عندما دخلت البلاد العربية في الدولة العثمانيّة، حيث استطاع الإنكليز الحصول على بعض الامتيازات التجارية والملاحية في سواحل البلاد العربية الواقعة على البحر المتوسط. . وبريطانية هي التي ساعدت الدولة التركية على طَرْد محمد علي من الشام بحجة المحافظة على استقلال الدولة العثمانية. . فحالت إنكلترة دون قيام دولة عربية كبرى ربما كان لها شأن كبير في تاريخ العرب الحديث. . فكيف تعملُ اليوم - في الحرب العالمية الأولى - على سلخ بلاد الشام والعراق والحجاز عن الدولة العثمانية، كما زعمتْ في عهدها للعرب؟ . . وقد ضربتُ المثل من التاريخ، لأن عبرة التاريخ، للمؤمن والكافر، والمسلم والمسيحي، ولكل عاقل.

ولكنني أذْكر أيضاً شواهدَ تحذير المؤمنين من موالاة الإنكليز من القرآن الكريم، لأنَّ عدداً من أنصار الثورة كانوا ممّنْ تزيّوا بزي علماء

الإسلام، فأصدروا الفتاوى بإباحة إراقة دماء المسلمين[1]. قال الله

---

(١) المعروف أن عدداً ممن يسمّون (رجال الدين) كانوا يؤيدون الثورة العربية على الأتراك، بل على الدولة العثمانية، ومنهم الشيخ محمد كامل قصاب، ولم أطّلع على وثيقة رسميّة تسند إلى أحد المشايخ القولَ بإباحة قتال العثمانيين المسلمين، ولكن عبد الوهاب زيتون ينسب إلى القصّاب أنه عدَّ قتال الأتراك جهاداً بالمعنى الإسلامي، وقد بينتُ أن عبد الوهاب زيتون غير موثوق فيما يروى، ووجدت في كتاب «عز الدين القسام» لعلي حسين خلف، ص١٤ قوله: «واستناداً إلى اتفاق السوريين السبعة واتفاقه مع الحسين سنة ١٩١٥م، أصدر الشيخ كامل القصاب ـ وكان على رأس السوريين السبعة ـ فتوى دينية تبيح مقاتلة المسلمين العثمانيين وإعلان الثورة ضدهم، ولم ينسب المؤلِّفُ هذا الكلام إلى مصدر، مع كثرة ما يحيل إلى المصادر، ولكنني وجدتُ هذا الرجل يدلّس على القرّاء، وينسب إلى المصادر ما ليس فيها، لأنه قال بعد ذلك بين قوسين: «ولبّى الشيخُ صالح العلي نداء الحسين وفتوى القصاب فقطع الطريق على الأتراك...»، ص١٤، وعزا هذا النص المحصور بين قوسين إلى عبد اللطيف يونس في كتابه (ثورة الشيخ صالح العلي): «فرجعت إلى المصدر فوجدتُ فيه: ولبّى الشيخ صالح العلي نداء الملك حسين فقطع على الأتراك الطريق»، ص٢٨، فأقحم عبارة «وفتوى القصاب» مع أنه ساق (فتوى القصاب) بناءً على اتفاق السوريين السبعة مع بريطانية، والقصاب من هؤلاء السبعة، وهذا مطعن في فتوى القصاب، لأنها تلبي رغبة البريطانيين (الكفار) في محاربة الأتراك (المسلمين) والإسلام يجمع العرب والأتراك، ونحن نناقشها على فرض وقوعها، لا على أنها صحيحة النسبة إلى القصَّاب، وإذا صحَّ أن الفتوى صدرت عن القصَّاب، فإنَّ المبتدئ في فقه الإسلام يقول: إنها فتوى باطلة، لما جاء في الحديث الصحيح عن عبد الله بن مسعود قال: =

تعالى في سورة المائدة: ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ ۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ ﴿٥٢﴾ ﴾ [المائدة: ٥١ ـ ٥٢].

وقد أصرَّ زعماءُ العرب المُتَزَعِّمين على ولائهم لبريطانية، مع نكثها بالعهود[1] قبل نهاية الحرب، حيث ذاعت أسرار اتفاقية (سايكس وبيكو) المنعقدة سنة ١٩١٦م، قبل إعلان الشريف ثورته، وفي سنة ١٩١٧م تحدت بريطانية العرب قاطبة، فأعلنت عزّمها على إقامة وطن قوميّ لليهود في فلسطين.

وفي كلّ مرّة تثور زوبعة مفتعلة في فنجان، فيظهر الزعماء بصورة المعارضين ثم تصدر بريطانية العهود المطمئنة، فيعود العربُ إلى

= قال رسول الله ﷺ: «لا يحلُّ دمُ امرئٍ مسلمٍ يشهدُ أنْ لا إلـه إلا الله وأني رسولُ الله، إلا بإحدى ثلاث: النفس بالنفس، والثيّب الزاني، والتارك لدينه المفارق للجماعة» [رواه البخاري / ك/ ٥٧/ ب/ ٦].

(١) كان في الحجاز، الفريق عزيز المصري، وخالد الحكيم، فحذّرا الملك حسين من ألاعيب الإنكليز وخداعهم، لكن الملك حسين كان مدفوعاً بالرغبة في الملك، واعتقد أن خطابات (مكماهون) وثائق دولية لا تستطيع بريطانية التراجع عنها، فلم يستمع للناصحين، بل أعرض عنهما، ونفاهما من الحجاز «عن ثورة الشيخ صالح العلي» لعبد اللطيف اليونس.

سيرتهم الأولى إلى أن انتهت الحرب بانتصار الحلفاء وهزيمة الدولة العثمانية بيد رعاياها العرب، الذين خرجوا من المعركة مهزومين أيضاً.

فانتدبت بريطانية نفسها وصيّة على فلسطين ـ مع الوفاء بوعدها لإقامة وطن قومي لليهود ـ وعلى الأردن وعلى العراق. وحظيت فرنسة بسورية، وقسمتها إلى دولتي سورية ولبنان وقسمت سوريّة إلى دويلات.

٨ ـ الثورة على الاحتلال الفرنسي:

الاحتلال الفرنسي لسورية، والاحتلال الإنكليزي لفلسطين، كانا من نتاج الثورة العربية على الدولة العثمانية. فقد حشدت الحكومة العثمانية حوالي أربعين ألف جندي لمقاومة الزحف البريطاني القادم من جهة مصر، وكانت القوات البريطانية قد عجزت عن دخول الأراضي الفلسطينية حتى تموز سنة ١٩١٧م.. وبَعْدَ أنْ أعلن شريف الحجاز الثورة في العاشر من حزيران ١٩١٦م، تكوّنتْ الكتائب العربيّة استجابة لنداء الثورة العربية، وأصبحت القوات العثمانية بين نارين، نار المغيرين من خارج الحدود، ونار الرعايا العرب من داخل البلاد.. وكانت القوات العربيّة تحتل المدن والقرى، وتطرد الجند التركي منها، وتأتي بعدها جيوش الحلفاء[1].

---

(١) قال الشاعر الشهيد عبد الرحيم محمود (١٩١٣ ـ ١٩٤٨م) يصف ما كان في الحرب العالمية الأولى: =

وبقيتْ قيادة الثورة العربية مُصرَّةً على وفائها للإنكليز مع وجود الإنذارات المبكرة بأن بريطانية سوف تنكث وَعْدها في نهاية الحَرب،

= وأتى الحليفُ وقام في أعتابنا
متحيّراً إنّا هُدَى المُتَحَيّر
واستنصرَ العُرْبَ الكرامَ وإنهم
غَوْثُ الطريد ونُصْرة المُسْتَنْصِرِ
وإذا عِتاقُ العُرْب تُوري في الدجى
قدْحاً وتصهلُ تحت كلِّ غَضَنْفَرِ
وإذا السيوفُ كأنهنَّ كواكبٌ
تهوي تَلامَعُ في العجاجِ الأكدرِ
رجحتْ موازينُ الحليف ومَنْ نكنْ
مَعَه يُرَجّحُ بالعظيم الأكثرِ
وبَنَتْ له أسيافُنا صرحاً فلمْ
يحفظْ جميلَ العُرْب يا للمُنكِرِ
في ذمّة الرحمن صَرْعَى جُدِّلوا
وعلى ثرًى بدمِ الرجالِ معصْفَرِ
غدرَ الحليفُ وأيُّ وَغْدٍ صانه
يوماً وأيّةُ ذمةٍ لم يَخْفرِ
لما قضى وَطَراً بفضلِ سيوفنا
نسيَ اليدَ البيضا ولم يتذكَّرِ

عن الأعمال الكاملة للشاعر عبد الرحيم محمود، بتحقيق عز الدين المناصرة.

ففي تشرين الثاني ١٩١٧م استولى الحزب الشيوعي الروسي على الحكم في روسية فقام حكام روسية البلاشفة بنشر الوثائق السريّة في وزارة الخارجية الروسية في عهد القياصرة، وكان منها اتفاقية سايكس بيكو.

وأرسل الأتراك نصَّ الاتفاقية إلى الشريف حسين، ليظهروا له مدى غلطه في محالفة بريطانية، التي اتفقتْ على تقسيم بلاد العرب واستعمارها. وعرضوا على الشريف إعادةَ النظر في كلا الموقفين: التركي والعربي، وإجراء مصالحة بينهما، والسير معاً لمحاربة الإنكليز. فاستوضحَ الشريف الأمر، وأرسل إلى الإنكليز يسألهم عن حقيقة القصة، فنفى الإنكليز كلَّ ما نُشِر، وانطلى الأمر على الشريف، ومَنْ لفَّ لفّه.. وقريباً من هذا الوقت أعطت بريطانية وعدها لليهود بإقامة وطن قومي لهم في فلسطين، وثارت زوبعة غضبٍ، ثم سكتتْ بَعْدَ أن طمأنت بريطانية زعامة العرب أنَّ الوطن القومي اليهودي، لن يؤدي إلى زحزحة طالبي الملك والرئاسة عن الزعامة...

هذه النتائج التي تمخّضت عنها الثورة العربية، ليس للقسَّام يدٌ فيها، ولم يكن من رأيه الثورة على الحكومة العثمانية بالصورة التي كانت، فهل وقف عزُّ الدين شامتاً بقومه لما حلّ بهم، وأنشد قول الشاعر:

أَمرتك أمراً حازماً فعصيتني فأصبحتَ مسلوبَ الإمارةِ نادما
فما أنا بالباكي عليك صبابةً وما أنا بالداعي لترجع سالماً

إنَّ القسَّام لم يتخلَّ عن قومه الذين ضلّوا سبيل الإصلاح، فكان حالهم كقول القائل:

المستجيـــرُ بعمـــروٍ عنـــدَ كُـــرْبتـــهِ
كـــالمستجيـــرِ مـــن الـــرَّمْضـــاءِ بـــالنّـــارِ

بل وقف القسَّام يدافع عن قومه، ويدفع عنهم الكربات وهو يقول[1]:

فجئـــتُ إليهـــمْ والـــرمـــاحُ تنـــوشهـــم
كـوقْـع الصيـاصـي فـي النسيـجِ الممـدَّدِ[2]
وطـــاعنـــتُ جَمْـــعَ الخيـــل حتـــى تبـــدّدتْ
وحتـــى عـــلانـــي حـــالـــك الليـــل أســـود
قتـــالَ امـــرئ آســـى أخـــاه بنفســـه
ويعلـــمُ أنَّ المـــرءَ غيـــرَ مُخلَّـــدِ
وطيّـــب نفســـي أننـــي لـــم أقـــلْ لهـــم
كـــذبتـــمْ، ولـــم أبخـــلْ بمـــا ملكـــتْ يـــدي

---

(١) أصل الأبيات للشاعر دريد بن الصمّة، من الحماسيّة رقم (٢٧١).
(٢) الصياصي: خشبة الحائك في نسجه الممدود إذا أراد تمييز طاقات السَّدى بعضها من بعض.

ففي ١٠/ ١٠/ ١٩١٨م احتل الأسطول الفرنسي اللاذقية والساحل السوري، فكان عزُّ الدين القسَّام أول مَنْ رفع راية مقاومة فرنسة في تلك المنطقة، وأول مَنْ حمل السلاح في وجهها[١]. «وكان من نتاج دعاياته أن اندلعتْ نيرانُ الثورة في منطقة صهيون[٢]، فكان في طليعة المجاهدين»[٣] فكيف بدأ؟ ومن أين بدأ؟ ومتى بدأ؟ وما الوسائل المتاحة للجهاد؟.

● من المتفق عليه بين المؤرّخين، وشاهدي الحال، أنَّ البلاد العربية بعامّة، والمجتمع الريفي بخاصة، كان ـ في العصر العثماني ـ فقيراً مُعدماً خالياً من الصناعات البدائية بلْه الراقية، وأن الحضارة العربية التي وصلت قمةً عالية في العصرين العباسي والأيوبي، قد توقفت مع بداية العصر التركي ثم انحطت إلى الدَّرْك الأسفل مع نهاية هذا العصر. وكفى البلاد انحطاطاً أن تسعة أعشار المال كان بيد الإقطاعيين، والملتزمين بجمع الأموال لخزينة الدولة. ويقيم أكثرُ الناسِ رمقهم بالعُشْر الباقي.

وأكثر الناسِ هم الفلاحون والعمال الفقراء إلى المالِ، ولكنهم

---

(١) ثورات العرب في القرن العشرين، لأمين سعيد، ص١١٧.

(٢) من جبال محافظة اللاذقية، وهي منطقة إدارية تابعة لمدينة اللاذقية، وقصبتها قرية الحَفَّة، وتتألف منطقة صهيون من مجموعة قُرى.

(٣) تاريخ الثورات السوريّة في عهد الانتداب الفرنسي، لأدهم الجندي.

أغنياء بما تكنُّه صدورهم من حبّ الوطن والدفاع عن رايته.

فهل يحول الفقرُ إلى المال دون الإعداد للجهاد والبدءِ به؟

وهل يُعَطِّلُ تفوّقُ العدوّ في العُدَّة المادية فرض الجهاد؟

الجواب في قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: ٦٠]. والشاهد في قوله تعالى: ﴿مَّا ٱسْتَطَعْتُم﴾، فالقوة المادية ليس لها حدّ محدود ولا ينبغي فيها التكافؤ.

وقال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُواْ مِاْئَتَيْنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ يَغْلِبُوٓاْ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ [الأنفال: ٦٥]، فإن المؤمن الصابر يغلب عشرة من الكفار لأنّ الكفّار يقاتلون على غير احتساب وطلب ثواب، فيقلّ ثباتهم ويُغلبون لجهلهم بالله ونُصْرته، فيستحقون خذلانه، أما المؤمنون فإنهم يقاتلون على بصيرة، ومعهم ما يُستوجب به النصرُ والإظهار من الله.

ثم خفَّفَ اللهُ العِبءَ عن المسلمين، فقال: ﴿ٱلْـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًاۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُواْ مِاْئَتَيْنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓاْ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الأنفال: ٦٦]، فالصبرُ وطلب العون من الله، قوّة تجعل القوّة المادية الأقل، ترجح على القوة المادية الأكثر. وفي كلا الحالين حال (١/ ١٠)، و(١/ ٢) فإن

المسلمين في الزمن الذي نؤرخ له، يفوقون الكفار في عدد الجنود مما يجعل الفرار مخالفة صريحة لقوله تعالى: ﴿فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ﴾ [الأنفال: ١٥] ﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [الأنفال: ١٦].

وقال الله تعالى: ﴿ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [التوبة: ٤١] والشاهد في قوله تعالى: ﴿خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ أي: خِفافاً في النفور لنشاطكم له وثقالاً عنه لمشقته عليكم، أو: خفافاً لقلة عيالكم، وثقالاً: لكثرتها. أو خفافاً من السلاح، وثقالاً منه، أو ركباناً ومشاةً، أو شباباً وشيوخاً، أومَهازيلَ وسِماناً، أو صحاحاً ومراضاً.

روى الزهري أنّ سعيد بن المسيب خرج إلى الغزو، وقد ذهبتْ إحدى عينيه، فقيل له: إنّك عليلٌ صاحبُ ضرر فقال: استنْفَرنا اللهُ، الخفيفَ والثقيلَ، فإن لم يمكني الحرب، كثّرتُ السوادَ وحفظتُ المتاعَ.

وقوله تعالى: ﴿بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ﴾ إيجابٌ للجهاد بهما إنْ أمكن، أو بأحدهما على حَسَب الحال والحاجة.

● ويظهرُ من الشواهد السابقة، أنه لا عُذْر للمسلمين في القعود عن مجاهدة الفرنسيين، الذين غَزَوْا بلاد الساحل السوري. فمن الذي ينادي: حيَّ على الجهاد؟ الأصلُ في ذلك أن يتولّى أمْرَ تسيير الجيوش

إمامُ الأمة، أو مَنْ يُنيبُه الإمامُ في الأقاليم. ولكنَّ البلادَ العربية أصبحت بلا إمام بعد هزيمةِ الدولة العثمانية، بل تنازل السلطانُ العثماني في مؤتمر الصلح[1] عن جميع البلاد التي كانت تحتَ سيطرةِ الدولة العثمانية، ولم يَبْقَ لهم إلا ما يُسمّى اليوم (تركيّة).

وأما الشريف حسين الذي ملّكه العربُ عليهم، فلم يعترف له حلفاؤه بمُلكه، وتحوّل ابنه فيصل منْ محاربٍ إلى مفاوض، لعله يحظى برقعة من الأرض، فرضي من (الدأماء بالوشل[2]) ولم يكن من رأيه إعلان الحرب على الفرنسيين والإنكليز.

فهلْ يُعَطَّلُ فرضُ الجهاد لغيابِ الإمام، أو الخليفة، أو الملك، أو الأمير؟.

إنَّ عزّ الدين القسَّام لم ينتظر عودة الإمام ليؤدي واجبه نحو الأمةِ، فقاد مَنْ أطاعه من بني قومه، ومن أهل بلدته، إلى جهاد الأعداء. فقد نقل عنه ابن أخيه عبد المالك القسّام أنه كان يقول: «ليس المهمَّ أن ننتصر... المهم ـ قبل كلِّ شيء ـ أنْ نُعْطي من أنفُسنا الدرس للأُمّة والأجيالِ القادمة». فهو يريدُ أن يُحيي المثل الأعلى في الجهاد، لئلا يظنَّ الناسُ أن المَثَلَ الأعلى قد انتهى بنهاية عصر الصحابة والتابعين وإنّه مطلبٌ عسيرٌ لا يَقدرُ على فعلِه أهلُ القرون التالية.

---

(١) كان مؤتمر الصَّلْح في ٣٠/ ١/ ١٩١٩م.

(٢) الدأماء: البحر، والوشل: الماء القليل يتحلّب من الصخر.

وهناك رواية تقول: «قبل سقوط الساحل السوري بيد القوات الفرنسية ـ في تشرين الأول ١٩١٨م ـ باع عزُّ الدين القسَّام بيتَه ليشتري بثمنه سلاحاً. فإنْ صحتْ هذه الرواية، فإنَّ القسّام يصدق فيه قول أدهم الجندي «إنَّ الشهيد القسَّام يزنُ بوطنيته أُلوفَ الرجال» ذلك أنّ القسَّام كان قد رأى ببصيرته ما وقع بَعْد الحرب، قبل أن يقعَ، فأخذ يُعدُّ العُدَّة لمنازلة الأعداء قبل أنْ يغزوا بلادَ الإسلام، لأنّ العربَ قالوا: «ما غُزي قومٌ في عُقْر دارهم إلاَّ ذلّوا».

وتقول الرواية السابقةُ أيضاً: إنّه باعَ بيته في جَبَلة، وانتقل إلى الحَفَّة مع زوجته وأولاده.. أما بَيْعُ البيت فهو ثابتُ سواءٌ أكان قبل الغزو الفرنسي أم بَعْده. ولكن الانتقال إلى الحَفَّة مرحلةٌ سبقتْها مراحل.

٩ ـ مراحل الإعداد لجهاد الفرنسيين:

المرحلة الأولى: التعبئة المعنوية: فقد أعادَ القسَّام للمسجد رسالته القديمة، التي وُضع للناس من أجلها. فالمسجدُ لعبادة الله الواحدُ الأحد، وهو مدرسة يتعلّمُ فيها الناس أمورَ دينهم، قبل القول والعمل، وهو مركز الدعوة إلى الجهاد.

ومن المسجد يعرف الناس أخبارَ الثغور الإسلاميّة التي يتهددها الأعداء. فكانت خُطبُ القسّام ودروسُه جامعةً، تتأدب فيها الجماهير بأدب الإسلام، ويتلقون فيها ثقافة وطنيةً تؤهلهم لتحمل المسؤوليات الاجتماعية والوطنية. وكانت خُطبه إعلاناً لرأي الدين فيما يجري من

شؤون السياسة والحياة، فاستثمر المنبرَ في التحريض والتعبئة وحضّ المؤمنين على القتال، فاستحقَّ لقَب (داعية الجهاد).

وكان القسَّامُ يرى أن القوّة المعنوية المنبعثة عن الإيمان بالله، والعمل بكتابه، هي السلاح الأقوى في المعركة. فرُوي أنه عندما قدمت إلى اللاذقية سنة ١٩١٩م لجنة كراين الأمريكية ـ لاستفتاء الناس في شأن تقرير مصير البلاد السياسي واختيارِ دولةٍ تكونُ وصيّةً عليها ـ شخص وفدٌ من جبلة لمقابلتها وكان الشيخ القسّام من رجاله، ولما سئل عن رأيه قال: «لا وصاية ولا حماية»، فقال رئيس اللجنة: نعتقد أنكم لا تستطيعون إدارة أنفسكم وحماية بلادكم، وأنتم على هذه الحال من الضَّعْفِ وانعدام التجربة، فأجاب الشيخ القسّام: إننا نستطيع أن نُدير أنفسنا، وليس غيرنا أقدر منا على ذلك، إذْ لدينا قوةً لا يملكها الآخرون وأخرج المصحف من جيبه، وقال: هذه قُوَّتُنا. ثم عاد القسَّامُ وصحبه إلى جَبَلة، وصدورهم تمتلئ حقداً على الحلفاء. وقد أُلِّفتْ في جبلة بعدئذٍ إدارة، ولي فيها الشيخ القسَّام القضاء الشرعي.

المرحلة الثانية: بَيْعُ بيته وشراء السلاح، ليكون قُدْوةً للناس في الجهاد بالمال والنفس، ولأنَّ إمامَ الناسِ يكونُ أَمامَهم في كلِّ ما يدعو إليه

المرحلة الثالثة: تدريب المتطوعين على استعمال السلاح، وفنون القتال: فقد لبّى نداءَه جَمْعٌ غفيرٌ من أهل جبلة، فأخذ يدربهم على حمل

السلاح وفنون القتال عند شاطئ خليج بحري يُدعى(البحيص)» جنوب جَبلة. والقسَّام ذو خبرة في استعمال السلاح، لأنه التحق بالجيش العثماني، عندما دعا السلطان العثماني إلى الجهاد لمحاربة الإنكليز وللقسام خبرة أسبق من ذلك في إعداد المجاهدين وتجهيزهم عندما استجاب لنداء الحكومة العثمانية في التطوع لحرب الطليان في طرابلس سنة ١٩١١م

المرحلة الرابعة: عندما اكتشفته عيون الفرنسيين المبثوثة في كلِّ مكان فأخذوا يضيّقون عليه، ويتربّصون به، فلما أوجسَ منهم الريبة، واستشعر الكيد والغدر، رأى أنَّ منازلتهم في سهول جبلة المكشوفة تتيح لجيشهم قَمْعَ ثورته، فتطلَّع إلى موقع أكثرَ حصانةً وأبقى على الكفاح المسلح، فاختارَ جبال صِهْيَوْن ميداناً للجهاد، فيمَّمَ شطرها مع رجاله.. واتخذ قاعدةً عسكريةً في قمةٍ منيعةٍ تقع قربَ قرية (الزَّنقُوفة) وطفقوا يغيرون على المراكز العسكرية الفرنسية في الجبال وفي مشارف المدن الساحلية.

وقد كان لعصبته الجهادية أثر شديد الوقع على الفرنسيين، فحاولوا إغراءَه واستمالته لوقف حركته، فأَوفدوا إليه رسولاً[1] يحمل رسالة شفوية يدعونه فيها إلى مسالمتهم، والكفّ عن مقاومتهم، وإلى

---

(١) يروى، أن الرسول إلى عز الدين، كان زوجَ خالته عبد الرحمن محسن علي أديب.

العودة إلى جبَلَة آمناً، ويَعدُونه بتعيينه قاضياً شرعياً في المنطقة، ولكنّه رفضَ دعوتهم وقال لرسولهم: عُدْ من حيثُ أتيت، وقل لهؤلاء الغاصبين: «إنني لن أقعدَ عن القتالِ أو ألقى اللهَ شهيداً».

فلما عجز الفرنسيون عن استمالته وثنْيه عن الجهاد، حكم عليه الديوان العُرْفي، فيما كان يسمّى «دولة العلويين» بالموتِ غيابياً، وصدر منشورٌ يضمُّ اسمَ عزّ الدين القسَّام وعدداً من المجاهدين.

ولم يذهب القسّامُ وحيداً إلى ميدان الجهاد، وإنما ذهبَ على رأس طائفة من مريديه وأتباعه الذين اصطفاهم وعلّمهم، فتذوقوا لذّة الإيمان، وتشوّقوا إلى الجهاد في سبيل الله.

ولم تكن جماعةُ القسَّام تعملُ وحدَها في ميدان الجهاد، بل كانت هناك جماعاتٌ تعمل للهدف نفسه: وهو طرد الفرنسيين، ووحدة البلاد السوريّة.

ولعلَّ العملَ على وحدة البلاد هو الهدفُ المُقَدَّم. فالوصايةُ أو الانتداب، مصيرُهما إلى الزوال، ولكنَّ تقسيمَ البلاد إلى دويلات[1] هو الداءُ الوبيلُ الفتَّاك الذي يمحقُ بركةَ الأمة، ويؤدي إلى زوالها. ولذلك حرصتْ القيادات الثائرة كلُّها على الاتصال بدمشق عنواناً على الوحدة.

---

(١) كانت فرنسة قد قسّمت سورية إلى أربع دول: دولة دمشق، ودولة جبل العلويين ومقرها اللاذقية، ودولة جبل الدروز، ودولة حلب.

كما كانت القيـادات الثائـرة على اتصال وتعاون فيما بينها مـع تعدّد مواقعها.

فكانت عصابة إبراهيم هنانو في منطقة حلب وجبل الزاوية.

وعصابة الشيخ صالح العلي في المنطقة الساحلية الشمالية.

وعصابة عمر البيطار وعزّ الدين القسَّام في جبال صهْيَوْن.

وهل كان القسّامُ مستقلاً بعصابته، أم كان مندمجاً في غيره؟

يظهر من سير الأحداث أنَّ عصابة القسّام كانت أقرب إلى الاتصال والوحدة مع قيادة عمر البيطار، لاتحادهما في المكان والمنطقة، ولكن شخصية عزّ الدين لم تغب عن الساحة، بل كان لها حضورها وأثرها، وكان لعصابته نوع من الاستقلالية يصبح معها ذكْرُ عزّ الدين بوصفه قائداً له عصابة يقودها. تتفق مع ثورة (جبـالِ صِهْيَوْن) في خطتها، ولذلـك دمجت مع جماعة عمر البيطار تحت اسم: (ثورة جبال صهيون).

والثورات الثلاث ـ حلب ـ وجبال صهيون ـ وجبال العلويين ـ حافظت على استقلالها في مراحلها الأولى، ثم أخذت تتبادل الخبرة والتعاون والنجدات، دونَ أن تصِلَ إلى تشكيل قيادة واحدة.

ومن أشهر المواقع التي خاضها القسَّام وجماعته معركة (بانيـا)، حين تمكّنَ القسّامُ مع ثلة من المجاهدين من القيام بغارة ليلاً على الثكنة الفرنسية، وقتل حاميتها في آذار ١٩٢٠م.

ومما يذكره المعّمرون في الساحل أنّ الجنرال الفرنسي (نيجر) الذي وصل إلى اللاذقية من فرنسة بعد هزيمة الفرنسيين في بانيا، وهزيمتهم قرب قرية (النيحا)، قاد بنفسه الحملة على فلاحي القرى الساحلية، وقاموا بمذبحة في قرية (بساتين الريحان) بمنطقة الحفَّة حيث جمعوا أهالي القرية في بيدر القريـة، وأمطروهم بوابـل من الرصاص فسقط مئة وسبعون شهيداً.

وبعد هذه الحملات الوحشية اجتمعَ ما يُسمّى (الديوان العرفي) في (دولة العلويين)، وأصدرَ حكماً غيابياً بإعدام الشيخ القسَّام، وحمّلهُ مسؤوليةَ تعريض الفلاحين الآمنين لما سيلحقهم من الأذى، بسبب إيوائهم القسّام ورفاقه. ووضع الفرنسيون مكافأةً قدرُها عشرة آلاف ليرة لمن يدلّ على مكان القسَّام، أو يمسك به ويقدمه للسلطات الفرنسية.

١٠ ـ وماذا بَعْدُ:

ضعفت الثورة، ثم توقفتْ، وكان المجاهدون يتشوّقون إلى الجهاد. ولم تخمد الثورة المتأججة في الصدور لقد سكتَ الثائرون لأن فرنسة جنّدت كلَّ جيوشها لإثبات وجودها، والدفاع عن شخصيتها بوصفها دولة استعماريّة قوية، يهابُها الملايين من سكان المستعمرات المُسْتضعفة. فاتبعت أسلوبَ الأرض المحروقة، والبيوت المهدومة، لإرهاب سُكّان الريف، والقرى، والمدن، لإجبارهم على التوقف عن

مدّ الثوار بالجنود والطعام.

وتوقف القتال، لأن المجاهدين لم يجدوا الإمدادات التي كانوا يطمعون فيها من القيادة السياسية في دمشق. فقد شُغِل الملك فيصل، بالمفاوضات وعَقْد الاتفاقات، وعاش سنواتٍ ما بَعْدَ انتصار الحلفاء يستجدي الإنكليز الوفاءَ بما تعهدوا. إلى أن احتل الفرنسيون دمشق في ٢٤/ ٧/ ١٩٢٠م، وغادر الملك فيصل دمشق، ثم نُقِل بالقطار إلى حيث شاء حلفاؤه الإنكليز.

● وفي انتقال عزّ الدين القسّام من جبهة القتال في جبال صِهْيَوْن، إلى (حيفا) روايات:

الأولى: قال الزركلي في (الأعلام): «إن القسَّام قصد دمشق إبّان الحكم الفيصلي ثم غادرها بعد استيلاء الفرنسيين عليها (سنة ١٩٢٠م) فأقام في حيفا».

الثانية: نقل مصباح غلاونجي بصيغة التمريض (ويقالُ): «إنه في الوقت الذي كانت القواتُ الفرنسية توجه إنذارها إلى الملك فيصل، كان الشيخ القسَّام وفصائل من أصحابه المجاهدين قد غادروا بلدة (جسر الشغور) متَّجهين إلى دمشق، لخوض غمار المعركة، ولكنهم لم يبلغوها إلا بعد فوات الأوان».

الثالثة: قال عبد الوهاب زيتون: «ومن الثابت في ملفّ الأحداث

الكفاحية في تاريخ سورية النضالي، أنَّ الشيخ القسَّام ـ وهو في محطته الانتقالية في بيروت ـ وقبل رحيله إلى فلسطين، قام بمغادرتها سرّاً إلى دمشق حيث أقام أياماً معدودات في منزل رفيقِ دربِه الشيخ عزَّ الدين التنوخي.. ومن الثابت أنّه ـ أي القسَّام ـ كان له شرف المشاركة في ملحمة ميسلون في ٢٤/٧/١٩٢٠، التي استشهد فيها البطل يوسف العظمة وعدد كبير من رفاقه. وبعد معركة ميسلون عاد القسَّام إلى بيروت ومنها انتقل إلى صيدا، ومنها إلى عكا متخفيًّا

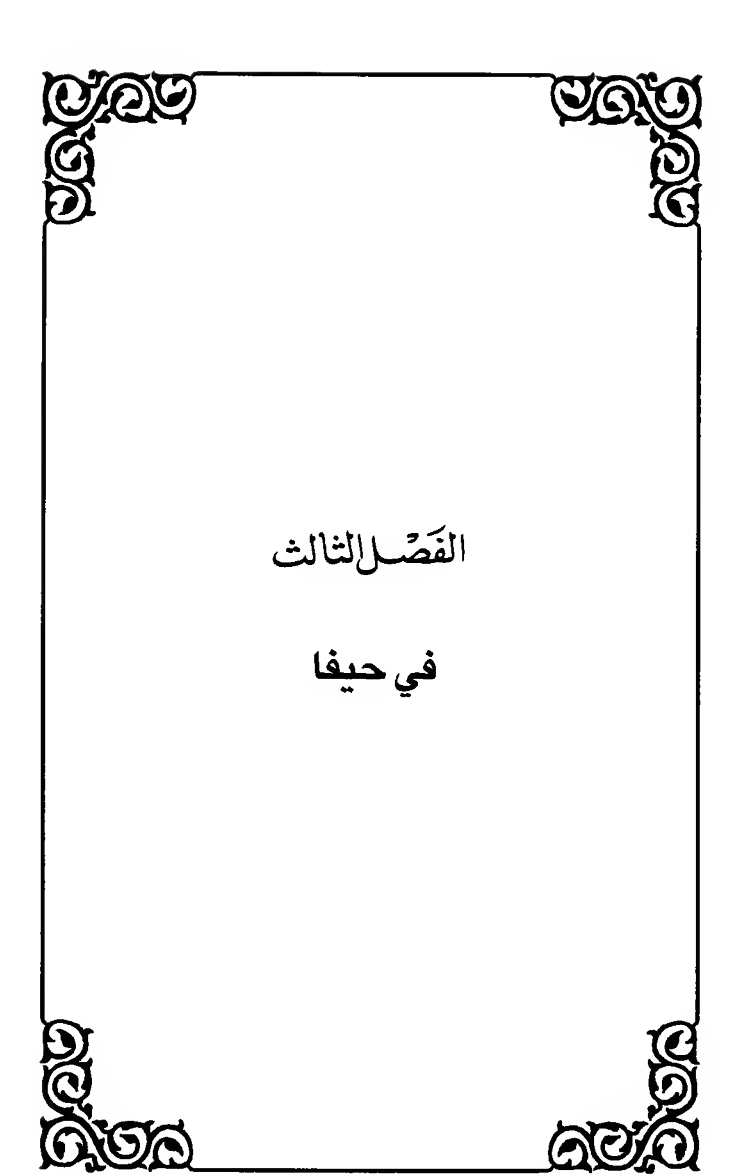
الرابعة: قال علي حسين خلف: إنّ القسَّامَ انتقل من جبال صِهيَوْن إلى جسر الشغور ومنها انتقل إلى بيروت، وأقام في الجامع العمري بمساعدة الحاج خليل سكر، ثم زار القسّامُ دمشقَ سرّاً، والتقى عزَّ الدين التنوخي الذي زوّده بجوازِ سفر (مرور) ولعلَّه جواز سفر مزوّر ليتمكن القسامُ من التمويه على الفرنسيين الذين يطلبون رأسه.

الخامسة: أنَّه بقي في دمشق إلى أنْ سقطتْ الحكومة الفيصلية فقام بعدها بإجراء اتصالات مع صديقه الشيخ كامل القصّاب، واتجه إلى سورية الجنوبية (فلسطين) ونزل في ضاحية الياجور قرب مدينة حيفا.

وتتفق الروايات كلُّها على أنه ذهبَ إلى دمشق، ولكنّها تختلِفُ في الهدف من الزيارة: فأكثرُ الرواياتِ على أنّه ذهبَ إلى دمشق للدفاع عن دمشق، وسكتت بعضُ الروايات عن هدف الزيارة، وذكر بعضُها أنّه ذهبَ للحصول على وثيقة سفر، يتمكن بواسطتها من التنقّل والتخفّي،

ومما يعكّر هذه الرواية أنّ القسّام لم يكن وحدَه المحكومُ عليه بالإعدام، فقد كان في زمرة القسَّام ومرافقيه الشيخ أحمد إدريس، فهل حصل أيضاً على جواز سفر (مرور) أو (مزور)؟ وإذا كانت تحرّكات القسّام ورفاقه سريّة، فما حاجته إلى جواز السفر؟.

● ● ●



الفَصل الثالث

في حيفا

الفصل الثالث

في حيفـا

١ ـ طريق الهجرة وزمن الوصول:

من المرجح أنّ القسّام ورفاقه، غادروا جبال صِهْيَوْن، واتجهوا نحو جسر الشغور، ثم انتقلوا إلى بيروت، ثم كانت رحلةً فرديّة للقسّام إلى دمشق، لهدفٍ، ثم عاد إلى بيروت، وانتقلت الجماعة إلى صيدا، على الشاطئ اللبناني بواسطة عربة يقودُها حصان، ومِنْ صيدا أقلّهم قاربٌ إلى عكّا، فأقامَ فيها أياماً أو شهوراً، كانت استراحةَ المسافرِ، أو للتّشاور في أيِّ الأماكن أنسبُ للإقامة الدائمة، فوازنَ بين عكا وحيفا، ودرس التركيبة السكانية لكلتا البلدتين فمال إلى المجتمع الحيفاوي، لأن حيفا كانت سوقاً رائجةً للعمل، والعمال، والتجارة، يَفِدُ إليها طلاّب العملِ والتجارةِ من الأقاليم العربية كافةً، وبخاصة الإقليم السوري، لأنَ فلسطين كانتْ جزءاً من سورية.

والمسافةُ بين عكا وحيفا عشرون كيلاً في طريق السيارات، وخمسة عشرون كيلاً بطريق السكة الحديدية.

. . ويبدو أنَّ القسّام عندما قرَّر الهجرة إلى فلسطين، لم يكن قاصداً حيفا بعينها، وإنما قصدَ فلسطين كلَّها، فكانت عكا أول ميناء يرسو فيه قاربه، لأنه أقربُ الموانئ الفلسطينية إلى صيدا.

والتاريخ الصحيح لوصول القسّام إلى فلسطين محْصورٌ بين آب سنة ١٩٢٠م وآخر السنة نفسِها، لأنه غادر سورية بعد سقوط الحكم الفيصلي (أواخر تموز ١٩٢٠م). أمَّا وصول القسَّام إلى (حيفا) فإنّه لا يتأخر عن بداية سنة ١٩٢١م، لأن اسم عزّ الدين القسّام يظهر في وثيقة مؤرَّخة في ٥/ ٤/ ١٩٢١ قدَّمها وجهاءُ حيفا وشخصياتُها، للمندوب السامي البريطاني يطلبون فيها تعيين محمد أمين الحسيني (مفتياً). ويردُ اسم القسّام تحت وظيفة (مدرس) مع العلم أنّ القسّام لم يتولّ التدريس إلا بَعْدَ أشهرٍ من وصوله إلى حيفا[١].

٢ ـ ورافق القسّام في رحلة الهجرة من جبال صهيون إلى فلسطين، ستةٌ من أصحابه وهم: الشيخ أحمد إدريس[٢]، ومحمد عارف محمد

---

(١) انظر صورة الوثيقة في ملحق الكتاب وتعليقنا عليها.

(٢) أحمد إدريس: من مواليد قرية الزنكوفة سنة ١٨٥٠م، من الأتباع الخُلّص للشيخ عزّ الدين، شارك في قيادة ثورة جبال صهيون منذ بدايتها حتى نهايتها، عاد إلى شمال سورية بعد وصوله إلى عكا، ونزح إلى تركية، وقاتل في كردستان. حُكم عليه بالموت، ورجع إلى سورية بالعفو العام، وظلَّ إمام قريته وخطيبها.

(حنوف) الحنفي، والحاج علي عبيد، وخالد الصالح، وظافر القسّام[1]، وعبد المالك القسّام[2].

أما الشيخ أحمد إدريس، فقد عاد من عكا. وزعم علي حسين خلف، أنه عاد لخلاف نشب بينه وبين عزّ الدين القسّام، بسبب الأسلوب الذي يتبعه القسّام في مناقشة زملائه، وتعامله معهم. وهي رواية مفردةٌ، لم يَعْزُها المؤلف إلى واحد ممن حضر وشافه.

وبعد شهرين من الوصول إلى حيفا، عاد الحاج خالد ـ من جبال

---

(١) ظافر القسّام، وعبد المالك القسّام، ابنا مصطفى أخي عزّ الدين من أبيه، وكان مصطفى قد غادر منطقته بائعاً متجوّلاً للأقمشة، وذهب إلى اليمن، حيث عمل كاتباً في الحُدَيِّدةِ، حتى توفي مصاباً بمرض الكوليرا، بعد أن أنجب ولدين: عبد المالك، وظافراً.

(٢) قال أكرم زعيتر في يومياته بمناسبة تأبين القسّام في ٥/ ١/ ١٩٣٦م: «ثم شكرت باسم شقيق القسام: الشيخ فخر الدين القسّام، للشعب وخطبائه، وتلوت على الحشود العهد على ترسُّم آثار الشهيد. .» وفخر الدين هو شقيق القسّام، وكان من مرافقيه في دراسته الأزهرية. ولا نعلم متى حضر إلى فلسطين: هل كان موجوداً في حياة القسّام، أم حضر إلى حيفا لهذه المناسبة، وليطمئن على آل القسّام، وليكون بجوار والدته، التي كانت عند ولدها عزّ الدين وسألت الأستاذ عبد الرحمن محمد الحنفي عن قصة فخر الدين، فقال: إنه لحقَ بأخيه عزّ الدين بعد سنوات، واستقرَّ في حيفا، ولم تكن له مشاركة فيما دعا إليه أخوه، مع أنه كان شيخاً أزهرياً.

صهيون ـ فألقت القوات الفرنسية القبض عليه، في أطراف قرية جبلة، وأُعدم بطريقة بشعة، إذ جمع الفرنسيون سكان القرى، وسكبوا الكاز على الحاج خالد، وأحرقوه حيّاً أمامهم.

أما زوجة القسّام فقد لحقت به بعد مُدَّة من الزمن، وكان بعضهم عرض عليه استرحام السلطات الفرنسية للسماح لزوجته بموافاته، ولكن رفض العرض قائلاً:

«إنّا نعتمد على الله، ولا نطلب شيئاً من المتعاونين مع الأعداء» وأكّد أنه يرفض كل مِنَحِ المحتلّ، فقام بالمهمة بعض أصدقائه، ونقلهم سائق من بيروت، وأدخل الأسرة في جواز سفره[1]. وكانت الأسرة مكونة من زوجه وبعض أولاده الأربعة. فقد ترك ثلاث بنات وولداً. أما الولد، فهو من مواليد حيفا. ولا نعلم أي بناته وُلِد في جبلة. وفي بلاغ إذاعة الحزب العربي سنة١٩٣٥م بعد استشهاد القسّام «أنّ للشيخ في حيفا ثلاث بنات وغلام لا يتجاوز التاسعة، وله زوجة، وشقيقة، ووالدةٌ

(١) رواية نقلها علي خلف عن عبد المالك القسّام. وفيها نظر: لأنَّ إضافة اسم إلى جواز سفر يتطلب إثبات وثائق قرابة نسبٍ أو زواج، أما النسب فهو مختلف، وأعمار المترافقين متباعدة. فلم يبق إلا إثبات زواج، وهذا لا يكون إلا بعقد نكاح في المحكمة، وأشكُّ في قبول القسّام بهذه الوسيلة.
مع العلم بأن أصحاب القسّام من جبلة الذين رافقوه إلى حيفا، لم يكن لهم زوجات قبل الهجرة ثم تزوجوا في حيفا، وهي رواية الأستاذ عبد الرحمن محمد الحنفي بن الشيخ محمد الحنفي.

مقعدة» فهل جاءت والدة القسّام برفقة زوجته؟

ليس عندنا جوابٌ. . ولكنّ الذي نعرفه أن والد عزّ الدين قد توفي قبل أن يغادر عزّ الدين جبلة. فقد نقل الدكتور حسين حمادة أن القسّام عمد إلى رَدْع أنصار الطريقة (القادريّة) في العراق من القدوم إلى جبلة، لزيارة أضرحة والده وجده وشقيق جدّه، فذكر (والده) أي والد القسّام ممن لهم أضرحة في جبلة. يدل على أنّ والده عبد القادر توفي قبل الغزو الفرنسي للساحل.

٣ ـ هل هاجر القسَّامُ إلى فلسطين هارباً خائفاً، أم هاجر مجاهداً؟

الجواب: إن مُجمل حياة القسّام يدلُّ على أن عزّ الدين القسّام لم يكن هارباً من الموت عندما قرّر الهجرة إلى فلسطين، وإنما هاجر وفي نيته أن يتابع الجهاد عملاً بقوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [الأنفال: ١٥ ـ ١٦]، وقوله تعالى: ﴿مُتَحَرِّفًا﴾ أي: منعطفاً، وهو الكرُّ بعد الفرّ، ليخيَّلَ لعدوه أنه منهزم، ثم يعطف عليه، وهو باب من خِدَع الحرب ومكايدها.

وقوله تعالى: ﴿مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ﴾ أي: فرَّ من ها هنا إلى فئةٍ أُخرى من المسلمين يعاونهم ويعاونوه. وفي غزوة مؤتة أنّ النبيَّ ﷺ

نعى زيداً، وجعفراً، وابن رواحة للناس قبل أن يأتيهم خبرُهم، فقال: «أخذَ الرايةَ زيد فأصيبَ، ثم أخذَها جعفر فأصيبَ ثم أخذها ابن رواحة فأصيبَ، ـ وعيناه تذرفان ـ حتى أخذَ الرايةَ سيف من سيوف الله، حتى فتح الله عليهم»[1]، والمعروف أن خالد بن الوليد هو سيف الله، وقد انحازَ بالمسلمين حتى رجعوا سالمين.

فقال رسول الله: «حتى فتح الله عليهم»، فعدَّ انحياز المسلمين فتحاً لأنّ متابعة القتال فيه مهلكةٌ لجميع المسلمين، حيث كان عدد المسلمين لا يزيدُ على ثلاثة آلاف، وعدد الروم ومَنْ والاهم يقارب مئة ألف.

وعزُّ الدين ترك القتال في الساحل السوري ـ جبال صهيون ـ لأنَّ العدوّ تكاثر عليهم بعدده وعُدّته، وانقطع المددُ وفرَّ إمام البلاد[2]، أو استسلم للعدوّ. وقد حمل المجاهدون السلاح في الشمال والساحل لمناوشة العدوّ، وتبديد قوته، وإضعافها، ليتمكن الإمام في العاصمة من تدبير الأمور، وإعداد العُدّة الكبيرة للإجهاز على العدوّ.

ولم يكن الناسُ في ذلك الوقت أُعِدّوا الإعداد الروحي والعسكري لمجابهة الأعداء، ففاجأتهم فرنسة وهم يعيشون في وهم الدولة العربية

---

(١) البخاري / ك/ ٦٤/ ب/ ٤.

(٢) الملك فيصل بن الحسين. (الناشر)

الكبرى التي وعدهم بها الحلفاء.

والدليل على أنَّ القسَّام هاجر إلى الله مجاهداً، أنه أَخَذ يُعدُّ الناس للجهاد من أول يوم وصل فيه إلى حيفا، فكانت خطبه المسجدية في الثقافة الجهادية، وكان في نشاطه المدرسي يوجِّه الأطفال إلى الجهاد، ويعدُّهم للمعركة الفاصلة.

٤ ـ حيفا دار الهجرة:

لماذا طاب للقسم المقام في حيفا؟ ولماذا اختارها مركزاً لدعوته؟ وما الذي شده إليها؟ وهل اختار القسامُ حيفا، أم اختارته وجذبته إليها؟

الجواب في المجمل التالي، لتاريخ حيفا وجغرافيتها: حيفا مدينة ساحلية في الطرف الشمالي للسهل الساحلي الفلسطيني، وميناءٌ على البحر المتوسط، وهي ذات موقع جغرافي هام. فالمدينة نقطة التقاء البحر المتوسط بكل من السهل وجبل الكرمل، وقد جعلها البحر أكبر الموانيء في فلسطين، وفي ما بعد أكبر الموانئ في المشرق العربي، وجعلها السهلُ منطقةً زراعيةً منتجة لجميع محاصيل البحر المتوسط، وأما جبل الكرمل فأكسبها منظراً بديعاً، ومناخاً معتدلاً.

وأول من سكن منطقة حيفا في عصور التاريخ هم العرب الكنعانيّون الذين عمروا المنطقة وَبنووا حيفا، على بُعْد كَيلين جنوب حيفا الحالية. وعند شواطئ حيفا نشبت معركة بين الفلسطنيين والمصريين الفراعنة، في

عهد رمسيس (١١٩١ق م) امتلك بَعْدها الفلسطينيون الساحل من غزة إلى الجليل.

ويذكر (الإنجيل) أنَّ السيد المسيح ـ عليه السلام ـ وطئ أرض حيفا حين مرَّ بهامع أمه مريم في طريقه من مصر إلى الناصرة، وقد اتبع الطريقَ الساحلية هرباً من أذى الحاكم الروماني.

وعندما حرر العربُ المسلمون فلسطين، وطردوا الرومان، كانت حيفا خاملة الذكر، فلم يرّد اسمُها في البلدان المحرّرة. وجاء أقدم ذكرٍ لها في المصادر الإسلامية في القرن الخامس الهجري (٤٥٢هـ ـ ١٠٦٠م) حين وصفها ناصر خسرو في (سفرنامة) ثم ذكرها الإدريسي (٥٦٠هـ) وياقوت الحموي (٦٢٦هـ)، واستولى عليها الصليبيون عام ١١٠٠م، واسترجعها صلاح الدين عام ٥٨٢هـ ـ ١١٨٧م، ثم عادت إلى الصليبيين عام ١١٩١م. . ثم حررها الملك الأشرف خليل بن قلاوون عام ١٢٩١م. وخوفاً من استعادة الأعداء لحيفا أوقع حكام المماليك الخراب بها وبغيرها من المدن الساحلية. وقد وصف القلقشندي المتوفى سنة ٨٢١هـ ـ ١٤١٨م، مدينة حيفا في (صبح الأعشى) فقال: وهي خراب على الساحل.

وكانت (حيفا) خلال العهد المملوكي جزءاً من عمل الَّلجُّون، الذي كان تابعاً لصفد، والقاعدة الخامسة من قواعد المملكة الشاميّة.

وانتقلتْ حيفا إلى العثمانيين في عهد سليم الأول ٩٢٢هـ ـ

١٥٢٢م، وقد أُشير إليها في مطلع العهد بأنها قرية من ناحية ساحل (عتليت) الغربي التابع للواء اللجوّن، أحد ألوية ولاية دمشق الشام.

وفي منتصف القرن الثامن عشر خرّب الشيخ ظاهر العمر حيفا القديمة، وبنى عند نهاية الخليج بلدة سمّاها العمارة الجديدة، ثم غلب عليها اسم (حيفا الجديدة) وأقام فيها برجاً، وبنى حولها سوراً، وشيّد أبناء الشيخ ظاهر الجامع والسراي. وظلت حيفا حتى القرن التاسع عشر قرية قليلة الشأن، بلغ عدد سكانها أربعة آلاف نسمة، ولكنها أخذت بعد ذلك تنمو سريعاً، وبدأ كثير من الأجانب يقصدونها، للاستيطان والعمل، أو للنشاط (التنصيري) وقد سُمِح لقرابة مئة عائلة ألمانية من فرسان الهيكل (الداويّة)[1] بالنزول في أرض حيفا، وأقاموا في حيٍّ خاصٍّ بهم في الشمال الغربي من المدينة، وبلغ عددهم أواخر القرن التاسع عشر نحو (٨٠٠) نسمة.

---

(١) الدّاويّة: منظمة صليبية تأسست سنة ٥١٣ هـ ـ ١١١٩م، فجمعت بين الرهبنة والجنديّة. وعُرف أعضاؤها باسم (فرسان المسيح الفقراء) أو (فرسان الهيكل)، وسمّاهم العرب (الدّاويّة)، وقد حققتْ هذه المنظمة حاجة الكنيسة إلى المقاتلين في الغزو الصليبي لبلاد الشام ومصر.
وورد ذكر الدواية في معارك (عسقلان) وغزة، والداروم، والرملة، ودمياط، والمنصورة، واشتهر فرسان الدّاويّة بتعصبهم، وشراستهم في الحرب.
وفي سنة ١٨٩٨م زار حيفا ـ في طريقه إلى القدس ـ إمبروطور ألمانية (غليوم الثاني)، ودخل القدس بوصفه أحد فرسان الداويّة، ورفض أن يدخل من أبواب القدس المعروفة، فأمر السلطانُ عبد الحميد بفتح بابٍ خاص لدخوله.

وتاريخ حيفا المعاصر بدأ من اليوم الذي تحرك فيه قطار الحجاز سنة ١٩٠٥م عندما ربطها بدمشق والحجاز. وكذلك أحد أيام ١٩١٨م عندما أوصل إليها الجيش البريطاني أول قطار من مصر.

ومن أيام حيفا ذات التأثير الفعّال في اقتصادها أحد أيام سنة ١٩٣٣م عندما فتح مدير شركة بترول العراق أنبوب الزيت، وصبه في مستودعاتها لأوَّل مرّة، ويوم آخر من أيام الزيت عندما بدأت معامل التكرير عملها لتزويد الشرقين الأدنى والأوسط بالبترول.

ومن أيام حيفا المؤثرة يوم ٣١/ ١٠/ ١٩٣٣م حيث افتُتح ميناؤها الحديث، ليكون ثاني ميناء على البحر المتوسط بعد ميناء مرسيلية، وأصبحَ هذا الميناء الشريان الحيوي لفلسطين والأردن، وسورية، والعراق، وإيران، وغيرها من الأقطار الآسيوية.

وبالجملة فإن حيفا كانت ميناء جزيرة العرب، وبلاد الشام، والعراق.. فهذه العوامل رفعَت شأن حيفا، ووسّعت نطاق تجارتها وصناعتها، وساعدت على النمو، وجذبت إليها العمال العرب من سائر بلاد الشام ومصر، ولذلك كان (جُنيه) حيفا يداعب خيال كل طموح، وبخاصة التاجر السوري الذي نجح نجاحاً باهراً في مزاحمة اليهود تجارياً.

وبهذا كانت حيفا مركزَ العمل والعمّال في فلسطين، وفيها نهضت

حركتهم فأنشؤوا جمعيةً منظمةً، وصناديق توفير، وجمعيات تعاونية، ضمت أصحاب مهن في البلاد. ومما يُلفت النظر أنَّ أكثر هؤلاء العمال كانوا من المتمسّكين بالدين، المحافظين على حضور دروس الوعظ والإرشاد في مساجدها، وفي حلقات دروس العمال هذه استطاعَ الشيخ عزّ الدين القسّام أن يقوم بعملٍ لم يكن في الحسبان.

ففي سنة ١٩٣٤م قال له عاملٌ من عمّال الميناء، عندما استمع الى درس الجهاد: «هل سمع (سيدنا) بحكاية البراميل التي اكتشفت مصادفةً، وهي مملوءَة بالأسلحة الفتاكة التي يهرّبها اليهود ليومهم الموعود»؟

فانتفض الشيخ وابتسم، وفي العشرين من تشرين الثاني ١٩٣٥م نشرتْ الصحفُ خبراً هزّ العالم العربي يقول: إنّ الشيخ القسّام يلبسُ الكوفية والعقال و(البنطال) الكاكي والسلاح هو ورجاله، ويتدربون في غابات (يَعْبُد) بقضاء جنين، استعداداً للجهاد. فكانت هذه الثمرة الحيفاوية باكورة الجهاد الفلسطيني، وهي الفكرة التي أصلحت مسار العمل العسكري، بل أوجدته.

وكانت حيفا ملجأً لعدد كبير من الفلاحين، الذين نزحوا اليها بعد الاستيلاء على مزارعهم في مرج ابن عامر، ليعملوا في شركات السجائر، وسكة الحديد، وفي الميناء.

وفي حيفا القديمة كان هناك عشرات الألوف من الفقراء الذين

يعيشون في بيوت من الصفيح بَعْدَ أن سُلبتْ قُراهم. وكان هؤلاء الفقراء أصدقاء الشيخ القسّام، وموضعَ ثقتِه، وكان لهم دورٌ رئيس في مراحل الجهاد التالية.

وكانت حيفا قاعدةً من قواعد التهويد[1]، وقاعدة لسلطات الانتداب البريطاني، الذي جعل من حيفا قاعدةً لأسطوله، ونصب فيها المدافع، وشيّد القلاع على جبالها وضواحيها، وحصل فيها مخازن للقنابل والقذائف والأسلحة.. فكانت قوّة الانتداب مُخْتَزَنَةٌ في حيفا، ومعروضَةٌ على جبالها وفي بحرها.

٥ـ الحالة الاجتماعيّة والسياسية في فلسطين من ١٩٢١ـ١٩٣٥م:

أ ـ العصبيّة هي السمة الغالبة على الإقليم الفلسطيني في مُدنه، وقراه، وباديته. والتعصُّب، أو العصبيّة، أن يدعو الرجل إلى نُصرةَ عَصَبتِه، والتألب معهم على منْ يناوئهم، ظالمين كانوا أو مظلومين.

---

(١) وهذا إحصاء يبيّن عدد السكان منذ بداية الانتداب إلى سنة ١٩٤٥م.

السنة	١٩١٦م	١٩٢٢م	١٩٣١م	١٩٤٥م
عرب	٩٥١٣	١٨٤٠٤	٣٤٥٦٠	٦٢٨٠٠
يهود	٣١٤	٦٢٣٠	١٥٩٢٣	٦٦٠٠٠
نسبة العرب	٪٩٦	٪٧٤,٧	٪٦٨,٤	٪٤٨,٧

والعَصَبة ـ بفتح العَين والصاد ـ الأقارب من جهة الأب، لأنهم يعصّبونه، ويعتضد بهم، أي: يحيطون به، ويشتدّ بهم. ولكنّ هذا المعنى قد اتسع فيما بَعْدُ وصارت العصبيّة تثورُ لأسباب أُخرى. وفي الحديث: «العصبيُّ من يعين قومه على الظلْم».

وفي الحديث أيضاً: «ليس منّا من دعا إلى عصبيّة، وليس منّا من قاتل على عصبيّة». والعصبيّة نتاج الجهل والفقر، والجفاء، والأثرة، ويجمعها كلها، غياب الوازع الذي يحضّ الناس على عمل الخير، لثواب يلقونه في آخرتهم، وهو الوازع الديني.

والعصبية قديمة في بلاد العرب، فقد كانت قوام الحياة في الجاهليّة، ثم جاء الإسلام فأماتها، وأحلَّ محلها الأخوَّة الدينية، ثم بُعثت في القرون التالية في صور كثيرة، فكان منها العصبية الإقليميّة، فقالوا: هذا حجازيّ، وهذا عراقي، وهذا شاميّ، وتعصَّب كلُّ قوم لإقليمهم. وفي داخل الإقليم ظهرت العصبية المدنية والقروية، فقالوا: هذا مكي، وهذا مدني.. وهذا كوفي، وهذا بصري.

وكان منها العصبية العلميّة: فظهرت الكوفيّة، والبصريّة في النحو، وتعصب كل أهل إقليم لإقليمهم. ومن العصبيّة العلميّة: التعصب للمذهب الفقهي فهذا حنفيّ، وهذا شافعيّ، وهذا مالكي، والآخر حنبلي، والخامس زيدي.

وفي كل صورة من صور التعصب شيءٌ من الباطل يتجمّع

المتعصبون حوله: فكثير من المسلمين يتعصبون للإسلام الذي ورثوه عن آبائهم، وهم يجهلون أركانه، ولا يؤدّون فرائضه، بل سننه، وينسبون إلى الدين ما ليس منه. والمسيحيون العرب يتعصّبون حول دينهم، وكثير منهم لا يعرف مكان كنيسة بلدته، ويفعلون ما ينكرُه (كتابهم المقدس).

ويتعصب السُّنّيُّ لأهل السنَّة، وهو يجهل سير الصحابة والتابعين فتلوك ألسنتهم أقاويل موروثةٍ لا تتصل بالسُّنّة النبوية.

ويتعصّب الشيعيّ للشيعة بناءً على مقولات موروثة منسوبة إلى الإمام عليّ وبنيه وأحفاده، وهم بريئون منها..

ب ـ فالعصبيات كلُّها ذات جذور قديمة، وليست من صنع الاستعمار والصهيونية كما يزعم الزاعمون. ولكن الاستعمار قد دَرَسَ تاريخنا، وعرف مكمن الدّاء، فحرّك هذه العصبيات، وزادها اشتعالاً، وأوجد صوراً جديدة، ليستْ بعيدة عن العصبيات القديمة.

ففي بلاد الشام، ومنها فلسطين، سادت فيها (القيسيّة) و(اليمنيّة) زمناً طويلاً. فانقسم الناس إلى فرقتين. قال المقريزي: عشيرة الشام فرقتان: (قيس) و(يمن) لا يتفقان، وفي كل قبيلٍ يثور بعضهم على بعض. وأدّت هذه العصبية الى خصومات كلفت البلاد دماءً كثيرة وأثّرت في الحياة الاجتماعية الاقتصادية تأثيراً رجعياً، بل تأثيراً تخلفيّاً، أقعد البلاد عن الإنتاج، وأضعفَ السكان فلم يستطيعوا مقاومة الغُزاة المعتدين. ومع الزمن تطورت هذه العصبيات، واتخذت صورة منازعات محلية

وانقسامات إقليمية، وصارت تحزّبات خاصة بأغراض ليس لها علاقة بنسبٍ أو عصبية، فقد يتعصب مَنْ كان أهله يمنيين مع القيسيّ النسب، إذا اتفقت أهدافهما، وذلك للتغلب على الخصوم.

وقد امتدت (القيسيّة) و(اليمنيّة) في فلسطين الى منتصف القرن التاسع عشر، وكانت آخر صفحة من صفحات هذه العصبية في الديار النابلسيّة، عندما قامت الحروب بين (آل طوقان) و(آل عبد الهادي) فكان الأولون يمثلون اليمانيين والآخرون يمثلون (القيسيين). ولكن الحكومة العثمانيـة رأتْ أن تخمد هذه العصبيـات، لتثبت وجودهـا وحكمهـا، فأرسلت جندها إلى جبل نابلس، وهاجمت (عرّابة)[1] معقل أسرة عبد الهادي ودمرتها، فكانت معركة (خروبة) وخراب (عرّابة) سنة ١٨٥٩م نهاية حروب قيس ويمن في هذه البلاد، بوصفها القديم.

جـ ـ وقد أثّرتْ صفة العصبية ـ على شكل من أشكالها ـ في الحياة السـياسية. ودخل العربُ الفلسـطينيون المعركـة، وهـم يحملـون في صدورهم عصبيات شتّى، منها القديمُ الذي حركه الانتداب البريطاني لتوهين العزّائم وتفتيت القوى، ومنها الجديد الذي اخترعته السياسة البريطانية لتفتيت المجتمع وإشعال العداوة بين طبقاته.

فقد أشعلوا نار العداوة والعصبية بين الفلاح والمدنيّ، وأوحوا

---

(١) عرّابة: قرية تبعد ثلاثة عشر كيلاً جنوب غرب جنين.

بتأليف حزبٍ للدفاع عن الزّراع باسم (الحزب الزراعي) يحمل في باطنه فكرة التفريق بين المدينة والقرية، والمدني والفلاح القروي، لزعمهم أنّ المدني يضطهد الفلاح ويحتقِره. أما حقوق الفلاح على الإقطاعي، وحقوقه على الحكومة المنتدبة، فليست من اختصاصات الحزب، وأماالأراضي التي يُطرَدُ الفلاح منها بحراب الإنكليز فليس للحزب أن يتكلم فيها.

وقامت الأحزاب السياسّية متصلة بالعائلات والوجاهات، وكان بأسهم بينهم شديداً، لأنها قامت على أساس معارضة بعضهم بعضاً، ولم تقم لمعارضة سياسة الانتداب البريطاني.

د ـ وكانت مناهج السياسيين المتزعمين تقوم على عَقْد المؤتمرات، وإجراء الاتصالات مع المندوب السامي، وقيادة المظاهرات، وإلقاء الخُطب الحماسيّة، وإرسال الوفود، ولم يكن في برنامج حزبٍ، أو في سياسة زعيمٍ، الحصول على الاستقلال بالدعوة الى الجهاد، أو التلميح باستخدام القوَّة.. وإنما كانت سياستهم ترمي الى الحصول على الاستقلال بالمفاوضات.

هـ ـ ولعلّ خير ما يؤرِّخ لحال العصبيّة، والشقاق، أبيات لإبراهيم طوقان من قصيدة رثى فيها الشيخ سعيد الكرمي حيث يقول سنة ١٩٣٥م:

ليتَ قومي تخلّقوا بكريم الخُلْقِ   هــذا عِنْــدَ الخِصَــام الشــديــدِ

مـا أشـدَّ افتقـارنـا لسمـوِّ الخُلْـق فـي هـذه الليـالـي السُّـودِ
مـا لكـم بعضُكـم يمـزِّق بعضـاً أَفَـرغْتـم مِـنَ العَـدوِّ اللَّـدودِ
اذهبوا في البلادِ طولاً وعرضاً وانظروا ما لِخَصْمِكم من جُهُوْدِ
شـادَهُ فـوق مجـدكـم وبنـاه مشخمـرّاً علـى رُفـاتِ الجـدودِ
كـل هـذا استفـاده بيـن فـوضـى وشقـاقٍ وذِلَّـةٍ وهجـودِ
واشتغـال بـالتُّـرَّهـات وحُـبِّ الـ ـلذات عـن نـافـع عميـمٍ مجيـدِ

ويؤرِّخ للأساليب السياسية المتّبعة قوله أيضاً في أسلوبٍ ساخرٍ يخاطب الزعماء:

أنتـم المخلصـون للـوطنيّـه أنتـم الحـاملـون عـبء القضيـه
أنتـم العـاملـون مـن غيـر قـولٍ بـارك الله فـي الـزنـود القـويّـه
(وبيـانٌ) منكـم يعـادل جيشـاً بمعـدّاتِ زحفـه الحـربيّـه
(واجتمـاعٌ) منكـم يـردُّ علينـا غـابـر المجـد مـن فُتـوح أُميّـه[1]
وخـلاص البـلاد صـار علـى الـ ـبـابِ وجـاءَتْ أعيـاده الـورديّـه
ما جحدنا (أفضالكم) غير أنّا لـم تـزل فـي نفـوسنـا أُمنيّـه
فـي يـدينـا بقيـةٌ مـن بـلادٍ فـاستـريحـوا كيـلا تطيـرَ البقيّـه

وقال أيضاً: سنة ١٩٣٣م:

---

(١) أي أن اجتماعات هؤلاء الزعماء سترد كل ما فقده المسلمون من أرض في مشارق الأرض ومغاربها كالأندلس وغيرها. (الناشر)

أنتــم رجــالُ خطــابــاتٍ منمقــة كمـا علمنـا وأبطـالُ احتجـاجـاتِ
وقد شـبعتم ظهوراً في مظاهـرةٍ مشـروعـةٍ وسكـرتـم بـالهتـافـات
أضحتْ فلسطينُ من غيظٍ تصيح بكم خلّـوا الطريق فلسـتم من رجالاتي

٦ ـ وظائف القسّام في حيفا، وأساليبُ العملِ، والأهداف:

قررت فيما سبق أنّ عزّ الدين القسّام هاجر إلى فلسطين وفي نيّته الجهاد، ووصل إلى حيفا، وقد شارف على الأربعين من عمره، وفي جعبته تجارب جهاديّـة، وخبرة في قيـادة الجمهور، ومارس أسـاليب الدعوة، وحذق فنّ الخطابة، واستخلص أنجح الأساليب في مخاطبة الجمهور، واستنبط الطرائق التربويّة لتعليم الأطفال والشباب والشيوخ، وعرف أساليبَ الدعوة السريّة والعلنية.

ونقل تجربته من بيئة جَبَلَة وجبال صِهْيَون إلى حيفا وضواحيها. فكان بين البيئتين تشابهٌ أو تماثلٌ، أو اتحادٌ في التاريخ والواقع الاجتماعي، وفي البيئتين صادفَ القسّـام فراغاً في القيـادة، التي يتطلّع إليهـا جمهور الناس، لتروي ظمأهم، ويجدون فيها المثل الأعلى، الذي تمتد جذوره إلى أيام التاريخ الإسلامي المجيد، ولهذه الخصائص كلها، فإن القسّام وجد إقبالَ الناس عليه من أول يوم وطئت قدمه أرض حيفا، وأحسّ أن القوم كانوا ينتظرون قدومَه، فألقوا إليه مقاليد أمورهم. فكان القسّام كما قيل:

أتتـه (الـزعـامـة) منقـادة إليـــه تجـــرِّرُ أذيـــالهـــا
فلـــم تـــكُ تصلـــحُ إلا لـــه ولـــم يـــكُ يصلـــح إلا لهـــا

وقد جاءَته الوظائف التوجيهية متتابعةً، وكأنها كانت في انتظاره، فما الوظائف التي أسندتْ نفسها إليه؟.

أـ عزّ الدين القسّام معلماً[1]:

بعد أشهر من قدوم عزّ الدين إلى حيفا عمل مدرساً، أوائل عام ١٩٢١م أو سنة ١٩٢٢م[2] في مدرسة الإناث الإسلامية أولاً، وفي مدرسة البرج الإسلاميّة ثانياً، وهاتان المدرستان تشرف عليهما الجمعية الإسلاميّة في حيفا[3]، وكان متوسط أجره يتراوح ما بين أربعة جنيهات وخمسة جنيهات.

---

(١) معلماً: حال من المبتدأ (عزّ الدين) والخبر محذوف تقديره: عزّ الدين موضوع الفقرة ويجوز القول: عزّ الدين معلمٌ، فيكون خبراً، ولكن الحال هنا أقوى من الإخبار.

(٢) ظهر من وثيقة سابقة أنه كان يعمل مدرساً يوم ٥/ ٤/ ١٩٢١م. ولكن عمل في مدرستين: إحداهما للذكور، والأخرى للإناث. وربما تأخر في إحدى المدرستين إلى سنة ١٩٢٢م.

(٣) أُنشئت (الجمعية الإسلامية) بعد احتلال الإنكليز لمدينة حيفا، وكانت تشرف على الأوقاف الإسلاميّة في المدينة، ومنها المساجد.

ويروي تلاميذ القسَّام في هذه المدرسة، أنه كان يجمع بين المنهج الدراسي والتوجيه التربوي المناسب لحال المسلمين، فاستخدم المسرح المدرسي لغرس روح الجهاد في نفوس الناشئة، واختار موضوعات أبطالها من قوّاد الجهاد في التاريخ الإسلامي، كما اختار المعارك الفاصلة في تاريخ الجهاد.. فمثَّل الطلاب سيرة صلاح الدين الأيوبي، ومعركة حطين، وعين جالوت.

وحرص القسَّام على التوجيه المهني للطلاب، فوجّه الطلاب إلى ما يناسب قدراتهم التي وهبهم اللهُ ويسأل التلاميذ عن أمنياتهم المستقبليّة، ويفتح أمامهم آفاق المستقبل ليختار الطالب ما يوافق ميوله[1].

---

(١) وقد دعا علماءُ التربية الإسلامية إلى منهج (التوجيه المهني) في وقت مبكر، فقال ابن قيّم الجوزية المتوفى سنة ٧٥١هـ في كتابه (تحفة الودود بأحكام المولود): ومما ينبغي أن يعتمد، حال الصبيّ، وما هومستعدٌ له من الأعمال، ومهيأ له منها، فيعلم أنه مخلوق له، فلا يحمله على غيره ما كان مأذوناً فيه شرعاً، فإنه إنْ حمل على غير ماهوَ مستعدٌ له لم يفلح فيه، وفاته ما هو مهيأ له. فإذا رآه حسن الفهم، صحيح الإدراك، جيد الحفظ، واعياً، فهذه علامات قبوله وتهيؤه للعلم.. وإن رآه بخلاف ذلك من كلِّ وجه وهو مستعد للفروسية وأسبابها، وأنه لا نفاذ له في العلم، ولم يُخلق له، مكنه من أسباب الفروسية، فإنه أنفعُ له وللمسلمين.. وإن رأى عينه مفتوحة إلى صنعة من الصنائع، مستعداً لها قابلاً لها، وهي صناعة مباحة نافعة للناس فليمكنه منها.. هذا كلُّه بعد تعليمه ما يحتاج إليه في دينه..».

ولكنّ القسّام كان ينبّه في نفوس تلاميذه عنصر القوّة، وخلق الشجاعة، وروح الجهاد فالبلاد واقعةٌ في قبضة الأعداء، وحالها يُؤْذن بزوال مُلك المسلمين عنها ويجب توجيه الطاقات نحو (الجهاد). .

وإذا كانت البلاد لا تستغني عن الزارع والنجار والحداد والتاجر، فإن هذه الصناعات توجَّه إلى ما يُسمّى (اقتصاد الحرب) ويجب على العاملين في هذه الصناعات أن يُلمّوا بالحدّ الأدنى من التدريب الحربي الذي يحتاجه المجاهد.

فعندما قال أحد التلاميذ: «إنه يريد أن يصبح قائداً مسلماً يعمل في سبيل الله» شجعه تشجيعاً لفت أنظار الطلاب إليه، وبات التلاميذ يعتقدون أن الشيخ من دعاة الجهاد، فإن الجهاد هو السبيل الوحيد لطرد الإنكليز من فلسطين.

قال الراوي: «وكان القسّامُ قليل الكلام، هادئاً، لا يستخدمُ العُنْفَ في التدريس، خلافاً لما يتَّبعه المعلمون في زمنه، وكان يحمل عصا، ولكنه لا يضربُ بها».

وقوله: «كان القسّامُ قليل الكلام» يعني هذا أنه كان يستخدم الأسلوب الحواريّ في التدريس وأن الطلاب كانوا يحبّون درسه، فيُعدّونه قبل الحضور إلى المدرسة.

وقوله: «وكان يحمل العصا ولا يضرب بها» لأن العصا لمن

عصا، وتلاميذ القسّام لا يقصرون في أداء واجبهم المدرسي، و هم يقبلون على حصته بشغف.

فقد روى الشيخ عبد الرحمن مراد، أحد تلاميذه في مدرسة البرج، أنّ القسّام كان يدرسهم مادة التربية الإسلاميّة.

وهي أقرب ما تكون إلى نفوس التلاميذ، إذا تولىّ تدريسها عالمٌ مجربٌ خبير بواقع المجتمع والأُمّة، حيث يحوّل المادة إلى سلوك عمليّ، يتطبع به التلاميذ حتى يغدو طبعاً وسلوكاً.

ولم تكن الدراسة في مدرسة (البرج) الإسلامية مجانيّة، و لكن الجمعية كانت تختار عدداً من الطلاب الأيتام والفقراء للدراسة مجاناً في المدرسة.

وفي سنة ١٩٢٤م، ضُمّنتْ، أو أُجّرت المدرسة للشيخ كامل القصّاب.

فقال الرواةُ: إن القصّاب تصرّف بمفهوم تجاري، فألغى المقاعد المجانية الممنوحة للأيتام والفقراء، تحت شعار (مَنْ لا يدفع لا يتعلم).

فتظاهرَ الناسُ مستنكرين هذا الأسلوب، فتوسط أهل المروءة في الموضوع ولكنّ أقطاب الجمعيّة لم يتراجعوا[1]، وكان رئيس الجمعيّة

---

(١) إن صحّت هذه الرواية، فإنها تدل على أنّ وصف الجمعية بالإسلامية، وصف=

الثريّ المشهور الحاج خليل طه. ومن أعضائها التاجر المشهور رشيد الحاج إبراهيم.

عندئذ بحث الناسُ عن سبيل أُخرى، فتنادوا لتشكيل (جمعية التعليم والإرشاد الإسلامية).

ولكنَّ القسّام لم يترك مدرسة البرج عندما تولّى أمرها الشيخ كامل القصّاب، فعمل مع القصاب عام ١٩٢٥م، ثم ترك العمل في المدرسة. و ذكروا لتركه العمل في مدرسة البرج أسباباً، منها: أن الشيخ القصاب ـ مُتعهّد المدرسة ـ كان ينفرد في اتخاذ القرارات التربوية، ولا يشاور زملاءَه في التخطيط. ورفض القسّام بخاصة منهج القصّاب المعتمد على العنف في معاقبة الطلاب. وأراد القصاب إلغاء الحركة الكشفية في المدرسة، فأدّى ذلك إلى استقالة أكثر أعضاء الهيئة التدريسيّة.

ومنها: أنَّ القسّام انشغل مع المجاهدين، مما أدّى إلى تأخُّره عن مواعيد الحضور اليومي الى المدرسة، فاضطر الى الاستقالة، لأن القصّاب أصرَّ على المحافظة على المواعيد، ولم يلتمس عذراً للقسّام.

ويرى الشيخ محمد الحنفي أن القسّام استقال من المدرسة، لأنها

= تجاري، الهدف منه استغلال عواطف الجمهور، لتكثير عدد الطلاب. ومازال التجار يصفون مؤسساتهم العلمية والطبية بالإسلاميّة، والإسلام بريءٌ من أسلوب تعاملهم مع الجمهور.

تُلزمه بدوام مستمرٍ لا يتوافق مع صِلاته و نشاطاته المتواصلة في اليوم حتى الثانية عشرة ليلاً.

ويبدو أن السبب الأول هو الأقوى، فقد أحسَّ القسّام أنه لايستطيع أن يحقق هدفه من تدريس التلاميذ مع استبداد القَصَّاب في التوجيه والتخطيط، ذلك أن القَصّاب هاجر الى فلسطين تاجراً، ولم يهاجر للجهاد[1].

أما انشغال القسّام مع المجاهدين، فهو سبب غير وجيه، لأن العمل في المدرسة يكون نصف النهار الأول، و في هذا الوقت يكون الناسُ منهمكين في أعمالهم الرسميّة وبخاصة طبقة العمّال، الذين كانوا يكوِّنون السواد الأعظم من أتباع القسّام.

ثم إنّ العمل في المدرسة من المجالات الخصبة لغرس حبّ الجهاد والاستشهاد في نفوس الناشئة.. وأما كون القسَّام كان يتأخر عن الحضور إلى المدرسة، فهو سبب مرفوض، لأنه ينافي حياة القسَّام اليومية التي تبدأ مع صلاة الفجر.

ويتبع هذه الوظيفة (وظيفة التدريس) إعطاء دروس للعمال في الكتابة والقراءَة (محو الأميّة)، وذكر بعضهم أن القسَّام أسس مدرسة

---

(١) بدأ القصَّاب حياته بالاتجار في العلْم، وكانت له (المدرسة الكاملية) في دمشق.

لتعليم الكبار القراءة والكتابة. ويبدو أنه لم يكن لهذه المدرسة مقرّ، فكان أيام عمله في مدرسة البرج يجمع العمال في المدرسة، بعد صلاة الفجر، ثم انتقلوا من المدرسة إلى مسجد الاستقلال. وكان يبثُّ من خلال دروس القراءة والكتابة الروح الجهاديّة.

ب ـ الإمامة والخطابة، والتوجيه والإرشاد:

كان في حيفا أربعة مساجد أو جوامع:

الأول: جامع الجرينة الكبير، أو جامع النصر أيضاً، وهو الجامع القديم الذي بناه أبناء ظاهر العُمَر. وكان يُطلُّ على البحر قبل إنشاء الميناء الجديد. وهو جامع المدينة الرئيس، وما يزال قائماً.

والثاني: جامع الاستقلال: جامع واسع، بُدئ بعمارته في أوائل العشرينات وتمَّ افتتاحه سنة ١٩٢٥م. وسدّ فراغاً كبيراً في المدينة عند إنشائه، وأصبح منبراً للحركة الوطنية، ومشعلاً للتوجيه والإرشاد. وكان لمفتي حيفا، محمد مُراد يدٌ في إنشائه ورعايته، وتأمين الموارد المالية للنفقة عليه، وقد ساهم كثير من أبناء المدينة في البناء بأيديهم وأموالهم[١].

---

(١) زعم إحسان النمر في كتابه (قضية فلسطين في دورها البلدي)، ص١٤٨، أن الذي تولى بناء مسجد الاستقلال، هو كامل القصّاب. وفي هذا الكلام نظر. فإن الشيخ عبد الرحمن مراد وهو حيفاوي، معاصر لإنشاء المسجد، ذكر أن=

الثالث: جامع الحاج عبد الله أبو يونس في حيّ الحليصة بحيفا، ولا يُعرف زمنُ بنائه.

الرابع: الجامع الصغيـر الذي كان في بدايـة السوق، بين جامع الاستقلال وجامع النصر.

وقد هدمـه اليهود سـنة ١٩٤٨م، ثم قـام من تبقى في حيفـا من المسلمين ببنائه.

وكانت بداية اتصال القسّام بأهل حيفا، ومعرفة أهل حيفا القسّام في جامع الجرينة.

ففي يوم جمعةٍ من سنة ١٩٢١م، انتقل القسّام من المحطة الأولى ـ عكا ـ إلى حيفا وصادف وصولـه عصر يوم جمعة، وأدّى القسَّـامُ وأصحابه صلاة المغرب في جامع الجرينة حيث تطوع الشيخ القسّام، فألقى موعظة ـ بعد صلاة المغرب ـ لفتتْ أنظار الحاضرين إليه، وبدأ الناس يتساءَلون: مَنْ هذا الذي أسر القلوب ببيانه. إنهم لم يَرَوْه من قَبْلُ، ولم يطرق أسماع المسلمين مثلُ مواعظه قبل اليوم.

وبعْدَ أن أُذّن لصلاة العشاء، قُدِّم عزّ الدين القسّام ليؤم المصلين،

= المسـجد قام بتبرعات أهل الخير. وربما كـان المُراد من قـوله: «تولّى بنـاء المسجد» أي كان متعهد بناء المسجد بثمنٍ. فالقصاب زاول في حيفا أعمالاً كثيرة، وكانت تجارة البناء إحدى تجاراته.

فبكى في قراءَته، وأبكى الناس، وأخذ الخشوع منهم كلَّ مأخذ، فأدّوا فريضة تذوقوا فيها طعم الوقوف بين يدي الله.. وقبل أن ينقلب الناس إلى بيوتهم، أقبلوا على الإمام القسّام يصافحونه، ويدعونه إلى بيوتهم، ولكن قيِّم المسجد (عبدالله مسمار) فاز بتضييف القسّام وإخوانه.

ولم تنقطع علاقة القسّام بجامع الجرينة، فبقي يرتاده لأداء الفروض فيه، ويلقي مواعظه على جمهور المسلمين كلما حانت فرصة مواتية، وبخاصة بعد صلاة العصر، وبين العشائين. ولكن القسَّام شُهر وعُرف، وحقق الأهداف التربوية من خلال ثلاثة وظائف: الإمامة والخطابة في جامع الاستقلال. وريادة جمعية الشُّبان المسلمين، ووظيفة المأذون الشرعي، وسوف أخصُّ كلَّ وظيفة بشيء من التفصيل:

● الأولى - في جامع الاستقلال:

تولى الشيخ القسّام الخطابة في جامع الاستقلال، في السَّنة التي تمَّ فيها بناؤه (١٩٢٥م) وكانت شهرة الشيخ العلميّة قد سبقت بناء المسجد، فلما تمَّ بناؤه، وجدوا الشيخ القسّام خير مَنْ يقوم بالخطابة في هذا المسجد، وخصوصاً أنهم اختاروا له اسم (جامع الاستقلال) والاستقلال نتيجة لا تُدرك إلا بالجهاد، والجهادُ تسبقه التعبئة المعنوية.. والتعبئة المعنوّية تنطلق من المسجد حاملة معاني القدوة الخالدة في التاريخ الإسلامي.

وكانت رسالة الجهاد التي هاجر القسّام من أجلها، تشغل تفكيره، ويبحث عن الوسائل التي تحقق له هذا الهدف. فساق الله إليه جامع الاستقلال ليكون منبره لإيصال هذه الرسالة إلى الجمهور: فامتلك الشيخ أداة فعّالة استخدمها استخداماً ناجحاً لتحقيق خطته لإيجاد حركة جهادية. واستطاع بما أوتي من المواهب أن يجعل جامع الاستقلال، جامع المدينة الأول، يؤمّه المصلون من قرى قضاء حيفا، لأن أخبار خطته الأسبوعية يتناقلها الركبان، وتجري بعض جمله مجرى الأمثال، ولو وصلتنا نصوصُ خطبه كاملةً لكانت مدرسةً يؤخذ منها أصول الخطابة الناجحة، لأنها تضعُ اليد على مكمن الداء، وتترجم عن مكنونات قلوب المسلمين.

قال القدماءُ: وكان الناس يتشوقون إلى أوطانهم، ولا يفهمون العلة في ذلك حتى أوضحها ابن الرومي في قصيدة أرسلها لسليمان بن عبدالله يستعديهِ على رجل من التجار، أجبره على بَيْع دار، واغتصبه بعض جُدُرِها بقوله:

ولـي وطـن آليـتُ ألا أبيعَـهُ ... وألاّ أرى غيري له الدهرَ مالكا

وحُبِّبَت أوطان الرجال إليهم ... مآربُ قضَّاها الشباب هنالكا

إذا ذكروا أوطانَهم ذكَّرَتْهمُ ... عهودَ الصِّبا فيها فحنّوا لذلكا

فقد ألفتْه النفسُ حتى كأنَّه ... لها جَسَدٌ إن بانَ غودر هالكا

وقد عزّني فيها لئيمٌ وسامني ... فقال لي اجتهد فيَّ جهد احتيالكا

وما هو إلا نَسْجُكَ الشِّعر ضلّةً   وما الشعر إلا ضلةً من ضلالكا[1]

وعندما بدأ القسّام دعوتهُ، لم يكونوا يصدقون أن اليهود يمكن أن يخرجوهم من ديارهم وأرضهم، وتصبح البلاد خلاءً من أهلها، ولم يكونوا يصدقون أن الإنكليز يعملون على تحويل فلسطين إلى وطن قومي لليهود.. ولو ظهر أمام أعينهم ما يدل على ذلك، فإنهم لم يفكروا في الأسلوب الناجع لمنع حدوث الوطن القومي لليهود.. فقد كان الناس في سن الطفولة الغافية.. حيث مضى عليهم قرون وهم في هامش الدولة الإسلاميّة، بعد انقضاء عهود الجهاد الذي كان يشارك فيه المسلمون جميعهم.. أم في القرون التي سبقت المحنة المعاصرة، فلم يكن يؤخذ لأهل فلسطين برأي، ولا تُسْتَشَارُ مكنونات نفوسهم في قضايا الحرب والسلم، ولا يُسْتَشارون في كبيرة أو صغيرة.

لقد دُعوا إلى الجهاد عندما نشبت الحرب العالميّة الأولى، ولكنهم لم يعرفوا حقَّ الدعوة من باطلها. فقد دعا الخليفة العثماني محمد رشاد إلى جهاد الإنكليز، ولكن الخليفة يناصر الألمان (الكفار) أيضاً. وهل يدعو الإمام إلى الجهاد لمناصرة الكُفَّار؟!

ووجد الناس زعماءهم يعلنون الثورة على من أعلن الجهاد، وسماها بعضهم جهاداً، وسمّوا قتلى هذه الثورة شهداء. والذين سمّوا

---

(١) القصة والأبيات في زهر الآداب: ٢/ ٦٨٢.

الثورة جهاداً كانوا يناصرون الإنكليز، وقُتل مَنْ قُتل من العرب في نُصرة الإنكليز.

فأي الجهاديْن يَتَّبع الناس؟

ثم وجد الناس أصدقاء الأمس حلفاء العرب (الإنكليز) ينشبون مخالبهم في البلاد، وينقصون الوطن شبراً شبراً، يسلمونه إلى اليهود.. وبقي كثيرٌ من زعماء العرب في فلسطين والأقاليم الأخرى أصدقاء أوفياء للإنكليز.

وسمع الناسُ بأخبار المفاوضات والمؤتمرات التي يجريها زعماء من فلسطين، وكأنهم يقومون بالوساطة بين الإنكليز والشعب الفلسطيني، لإصلاح ذات البين، لأن الليونة والرقة والدماثة باديةٌ على أسلوب اللقاءات، وهذه الأخلاق تكون عند الإصلاح والتوفيق بين طائفتين من المؤمنين.

لقد اختلط الأمر على الناس، وكانوا محتاجين إلى من يضع النقاط على الحروف. ولكن أهل فلسطين وجدوا أنفسهم معزّولين في أقليم منفصل عن الوطن الأم سمَّوه (فلسطين). وتخلى عنهم إخوان الأمس ـ قبل حدّ الحدود وتقسيم التركة ـ وتركوهم يواجهون مشكلتهم منفردين، وإذا وجدت مساندة، فإنها مقصورة على المساندة بالعواطف الإنسانية، التي يساند بها القريب والغريب على حدّ سواء. فالناس في الأقاليم الأخرى ينكرون على اليهود والإنكليز واليهود ما يفعلونه في

فلسطين، كما ينكرون التميز العنصري في جنوب أفريقية.

هذه حال أهل فلسطين عندما تولى القسَّام الخطابة في جامع الاستقلال فما الأهداف التي حققها القسَّام من على منبر جامع الاستقلال، ومن خلال مجالسه ودروسه الوعظية في أيام الأسبوع؟.

الهدف الأول: إيجاد القيادة الواعية لما يحيط بالأمة من الشرور، وتنبيه الغافلين:

فقد تزعم الفلسطينين رجالٌ، ينقسمون إلى قسمين:

قسم لو أحسنَّا الظنَّ فيهم لقلنا: إنهم أغبياء جاهلون.

وقسم يسعون إلى المناصب والوجاهة. والقسمان يريان أن الخلاص من الإنكليز واليهود يأتي عن طريق المفاوضات والوعود والمؤتمرات والمظاهرات.

أما عزّ الدين القسّام، فقد سُئل عن رأيه في أساليب الزعماء المعتمدة على محاورة الإنكليز، فأجاب: «من جرب المجرَّب فعقله مخرَّب» وقال مرّة: «من جرَّب المجرَّب فهو خائن» وهو يشير إلى تجربة العرب مع الإنكليز إبّان الثورة العربية العربية على العثمانيين، حيث وعد الإنكليز العرب بدولة عربية واحدة مستقلة بعد نهاية الحرب، ولكن الإنكليز نكثوا عهدهم، والرجوع إلى أحضانهم يدل على غباء أو خيانة.

ولذلك أعلن القسَّام في مسجد الاستقلال أن الإنكليز رأس البلاء

والداء، ويجب توجيه الإمكانات كلها لحربهم، وطردهم من فلسطين، قبل أن يتمكنوا من تحقيق وعدهم لليهود، حيث جعلوه من أهداف الانتداب البريطاني في فلسطين، بل هو هدفهم الأول.

وحذر الشيخ عزّ الدين المصلين في إحدى خطب الجمعة سنة ١٩٢٧م من التساهل مع الهجرة اليهودية التي تحتلُّ البلاد، ودعاهم إلى استقبال هذا العدوّ القادم بعربات الانتداب الإنكليزي وحمايته، بوصفهم أعداء لا بوصفهم ضيوفاً. ولعله يذكّر بما أوحت به بريطانية، وكتبته جريدة (القبلة) في مكة، لسان حال الحسين بن علي سنة ١٩١٨م، تدعو الناس في فلسطين أن يتذكّروا «أنَّ كتبهم المقدسة وتقاليدهم توصيهم بواجبات الضيافة والتسامح، ويحضهم على الترحيب باليهود حين قدومهم مهاجرين إليهم بوصفهم إخواناً لهم».

وفي مسجد الاستقلال أخذ ينبه عِزَّةَ الإيمان في نفوس المسلمين، وأن الولاية والطاعة لا تكونان إلا لحاكم مسلم، فكان يردد دائماً الآية الكريمة ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ ﴾ [النساء: ٥٩]. ويُسهِب في شرح ﴿ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ ﴾ فأولوا الأمر هم المسلمون، الذين يقرون بالتوحيد، أما الإنكليز فلا طاعة لهم على المسلمين، وكان الإنكليز يبثُّون على لسان (القاديانية) ومركزها (حيفا) أن الدولة البريطانية وليّة أمر المسلمين ولها عليهم حقَّ الطاعة.

ودعا القسَّام المسلمين إلى التمرّد، وحرّضهم على ألاّ يسمعوا للعساكر البريطانية.

ففي أواخر سنة ١٩٣٤م، سأل القسّامُ المصلِّين من على المنبر: «هل أنتم مؤمنون»، وأجاب: «لا أعتقد»، وسكت قليلاً، ثم تابع كلامه قائلاً: «لأنه لو كنتم مؤمنين، لكانت لكم عزّة المؤمن، فإذا خرجتم من هذا المسجد وناداكم جنديٌّ بريطاني، فلا تطيعوا نداءه».

واتَّجه القسَّام إلى توعية الشعب بالشرور المحدقة بهم، وكان يكثر من قوله: «بأن اليهود ينتظرون الفرصة لإفناء شعب فلسطين، والسيطرة على البلاد، وتأسيس دولتهم»، وكان هذا الرأي الثاقب والإدراك الواعي سنة١٩٢٧م في وقت كان كثير من الناس يعتقدون (بتضليل من الإنكليز على لسان القادة السياسيين) بأنّ المشروع الصهيوني حلم لا يتحقق، ولم تكن الحركة الصهيونية قد وصلتْ الى مراحل متقدمة من القوة العسكرية والنفوذ الاقتصادي في فلسطين.

ومن باب التحريض على الجهاد، دعا القسّامُ الى توجيه اقتصاد البلد الى شراء الأسلحة وأنكر في هذا السبيل، سياسة (المجلس الإسلامي الأعلى) في تزيين المساجد وبناء الفنادق، وقال: يجب أن تتحول الجواهر والزينة في المساجد إلى أسلحة فإذا خسرتم أرضكم، فإن الزينة لن تنفعكم وهي على الجدران.

ودعا مرّةً إلى تأجيل فريضة الحج، وتحويل نفقاته إلى شراء الأسلحة، لأن الحج لمن استطاع إليه سبيلاً بعد تأمين نفقة الأهل عند غيابه. و كيف يكون مستطيعاً الحج مَنْ إذا سافر لا يأمن العودة إلى بيته

المهدد من الأعداء، فكـان الأولى أن يحمي بيتـه بسلاح يشـتريه بنفقة الحج.

وفي سـنة ١٩٢٩م عُلِمَ أنّ اليهـود يأتمرون للهجـوم على جامع الاستقلال، فطلب وجوه المسلمين في حيفا من السلطات البريطانية أن ترسلَ قوةً لحراسة المسجد من الهجوم المُدَبَّر. فثار القسَّامُ على هذا الاقتراح، وقال من خطاب ألقاه بهذه المناسبة: «إنّ جوامعنا يحميها المؤمنـون منّا، إنَّ دمنـا هو الذي يحمي مسـاجدنا لا دم الآخريـن»، ووصف الطلب بالجُبن، وعدّه دليلاً على الخضوع والذل. ولما دعتْه السلطات للتحقيق في كلامه، لم ينكره، وعندما أوقف، أعلنت المدينةُ الإضراب، فاضطرت السلطات الى إخراجه من السجن، وتجنبتْ حكومة الانتداب اعتقاله فيما بَعْدُ.

وفي الثلاثينيات حين شاعت حوادث قطْع الطرق وظهور عصابات السّلب، برز اسمُ (أبو جلْدة)[1] وأحيط بهالة من التقدير، بوصفه معبراً عن الحس الشعبي، ورغبته في مقاومة الانتداب. وفي سنة ١٩٣٢م سُئل الشيخ عن رأيه في أهل (الشعراوية) وجبل نابلس الذين يقطعون أشجار

---

(١) أبـو جلْدة: صعلوك فاتك، ولكنه كان يسـلب الإنكليز واليهـود فقط. ذكره المؤرخ الروسي في كتابه (تاريخ الأقطار العربية المعاصر)، فقال: في سنة ١٩٣٢م برز زعيم فصائل الفدائيين البطل الشعبي (أبو جلدة) الذي كان يزرع الرعب في قلوب المستعمرين ببسالته وجرأته.

اليهود، ويَسُمُّون الحيوانات، وينعتهم الناس باللصوصية وقطاع الطرق، فأجاب: دعهم يعملون، لأن في عملهم رجولة سنحوِّلها في يوم من الأيام إلى جهاد[1]، ومادام المستعمر يرغب في إماتة قلوبنا، فإن هؤلاء أقرب إلى الله وإلى حُبِّ الجهاد من المستكينين.

ومن باب تهيئة جمهور المسلمين للجهاد، الاحتفال بالمولد النبويّ، بصورة توحي بأن البلاد محفوفة بالمهالك، وأن النفير العام هو السبيل لتخليص البلاد من الأعداء، والنجاة من مكائدهم؛ إذ كان القسَّاميّون يحضِّرون سفينة صغيرة (شختورة)، فترُكّب لها العجلات وتكسى الزينة وتتصدر موكب (طارق بن زياد) وهو يطوف شوارع المدينة من الصباح حتى العصر. وتمر السفينةُ أمام دائرة الشرطة، وخلفها الآلاف من عُمّال البحر، وعمال السكك الحديديّة، وعمَّال البناء والحجارة، حيث كان للقسَّام نفوذ قويّ في قواعد (جمعية العمال العربية) والهدف من الموكب، الإيحاء إلى الناس بالاستعداد للجهاد، وتذكيرهم بمقولة طارق بن زياد: «العدو من أمامكم والبحر من ورائكم»، ويوحي إليهم بأن المدد يأتي من الله عند إخلاص النيّة لله.

---

(١) لعلَّ القسام أخذ فتواه من قصة أبي بصير، الذي أسلم بعد صلح الحديبية، فطلبته قريش، ثم فرَّ إلى الساحل، يتعرض لقوافل قريش، يقتل حرسها ويأخذ أموالها. وقد قال فيه رسول الله ﷺ: «ويل أمّه مسعر حربٍ لو كان له أحد». أي: لو كان معه مَنْ يضِمُّ جُهْدهُ إلى جهده.

وهكذا استطاع القسَّام في عشر السنوات التي أمضاها في جامع الاستقلال، أن يجعل الناس مستعدين لتلبية نداء الجهاد، وصارت الكلمات الجهادية المقدسة من خطبه، على لسان الجمهور، من ذلك قوله: «المجاهدُ رائدُ قومه، والرائد لا يكذب أهله» وقوله: «الجهاد رفيقه الحرمان» ويقصد بالحرمان، الصبر على المشقة.

وشاعت آيات الجهاد يردِّدُها روّاد مسجد الاستقلالي كل مكان، ومنها قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ﴾ [الأنفال: ٦٥]، وقوله تعالى: ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾[النساء: ٩٥].

وكان شعار القسّام وتلاميذه (هذا جهادٌ، نصرٌ أو استشهاد).

ومن خلال اتصال القسّـام بالقوى البشرية عن طريق المسجد، اسـتطاع أن يقوّم القدرات الوطنيـة للجهاد، ووازن بينها وبين قدرات الأعداء ـ الإنكليز واليهود ـ فوجد القوّة الوطنية تفوق قوى الأعداء، فثبت في نفسه أن الأسلوب العسكري للوصول إلى الحقّ هو الأسلوب الناجع، وأن الطريق السلميّة التفاوضية فيهاإذلال للمسلمين، لأنها تجبر الأسد القوي (وهم العرب) أن يفاوض الكلب (وهم الأعداء). ونقل الرواة عن ابنة القسّام (ميمنة) هذه الحادثة:

إذ رأته صباح يوم هائجاً هياجاً شديداً، يرّدد أشعاراً حماسية حربية، فخشيت من مغبة هذا الهياج، وقالت له: إن الطريق السلميّة هي خير طريق يمكن أن يسلك شعبٌ أعزّلُ كشعبنا، لأنّ القوة يجب أن تجابهها قوة مثلها، ونحن لا قوَّة لدينا ولا مال.. قالت ميمنة: ولكن الوالد الشهيد لم يتركني أتمُّ كلامي، بل صاح بصوته الجَهْوري: اصمتي يا ميمنةُ. ثم أطرق برهةً، وأنشد وهو ينظر إليَّ:

واعلمْ بأن عليك العار تلبَسُه مَنْ عَضَّةِ الكلب لا من عضَّةِ الأسد

ولم يكن القسَّام مبالغاً في تقديره وتقويمهُ لقلة الأعداء.. فقد قدّر عددَ اليهود في فلسطين سنة ١٩٢٢م (٨٣٠٠٠) ثلاثة وثمانون ألفاً، وبلغتْ نسبتهم لمجموع السكان (١١٪)، وفي سنة ١٩٣١م قدّر عدد اليهود (١٧٤٠٠٠) مئة وأربعة وسبعون ألفاً، وبلغت نسبتهم (١٦٪)، وهي المدَّة التي نؤرخ لها من حياة القسَّام.

وأما القوات البريطانية التي تحمي اليهود، وتسهل هجرتهم، فكانت تقف حائرة أمام هبّة جهادية في جزء من فلسطين. وفي سنة ١٩٢٩م أثناء ثورة البراق، طلبت القوات البريطانية المدد، فجاءتها الإمدادات من القوات البريطانية في مصر

وفي سنة ١٩٣٦م عجزت القوات البريطانية عن السيطرة على فلسطين، وحرّر المجاهدون أجزاء كبيرة من فلسطين، لولا وساطة

(أصنام العرب) في فلسطين وخارجها، التي نصبها الأعداء لتقرّب العرب إلى الإنكليز زُلْفى. وكانت هذه الأصنام، بل شياطينها، تَعِدُ الناس بالمواعيد العرقوبية، وتوحي إلى المسلمين بأن قوَّة الأعداء العسكريّة تفوق قوّة العرب عدداً وعُدَّة، وأنه لا سبيل إلى الخلاص منهم إلا بالحُسْنى، فيطفئون حركة الجهاد، وبينها وبين النصر قاب قوسين أو أدنى. أطفأ الله نور قبورهم.

وقد ركّز القسَّامُ عنايته في التوجيه إلى معاني الجهاد، وتصحيح المفهومات السياسية الدارجة، ولكن لم ينسَ ثلاث قضايا:

الأولى: الدعوة إلى إخلاص العقيدة لله وحده، وتنقية المفهومات الدينيّة الشائعة من الشوائب، والرجوع إلى الكتاب والسُّنَّة الصحيحة، مصدرين لكلِّ توجهات المسلمين: وفي هذا السبيل حارب البدع المتصلة بالجنائز والمآتم والمولد النبويّ، وشهر رمضان... إلخ. وخاض من أجلها معركة شاركه فيها محمد كامل قصاب، وألّفا فيها كتاب (النَّقد والبيان في دفْع أوهام حزيران).

الثانية: الغزو الفكري المدعوم من اليهود والإنكليز:

وكانت (حيفا) مركزاً لفرقتين ضالتين: هما: (البهائية)، و(القاديانية)[1].

---

(١) أما البهائية، فتعدُّ حيفا القاعدة الإدارية العالمية لعقيدتها. =

. . . .

= وأصل فكرة البهائية جاءَت من (البابيّة) ومؤسسها علي محمد الشيرازي من إيران (١٨١٩ ـ ١٨٥٠م) واعتقد هذا بأن الله اصطفاه لأداء رسالة دينية، وسمّى نفسه (الباب) الذي يدخل الناسُ منه إلى معرفة الله. . . ثم اعتقد أنه (المهدي المنتظر)، وأنه هو الذي يهدي العالم للحق. . . وأخيراً حُكِمَ عليه بالموت، فأعدم في تبريز. وقيل إنَّ مريديه تمكنوا من نقْل جثته خِلْسةً سنة ١٩٠٩م، ودفنوها في حيفا.

ومن أتباع الباب، البهاء، أو بهاء الله (١٨١٧ ـ ١٨٩٢م) واسمه حسين علي نوري بن عباس. وفي سنة ١٨٦٢م أعلن أنه هو الذي تجلَتْ في طلعته (ذات الله) وأن الباب تنبأ له بذلك. وأنشأ (البهائية) ومن مؤلفاته (الكتاب الأقدس) إشارة إلى أن كتابه أقدس من الكتب السماوية كلها. . ثم نزح إلى العراق، فضج منه العلماء فنزل إستانبول، ثم نفي إلى (أدرنة)، ومنها أُرسل وجماعته إلى مكان يُدعى البهجة قُرب جبل الكرمل، وتوفي هناك.

وبعد وفاته، خلفه في الزعامة ابنه عباس أفندي (١٨٤٤ ـ ١٩٢١م). . وتوفي هذا في حيفا، ودُفِنَ في سفح جبل الكرمل بجوار الباب. وخلفه حفيده شوقي أفندي، وتزوج من الأمريكية (ماري ماكسويل) التي تسمت باسم (روحية خانم) وتزعمت البهائية بعد وفاته.

ويعتقد البهائيون بوحدة الأديان وبضربٍ من التربية العالمية، وبالسلام في الأرض، وبالمساواة بين الرجل والمرأة، وينشدون لغة عالمية. وبلغ عدد البهائيين في فلسطين سنة ١٩٣١م (٣٥٠) نسمة معظمهم يقيمون في حيفا، وقليلهم في عكا، وللبهائية علاقة وطيدة باليهود. . فقد دعا إليها في كتابه (الأقدس) إلى التجمع اليهودي الصهيوني في أرض فلسطين. . وتابع دعوته

الثالثة : اكتشاف القادرين على الجهاد وتنظيمهم في خلايا سريّة :

ذلك أن المدرسة القسّاميّة في جامع الاستقلال حركت الروح الجهادية في نفوس المسلمين، وأصبحوا مستعدين للقيام بعمليات استشهادية، ولكن العمل يسبقه التنظيم في خلايا سريّة، لإعدادهم الإعداد العسكريّ، وتدريبهم على حملْ السلاح .

وسوف نتكلَّم عن هذه الفقرة فيما بَعْدُ، عند الحديث على التنظيم الجهادي الذي قاده عزّ الدين القسّام .

= ابنه عباس أفندي .

وأما القاديانيّة : فسكن أتباعها في بقعة(الكبابير) قرب عكا . وهم من أتباع غلام أحمد، زعيم الفرقة القاديانية، نسبة إلى بلدة (قاديان) من أعمال البنجاب في شبه القارة الهندية، وأحياناً تسمى (الأحمدية) ويزعم أنه المهدي المنتظر، وأن الله حلَّ في جسده، وأنّ رسالته عالمية، وحبب إلى أتباعه السلم والتسامح، وعدم التعصب، وتوفي في لاهور من أعمال الباكستان سنة ١٩٠٨م، وكتب على قبره (ميرزا غلام أحمد موعود) ومعنى موعود (المهدي) . وعقيدتهم في (المسيح) أنه لم يصلب إنما مات في الظاهر، ودُفِن في قبرٍ خرج منه، وعلى أثر ذلك هاجر إلى كشمير، وأخذ يبشر فيها بتعاليمه وتوفي بها بعد أن عاش ١٢٠ سنة .

والقاديانية فرقة يدعمها الإنكليز، حيث ترى هذه الفرقة إسقاطَ فرضِ الجهاد، لأن الإنكليز، أولياءُ أمور الأمّة، وتجب طاعتهم، ولأن الإنكليز بسطوا سلطانهم على العالم، ولا مزيد على ذلك .

ويَعْقُبُ مرحلـة التنظيم، التدريبُ العسـكري، والتدريـبُ على القيام بالمهمات الجهاديـة الابتدائيـة، والتدريبُ على الصبر وتحمل المشاق ـ والتدريب على البذل ـ بذل المال والنفس. . فالمال كان قليلاً نادراً بأيدي الناس، وتعويدُ الناس على البذل من أجل ثواب مُدَّخر عند الله، يحتاج إلى خَلْق الإيثار، وموت الأثرة. . وسوف نزيد هذه الفقرة تفصيلاً فيما بَعْدُ.

● في وظيفة (المأذون الشرعي):

وجاء لفظه في السجلات (مأذون أنكحة)، وهو أكثر دِقَّةً من لفظ (المأذون الشـرعي)؛ لأنـه يحدد مجال المأذون المعروف بـأنه خاص بمعاملات عقد النكاح وتوابعه. . . وقد حصل القسَّامُ على وظيفة (مأذون أنكحة). بعد اختبارٍ فازَ فيه على أربعةَ عشر متنافساً سنة ١٩٣٠م.

ولم يكن القسَّامُ يريد الوظيفة لذاتها، وإنما أرادها وسيلة مشروعة للاتصال بالناس في بيوتهم، وفي القرى المحيطة بمدينة حيفا، حيث استطاعَ القسامُ أن يعالج كثيراً من القضايا الاجتماعية المتعلقة بالنكاح والطلاق، والتي تُعَدُّ من ركائز بناء المجتمع القويّ المتماسك.

ومن القضايا التي كان يطرحها.

١ ـ حثّ الشـباب على بنـاء بيت الزوجيـة، للتخلّص من شـباك

المفاسد التي ينشرها اليهود والإنكليز، لقتل روح المقاومة عند الشباب.

٢ ـ المساعدة على توفير المهور للشباب العاجزين عن بناء بيت الزوجية لفقرهم.

٣ ـ دعا آباء البنات إلى عدم المغالات في المهور، والتقليل من نفقات العرس.

٤ ـ حارب الزواج الذي يكون لأهداف اقتصادية أو نفعية، وبخاصة تزويج الصغيرات من غير الأكفاء.

وفي نصّ إجابة القسّام عن أسئلة المحكمة الشرعيّة في حيفا نطّلع على وجهة نظره في إصلاح قضايا النكاح والطلاق، وقد أثبتناها مصوّرة (بِخَط يده في ملحق الكتاب).

وهذا نص ورقة الإجابة التي تقدم بها الشيخ عزّ الدين القسّام لامتحان المحكمة الشرعية في حيفا الخاص بالمتقدمين لوظيفة (مأذون أنكحة):

س١: ما هي موانع النكاح؟

س٢: ما الفرق بين النكاح الفاسد والباطل؟

س٣: ما الحكمة من أن يكون الطلاق بيد الزوج لا بيد الزوجة؟

س٤: ما حكمة المنع في تزويج الصغار، وما حكمة اشتراط الولي في نكاحهم؟

ج١ : هي حق الغير، واختلاف الجنس، وحرمة المصاهرة والرضاع، والنسب، واختلاف الدين، والجمع، والزيادة عن الأربع، وعدم شرط من شروط النكاح الشرعية والقانونية.

ج٢ : النكاح الباطل هو غير المنعقد من أصله، ولا يترتب عليه شيء من حقوق الزواج أصلاً، كنكاح المحارم مثلاً، والنكاح الفاسد هو الذي ينقص بعض الشروط، ويكون منعقداً من وجه الظاهر ويقترن بالدخول، فيترتب عليه بعض الحقوق بعد ظهور فساده، كنكاح خامسة بعد الأربع، وبإدخال الأمة على الحرة.

ج٣ : الحكمة من كون الطلاق بيد الزوج لا بيد الزوجة هي كمال عقل الزوج، وأنه يحسن وضع الأمور في محالِّها حسب المصلحة، ويمسك زوجه حسب المصلحة، ولأنه قَيِّم على الزوجة بطبيعة الخلقة التي جاءت الشريعة على حسبها من جعل الرجال قوامين على النساء، فيناسب أن يكون إطلاق السراح وإدامة النكاح بيده، ولا يسبب غضاضةً في نفس الزوجة بخلاف العكس، مما يؤدي بحسب الشعور إلى اختلال نظام العائلة. وبما ينفق الرجل من ماله حسب الآية أيضاً، ولأن أصل النكاح أنه عقد على ملك التمتع ببضع المرأة قصداً، وهذا يقتضي أن يكون الطلاق بيد الزوج لا بيد الزوجة.

ج٤ : الحكمة من منع تزويج الصغار هي المحافظة على المقصد المطلوب من النكاح، الذي هواستدامة بقاء الجنس الإنساني خصوصاً

المسلم منه بحالة طيبة متناسبة، مع الهناء والنمو العقلي والديني والجسماني في النسل الذي يخرج من بين الزوجين، فحيث إن الصغار لا يحرزان قبل سن البلوغ الأهلية لتربية ذراريهم هذه التربية، فيكون من إباحة تزويجهم ضرر هائل في المجموع الإنساني والمجتمع الإسلامي، هذا عدا عما يترتب على إباحة تزويج الصغار من الإضرار بعقولهم وأبدانهم والإسراع بهم إلى الفناء، وغير ما يقصده كثير من الأولياء الجاهلين من استغلال قصور البنات، واستجلاب ثروات الصغيرات بعد الموت الذي سبب ذلك النسب، الذي لا يقصد من مثله إلا المنافع الدنيئة، وذلك موجب لكثير من الفتن بين العائلات، ولهذا منع الآباء من تزويج الصغار في بعض الأحوال، مع العلم بشدة المرحمة بين الوالد والولد، لأن هذه المرحمة استبدلها جهل الآباء بالمظلمة. وللاحتراز من الوقوع في شيء من تلك المفاسد اشترط الولي في نكاح الصغار، لأنه أرجى لصلاح حالهم بالنظر لعقل الولي، ومحافظة بحسب العاطفة النسبية على مصلحة الصغير، ولذلك لم يعتبر الشرع تصرفات الصغار في النكاح وغيره بالنظر لعدم استكمالهم العقل المتوقف على البلوغ.

١٨ جمادى الآخرة ١٣٤٩
٩/ ١٠/ ١٩٣٠

المجيب عزّ الدين القسّام

● في جمعيّـة الشُّبَّان المسلمين سنة ١٩٢٨م :

هناك أسباب كثيرة ساعدت على إنشاء جمعيات الشبان المسلمين في فلسطين سنة ١٩٢٨م .

* منها : جولة الدكتور (عبد الحميد سعيد) الرئيس العام لجمعيات الشبان المسلمين في مصر حيث زار فلسطين، وطاف في معظم مدنها، وخطب في المساجد داعياً إلى تأسيس هذه الجمعيات .

* ومنها : تأسيس جمعية الشبان المسيحيين بوحي من الإنكليز، واحتضانهم لهذه الجمعيـة، وتعيين المسـتر (بـومن) ـ مديـر معارف فلسـطين، المشرف على إدارة المدارس الإسـلامية ـ رئيساً لمجلس جمعية الشبان المسيحية في القُدس، وكان هدفُها شقّ الصف الوطني بين المسلمين والمسيحيين، وقد أباحتْ للموظفين المسيحيين الاشتراك في الجمعية لتحث الموظفين المسلمين إلى تقليد مماثل، وانشاء جمعيات للشبان المسلمين، ولكن السلطات البريطانية تنبهتْ فيما بَعْدُ إلى أنَّ معظم الجمعيات بيد العناصر الوطنية المناوئة للإنكليز، فأصدرتْ أمراً يحظر على الموظفين الاشتراك في جمعيات الشبان المسلمين، وحضور اجتماعاتها .

* ومنهـا : ولعلّـه العـامـل المبـاشـر ـ عَقْـد المـؤتمـر التنصيـري (التبشيري) في أواخر آذار سنة ١٩٢٨م في جبل الزيتون بالقدس، برئاسة

الدكتور (موط) رئيس المجلس التنصيري العالمي، وشارك في المؤتمر مندوبون من إحدى وخمسين دولة دون أن يكون بينهم مندوبٌ واحد يمثل المسيحيين العرب، وكان المؤتمر يدعو إلى تنصير المسلمين، فقوبل بالمظاهرات والاستنكار، وشارك المسيحيون في التوقيع على برقيات عديدة مع المسلمين تستنكر عَقْد المؤتمر وتدعو إلى إيقافه.

وصادف انعقاد المؤتمر، بَدْءَ الاحتفالات بموسم (النبي موسى) مما ضاعف من احتمالات الانفجار الشامل، فبادر المندوب السامي إلى إيقاف المؤتمر، فتداعى الفلسطينيون إلى عقد مؤتمر النوادي الإسلامية في يافا، وقرر المؤتمر (تأسيس جمعيات الشبان المسلمين) في جميع أنحاء البلاد. وجرت انتخابات جمعيات الشبان المسلمين في المدن، وفاز في حيفا برئاسة الجمعية الشيخ عزّ الدين القسّام.

وترأّس الجمعية أيضاً بعد الانتخابات التي جرت سنة ١٩٣٠م.

وفي سنة ١٩٣٢م كان القسَّامُ ممثلاً لجمعية حيفا في مؤتمر الجمعيات الرابع المنعقد في عكا. وانتخب يومها القسَّام رئيساً مؤقتاً للمؤتمر بوصفه أكبر الأعضاء سناً. وبعد مداولات الحاضرين اتخذ المؤتمر القرارات التالية:

١ ـ محاربة التنصير (التبشير).

٢ ـ الدعوة إلى تدريس أبناء المسلمين في المدارس العربية، وتجنيبهم المدارس التنصيرية.

٣ ـ نَشْر الوعظ الديني والتعليم في القرى وفي جمعيات الشبان المسلمين.

٤ ـ إصدار منشور يناشد (المجلسيين)[١] و(المعارضيين)[٢] بأن يتخلوا عن الحزبية، والعصبية القبلية، وأن يتحدوا من أجل مصلحة الأمة.

وفي آذار من عام ١٩٣٣م كان القسَّام مندوباً عن جمعية الشبان المسلمين في حيفا في الاجتماع العام المعقود في يافا.

وقد واظب القسَّام على تقديم محاضرة دينيّة أسبوعية في جمعية الشبان المسلمين مساءَ كلِّ جمعة. فكان يذهب كلَّ أسبوعٍ، مع فئةٍ من أعضاء الجمعية، للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلى القرى. وقد ساعده موقِعُه بوصفه رئيساً للجمعية بتعليل مناسب لزياراته المتتالية للقرى خارج حيفا، حيث أسَّسَ فروعاً لجمعيات الشبان المسلمين في

---

(١) المجلسيّون: نسبة إلى (المجلس الإسلامي الأعلى) وكان رئيسه الحاج أمين الحسيني، والأصل فيه أن يرعى الأوقاف الإسلامية، ثم صار حزباً يمثل آل الحسيني ومَنْ لفَّ لفهَم.

(٢) المعارضون: هم (آل النشاشيبي) ومَنْ لفَّ لفهم. وقد كَرّسوا جلَّ نشاطهم لمعارضة (المجلسيين) أنصار آل الحسيني، وكان تنافسهم في مَنْ يكون أكثر قُرباً من المندوب السامي البريطاني، ومَنْ يفاوض الإنكليز للوصول إلى الحقّ.

اللواء الشمالي، أصبحت غطاءً مناسباً أيضاً لعمل رفاق القسَّام في قراهم المحلية.

وكان من بين هذه الفروع، فرع (صفورية) الذي ساعد على إنجاح العمليات العسكرية ومهاجمة الحصون اليهودية في الشمال.

ومن خلال عمله في جمعيات الشبان المسلمين، استطاع القسّام أن يوجّه عشرات من الشبان للتخلص من ربقة الفساد والضياع، والانخراط في العمل الجاد المثمر لبناء النفس والوطن.

وتحت ستار (جمعيات الشبان المسلمين) عزّز القسَّام صِلاته بالريف، وكانت فرصة سانحة لإيجاد مكان علني للالتقاء والمناقشة، والتمرين العلني على سلاح للصيد، حيث كان أحد نشاطات الجمعية. وكثيراً ما كان القسّام ينام على كرسيّ الجمعية ولا يعود إلى البيت.

وهكذا فإنّ القسَّام قد حقق هدفه من رئاسة الجمعية، ومن عضوية لجنتها القيادية وكان نشاطه في الجمعية إعداداً وتحضيراً ليوم الجهاد.

وحرص القسَّامُ على أن يُستفاد من الجمعية في فتح المدارس، متعاونة مع الجمعيات والمؤسسات الاجتماعية في المدينة. ونقل مصباح غلاونجي في مجلة (التراث العربي) صورة رسالة بتاريخ ٢٠/ ٩/ ١٩٣٤م أرسلها القسّام إبّان رئاسته لجمعية الشبان إلى عصبة المحاربين في حيفا، يدعوهم للتعاون على أمر إنشاء مدارس لتعليم الأبناء وهذا نصها:

«حضـرات الأفاضل رئيـس وأعضاء كشـاف عصبـة المجاهدين بحيفا المحترمين:

تحيةً واحتراماً وبَعْدُ: فنظراً لحاجتنا القصوى إلى تعليم أبنائنا، ولعدم وجود مدارس كافية تقوم بهذه المهمة، رأى مجلسُ الإدارة ـ إدارة جمعية الشبان المسلمين ـ أن يشتركَ وبقيةُ الجمعيات في الرأي والعمل على تسهيل طريق التعليم أمام أبنائنا المتشردين في الأزقة والشوارع، وإزالة العقبات التي تحول دون تهذيبهم وتثقيفهم.

وعليه، فالمجلس يرجو من جمعيتكم المحترمة انتداب شخصٍ أو شخصين لحضور الاجتماع المنوي عقدُه في نادي الجمعية، الساعة السابعة والنصف من مساء الثلاثاء الواقع في ٢٠/ ٩/ ١٩٣٤م للمذاكرة في هذا.

وتفضلوا بقبول فائق الاحترام

خاتم جمعية الشبان المسلمين

وتوقيع عز الدين القسام

● مع العمال والفقراء:

كانت مدينة حيفا مركز العمل والعمَّال ـ لوجود الميناء الأول في فلسطين ـ ومحطة السكك الحديدية، والساحل البحري ـ وكانت تضمُّ في جنباتها ألوفاً من الفلاحين المطرودين من قراهم، يسكنون بيوتاً من الصفيح، ويعيشون في أدنى مستويات الفقر.

فوجه القسَّام كثيراً من جهده ووقته لتوجيه هؤلاء وتعليمهم وإرشادهم، وغرس العزّة الإيمانية في قلوبهم، ليكونوا جنود أشدّاء إذا دعا داعي الجهاد.

روى أحدهم أنه سمع القسَّام وهو يهدر على المنبر قائلاً: «رأيت شباناً يحملون المكانس لكنس الشوارع، هؤلاء مدعوّن لحمل البنادق. ورأيت شباناً يحملون فرشاة لمسح أحذية الأجانب، هؤلاء مدعوّن لحمل المسدسات لقتل هؤلاء الأجانب. ولعلَّ القسَّام أراد أمرين:

الأول: أن يختار الشاب العمل الكفء لقدراته، وأن توظف كفاءات الشباب في بناء اقتصاد وصناعة الوطن.

والأمر الثاني: أن يترفع الشبّان عن الأعمال المهينة.

ولذلك أعطى القسَّام طبقة العمال والفقراء قسطاً من وقته، وشاركهم أفراحهم وأتراحهم، واهتم بأحوال المعدمين منهم، وسعى لتعليمهم، ومحو الأميّة من صفوفهم، وأسس مدرسة لتعليم العمال

الأميين، وكان لهذه المدرسة أثرٌ في نشر الوعي الوطني في صفوف العمال الذين كانوا من أبناء القرى المرهقة بالضرائب أو من الذين طُردوا من أرضهم.

وكان يقترب من الفقراء، يجالسهم، ويجيب دعواتهم إلى بيوتهم، ومقارّ عملهم. فنُقل عنه أن رجلاً سأل عنه في بيته، فلم يجده، فبحث عنه في جامع الاستقلال وجمعية الشبان، فلم يجده، فدلّه أحد المارّة على مكانه، فوجده يتناول طعام الإفطار عند قيّم الحمام العامّ، حيث الأخشاب والدخان. وتبينّ أن عامل الحمام دعاه إلى تناول الإفطار معه فلبى دعوته مُبكراً.

ولهذا أحبّه العُمالُ والفلاحون، وتسابقوا إلى حضور دروسه ومواعظه ووصل درجة كبيرة من التقدير والاحترام في قلوبهم، ماوصلها واحدٌ من رجال الإصلاح[1] في العصر الحديث في مجتمع من المجتمعات.

---

(١) وُصِفَ الرجالُ الذين دَعَوا إلى تغيير حال المجتمع الإسلامي إلى ما هو خير من واقعه بأنهم رجالٌ مصلحون، وقيل: فلان من رجال الإصلاح.. فجمال الدين الأفغاني، ومحمد عبده، وعبد الرحمن الكواكبي؛ من رجال الإصلاح. فما أصلُ هذا المصطلح؟ لقد تسرّب إلينا من (حركة الإصلاح الديني)، التي قادها (لوثر) لإصلاح أمر الكنيسة، وعرفت باسم (البروتستانتية). وأكثر مَنْ أُضيفوا إلى مصطلح (الإصلاح) في العالم العربي كانوا ينتمون إلى (طبقة) رجال الدين، أو ممن لهم صلة قريبة أو بعيدة بالدين الإسلامي. وقد صدرت عنهم (فتاوى) أو (آراء في الدين) لم يوافقهم الراسخون في علم الشريعة عليها، بل=

٧ ـ الجوانب القيادية عند القسّام:

قال أحمد الشقيري: «كنت على معرفة وطيدة بالشيخ عزّ الدين القسَّام، عرفته تقياً ورعاً، خطيباً دينياً صالحاً، واجتمعت به في مؤتمرات جمعيات الشبان المسلمين في حيفا وغيرها، ولم يكن يدور في خلدي أو في خلد غيري، حتى من أصدقائه المقربين، أن هذا الشيخ المعمم، إمام

= هي بعيدة عن السُّنَّة النبوية الصحيحة، ومع ذلك علا ذكرهم عند مؤرخي العصر الحديث، وذلك راجعٌ إلى القياس الفاسد، فقد قاسوا الدين الإسلامي على الدين المسيحي، وزعموا أنّ تخلّف (المسلمين) راجعٌ إلى المفهومات الدينية الموروثة، فدعوا إلى (إصلاح ديني) قياساً على الإصلاح الديني الذي كان في الكنيسة. وهي دعوة باطلة، لأن الفرق بين الدينين شاسع. وسبب فساد حال المسلمين اليوم لا يعود إلى الدين، وإنما يعود إلى (المسلمين) أنفسهم، لكونهم لم يتّبعوا (السُّنَّة) ولم يأخذوا بآراء (السلف الصالح)، ولذلك فإن إحسن ما يوصف به رجلٌ يدعو إلى تغيير حال المسلمين، بأنه (سلَفيّ) أو (سنّي)، ولكننا لا نضيف رجال الدعوة إلى (الإصلاح) لأن هذا المصطلح قد يعني الجمع بين العقل والدين، واعتبار العقل حاكماً على الدين، يغيّره بحسب حاجات المجتمع، أو بحسب اجتهادات أهل العقل، وعزّ الدين القسّام، كان سلفيّ السلوك، لم يبتدع شيئاً جديداً.

وفي المصطلح الإسلامي يُسمّى أمثال عزّ الدين (مجدّداً) مأخوذ من الحديث: «إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كلّ مئة سنة، مَنْ يجدّد لها دينها»، والتجديد هنا ـ والله أعلم ـ بمعنى الإحياء والنشر والعمل به وزيادة شرحه ليفهمه الناس، فكلما تباعد الناسُ عن الدين جاء عالمٌ أو أميرٌ فيردّهم إليه دون زيادة أو نقصان.

الجامع كان يهيِّئ نفسه لقيادة ثورة مسلحة ضد السلطات البريطانية مباشرة»[1].

وقال المؤرخ أمين سعيد: «كان القسَّام بعيداً عن الشهرة والإعلان عن النفس، فكان في حيفا كما كان في جبلة، وفي جبال اللاذقية، وفي كل مكان نزله، كان عنواناً للأخلاق الإسلامية، ومثالاً كاملاً للمسلم الحقيقي، الذي تذوّق لذّة الإسلام، واستنار بنور الإيمان واليقين، فما عُرف عنه ما يريبه أو يُدَنِّسُ سمعته، أو يدل على انشغاله بالسفاسف والزخارف، فأحرز مرتبة رفيعة، ونال مقاماً ممتازاً»[2].

وكتب الصحفي عبد الغني الكرمي عن مناقب القسَّام ومآثره فقال: «عرفته بعد أن أثقلت كاهله السنون، وأربى على الستين[3]، ولكن مجالدة الدهر ومقارعة الحوادث وصروف الزمان ما ألانت له قناةً، وماأذلت له جناحاً لأحد، وما زادته إلا ورعاً وتقوى... كان يمشي مطأطئ الرأس من خشية الله، وكان يتكلّم في هدوء وتواضع واتزّانٍ، سمة العالم الواثق من نفسه، المؤمن برسالته، الحريص على تقوى الله وبثّ التعاليم الدينية الصحيحة بين الناس، وما سمعتُه ـ على طول صلتي به ـ يحبُّ الإصغاء

---

(١) أربعون عاماً في الحياة العربية، ص١٣٩.

(٢) جريدة الجامعة الإسلامية في ٢٢/ ١١/ ١٩٣٥م.

(٣) قوله: «أربى على الستين» هذا من الوهم. فقد استشهد القسام وعمره حوالي ثلاثة وخمسين عاماً (١٨٨٢ ـ ١٩٣٥م). ولعله يريد(شارف على الستين).

إلى لهو الكلام والمهاترة والاستغابة، فإذا أمعن المتحدثون في هذا الضرب من القول رفع رأسه وقال: «استغفروا الله أيها الناس، وانصرف عنهم»[1].

وبناءً على شهادات معاصريه، وما عرفنا من سيرته، وما تركه من آثار مكتوبة يمكن أن نسجّل الصفات القياديّة التالية:

أولاً ـ إخلاص العقيدة لله واتباع السنة النبويّة، والاقتداء بالسلف الصالح:

أخذ عزّ الدين ثقافته الإسلامية من القرآن والسنّة الصحيحة، ونهل من السيرة النبويّة المشتملة على بيان شمائل الرسول ﷺ التي يكون للمسلمين بها أسوة حسنة. ودرس سِيَر الصحابة، وعرف أسباب التغيرات التي طرأت على سلوكهم في الإسلام.. فصدر بعد كلٍّ هذا عن عقيدة سلفية لم تتأثر بمذهب قديم، أو اتّجاه حديث.

وعندما تفتحت عيناه على الحياة، وجد الأعداء يحيطون بديار الإسلام، ويمتلكون بعض أجزائها، ويتحكمون في مصير أجزاء أخرى. ولعلّ فكرة الجهاد راودته منذ كان تلميذاً في الأزهر، وأعد نفسه لهذا اليوم.. وبعد وصوله إلى بلدة جبلة، واتته الظروف لخوض التجارب الأولى، واكتساب الخبرات.. فلم يطل مقامه بعد عودته إلى جبلة حتى

(١) جريدة فلسطين في ٢٢/ ١١/ ١٩٣٥م.

جاءت التجربة الأولى عندما لبّى نداء السلطان بالتطوع لمحاربة الطليان في طرابلس الغرب، فجمع القسَّام كتيبة، وقادها للزحف والجهاد.

وبعد سنتين دعا السلطان إلى الجهاد لمحاربة الإنكليز إبّان الحرب العالمية الأولى، فانخرط القسَّام في سلك الجيش العثماني، وكسب من ذلك خبرات عسكرية.

وجاءت التجربة الثالثة سريعة عندما قاد المجاهدين في جبال صهيون لمحاربة الفرنسيين. . ولعلَّ هذه الأحداث المتوالية السريعة لم تتح له أن ينفذ الخطة التي أخذها عن السلف الصالح، لتكون معركة الجهاد مضمونة النتائج.

فالأمةُ تدافع عن الوطن الذي تعلو فيه راية التوحيد، والمجاهدون يندفعون إلى ساحة المعركة لأنهم يرون بأعينهم الجنة التي أعدها الله للشهداء. ولهذا فإن الإسلام مصدر قوة المجاهدين، ولكن ما يتديّنُ به الناس في ذلك الوقت ليس الدين الصحيح، فقد دخلته البدع والخرافات، وزيد فيه ما ليس منه، وتركت منه جوانب تُعدُّ من جوانب القوة فيه. . وبناءً على ذلك فإن المرحلة الأولى في طريق الجهاد هي بَسط الدين الصحيح أمام الناس. . وكان قد بدأ هذه الرحلة، وأعطاها جُلَّ وقته عندما كان في جبلة، فأنشأ المدارس التي تُعلم الكبار، وشارك في تعليم الصغار، وحوَّل المسجد إلى مدرسة، يؤمها الناس من قرى جبلة كلها. . ولكن الأحداث المتسارعة لم تتح له الاستمرار في هذا المنهج. . فواتته

الفرصة عنما هاجر إلى فلسطين مجاهداً. . فبدأ المراحل من أولها.

قلنا: لقد دخلَ الدينَ ما ليس فيه، وتكدَّست عبر القرون بدعٌ أصبحت فيما بعدُ ديناً، وأنتجت هذه البدع جيلاً من المسلمين الضعفاء المتواكلين.

فكان همهُ الأول تخليص الدين من الشوائب، وإخلاص العقيدة لله وحده، لأن العقيدة الخالصة لله، هي مصدر القوة. . . فنبَّه الناس برفق، وقد يعنف إذا واجه المعاندين. ففي سبيل إخلاص العقيدة لله وحده، وطلب العون منه، حارب القسامُ حجَّ النساء إلى (مقام الخضر)[1] على سفوح جبل الكرمل لذبح الأضاحي شكراً على شفاءٍ من مرضٍ، أو نجاح في مدرسة، وكنَّ ـ بعد تقديم الأضحية ـ يرقصن حول المقام الموهوم، فدعا القسَّام الناسَ إلى أن يتوجهوا بنذورهم وأضاحيهم إلى الله تعالى فقط، لأنه ـ وحده ـ القادر على النفع والضرّ، وأما أصحاب القبور فلا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً فكيف ينفعون الآخرين؟!

وفي سبيل الاستفادة من السيرة النبويّة، أنكر القسامُ قراءة المولد النبوي بالغناء والتمطيط والمبالغة بتوقيعه على ألحان الموسيقا،

---

(١) مقام الخضر: يقع عند أقصى حدّ حيفا إلى الغرب من سفح جبل الكرمل، وهو بناءٌ قديم وسط حديقة، كان يضمُّ مسجداً فيه مغارة، تضم كتابةً يونانيةً، يزعم بعض الناس. أنه مقام الملاك جبريلّ، ويعتقد آخرون أنه مدرسة الأنبياء؟؟

والاكتفاء بسيرة الولادة فقط، مع ما أدخل فيها من الأمور التي لم تثبت، ودعا إلى العناية بالنبي ﷺ أحواله وشمائله، والسنّة العملية من سيرته لتكون نبراساً يستضيء به المسلمون.

وبالجملة، فإن العقيدة السلفية الصحيحة، والثقافة الإسلامية المقتبسة من القرآن والسنَّة أثرت في تلاميذ القسّام، وانطبعوا بطابع التربية الإسلامية الإيمانية، سلوكاً وأقوالاً. وقد وصف أحمد الشقيري أصحاب القسّام، وقد عايش عدداً منهم ودافع عنهم ـ بوصفه محامياً ـ أمام الإنكليز، فقال: «لم تجر على ألسنتهم تعابير (الكفاح المسلح) و(الحركة الوطنية) و(الاستعمار والصهيونية)، فقد كانت تعابيرهم على بساطتها تنبع من ينبوع أروع وأرفع هو «الإيمان والجهاد في سبيل الله» لقد كانوا قوماً مؤمنين، صنعهم الإيمان، فصفت نفوسهم، وتآلفت إرادتهم، وتعاظمت عزّائمهم، وأحسوا أن حبلهم مع الله قد أصبح موصولاً، وأن الباب بينهم وبينه قد بات مفتوحاً»[1].

ثانياً ـ محاربة البدع والخرافات (النَّقْد والبيان):

هذا اسم الكتاب الذي وصل إلينا من آثار القسَّام القلميّة: جواباً عن كتابٍ ألَّفه (محمد صبحي خزيران) تحت عنوان (فصل الخطاب في الردّ على الزنكلوني والقسَّام والقصَّاب). ينتصر فيه للشيخ عبد الله الجزار

---

(١) أربعون عاماً، أحمد الشقيري، ص١٤٥.

مفتي عكا[1]، وقاضيها. ويشارك القصَّابُ القسَّامَ في تأليف الكتاب الذي عنونّا به هذه الفقرة، وسوف نتناول الكتاب من النواحي التالية:

أـ التعريف بالأسماء الواردة في عنواني الكتابين:

ـ خُزيران: هو محمد صبحي خزيران. عرَّفه كاتبا (النقد والبيان) في المقدمة بأنَّه (رئيس كُتَّاب المحكمة الشرعيَّة في ثَغْر عكّاء).

ـ محمد كامل قصّاب: دمشقي المولد والنشأة، شارك في الثورة العربيـة على الأتراك، ثم هاجر إلى فلسـطين بعد أن احتلّ الفرنسيون سورية.

ـ عبد الله الجزار: قاضي عكا، ومفتيها منذ العصر التركي إلى أن توفي سنة ١٩٣٩م.

---

(١) عَكّاء: هكذا جاء رسمها في الكتاب، بالمدّ والهمزة، في مواضعِ متعددة. والمشهور اليوم (عكا) بالألف فقط. وذكرها ياقوت الحموي (عكّة) بالتاء. واسمها العربي الكنعاني القديم (عكّو) بمعنى (رمل حار). وما زال المعنى موجوداً في اللغة العربية القرآنية.
لعل لفظ (عكاء) بالمدّ، كان مستعملاً في أيامهم، أو كان مستعملاً في العصر التركي.
وينسب الناسُ إلى عكا (عكاوي) وهو نسب صحيح باعتباره مقصوراً: ويجوز فيه (عكّي) والأنسب أن تقول (عكاوي) حتى لا يلتبس (عكّي) بالنسبة إلى قبيلة (علكّ) العربية.

ـ الزنكلوني: هو علي سرور الزنكلوني ـ من علماء الأزهر ـ من علماء مصر، ومن سُكّانها.

ب ـ قصة الكتاب:

كان تأليف الكتاب سنة ١٣٤٤هـ ـ ١٩٢٥م، ولكن دوافع التأليف ذات جذور أبعد من هذا التاريخ: فمنذ قرون مضت أخذ الناسُ يبتدعون عادات وتقاليد تتصل بالشعائر الدينية (فروضها وسننها) وما هي من الشعائر الدينية بشيء، وما فعلها أحدٌ من الصحابة والتابعين وتابعي التابعين. وتراكمت هذه العوايد، وتتابع أهل القرون على فِعْلِها، حتى ظنَّ الناسُ أنها من أصول الدين.. وتتابعت فئات من المجتمع على أكل (العيش) من تأدية هذه العادات الدينية.

ومن هذه العوايد ما يتّصل بتشييع الجنائز، وقراءة القرآن على القبور، والتغنّي بالسيرة النبويّة في المولد النبويّ، وقراءة القرآن في المساجد بصوت جهوري، والأناشيد التي تُقال في الأيام الأخيرة من رمضان، أو ما يسمى (التوحيش) لقولهم «لا أوحش الله منك يا رمضان»... إلخ.

ويرى عزُّ الدين القسّام أنَّ الدين قد اكتملَ بانقطاع الوحي، يوم وفاة النبي ﷺ وكلُّ زيادة على ما فعله رسول الله ﷺ تُعَدُّ تشريعاً من البشر، الذين لا يملكون حقَّ التشريع، فيجب أن نقف عند الحدود التي

بيّنها القرآن، وأقوال الرسول ﷺ وأفعاله، وأفعال الصحابة من بعده.

وقد أنزل اللهُ لصلاح حال العباد، وهو العالم بحالهم في كلِّ زمان، وفي كلِّ مكان، وجعل الإسلام خاتمةَ الأديان إلى قيام الساعة.

ومنذ تولّى عزّ الدين القسّام أمرَ تعليم الناس في المدارس، والمساجد، أخذ على نفسه تقويمَ ما اعوجَّ من أمر المسلمين، وأن يُرجعهم إلى الإسلام المُصَفَّى الخالي من الزيادات والبدع. لأن انكباب الناس على هذه البدع أدّى إلى انشغالهم عن الأصول الإسلامية، وأدّى إلى فساد حال المسلمين، وضَعْفهم، وكان عزُّ الدين القسَّام، منذ هاجر إلى فلسطين، قد نوى إعداد الأمة لمرحلة جهادٍ قادمة، منطلقاً من الإسلام، ورأى أن يبدأ أولاً بمرحلة الدعوة والتعليم، لتربية جيل مؤمن بربّه، متمسك بسُنَّة النبي ﷺ، فأخذ يحارب البدع والخرافات، ويستلُّها واحدةً واحدةً. . . ويدعو الناسَ إلى نبذ البدعة، إذا عرف وجودها، ويجيب عن أسئلة الناس بما يوافقُ القرآنَ والسنَّةَ، وما اتفق عليه أعلامُ العلماءِ السابقون، ومن هنا بدأ الصراع بين أنصار البدع والتقاليد الدينية، وبين المذهب السلفي الذي اتّبعه القسَّام.

وأخذ صوتُ الخلاف يعلو في قضية تشييع الجنائز، فقد جرت العادة أن يرفعَ الناسُ أصواتهم بالتهليل والتكبير أثناء السير بالجنازة، وربما وُجِدَ أناسٌ مستأجَرون يقومون بهذه الوظيفة، إذا كان الميّت من وجهاء الناس وأغنيائهم.

وكان القسَّام يُفتي بأنَّ رفع الصوت بالتكبير أثناء السير في الجنازة مكروهٌ كراهةً تحريميةً[1]، وصار له تـلاميذ كثيرون، يأخذون برأيه، وينفِّذون موكب الجنازة كما جاء في السُّنَّة النبوية.

وحدثت يوماً مُشادَّة بين أحد أنصار القسَّام وبين آخرين أثناء السير بجنازة أحد الموتى. وكتبت جريدة (اليرموك) آنذاك تتهم الشيخ القسَّام بأنه السبب فيما حدث من خلاف في المدينة، وانقسَّام الناس، وكتب رئيـس تحرير الجريدة (كمال عبـاس) مقالاً هاجم فيه القسَّـام، واتّهمه بالسـعي وراء المناصب والشـهرة، وأنه أفتى بحرمة رَفْع الصَوت في الجنازة، ليظهرَ أمام الملأ بمظهر العلماء، الذين يحاربون البدع.

فكتب الشيخ القسَّام مقالاً، وأرسله إلى الجريدة فلم تنشره، فأرسله إلى جريدة (الكرمل) في حيفا فنشرَتْه.

وقد اتّضح لمن قرأ المقالة يومئذٍ أن الذين أثاروا المشكلة هم بعض المتنفِّعين الذين اتّخذوا ذِكْرَ الله تعالى وقراءة القرآن على القبور تجارةً لهم.. وهم الذين أثـاروا الضجة بسـبب فتوى يحرِّم فيها القسَّـام أخذَ الأجرة على قراءة القرآن عند المقابـر، وساعدهم على التحريض: مَنْ أرادوا الحدَّ من نفوذه ومكانته عند الناس، وَمَنْعَه من الخطابة والتدريس

---

(١) المكروه تحريماً أحد قسمي الحرام، وهو ما يثاب على تركه ويعاقب على فعله، ولكن ثبتت حرمته بدليل ظنّي، فلا يكفَّر جاحده، هذا عند الحنفية، أما الجمهور فالمكروه تحريماً والحرام بمعنى واحد. (الناشر)

في جامع الاستقلال.

ويبدو أنَّ قصة الخلاف في (الصياح في التهليل والتكبير. . أمام الجنائز) شغلت أهلَ الرأي في المدينة.

وانقسمَ الناسُ حولها إلى مؤيِّد ومعارض، وكادَتْ أن تؤدي إلى فتنة، وخاض فيها مَنْ يعرف، ومَنْ لا يعرف، وليس في المدينة عُلماءُ يَحْكُمُونَ في المسألة، فأراد الحاج عبد الواحد الحسن - نائب رئيس (الجمعية الخيرية) بحيفا - أن يضع حدّاً للخلاف، وأن يرفعَ الأمر إلى علماء محايدين، من خارج الإقليم، ليدلوا بدلوهم في المسألة، فكتب السؤال التالي: «ما قولُ أهل العلم الحقّ في الصياح في التهليل والتكبير وغيره أمام الجنائز؟ أفتونا أثابكم الله». وقدَّم السؤال إلى الشيخين (القسّام والقصاب) لاتفاقهما في الرأي. فأجابا[1] بأنَّ ذلك مكروهٌ تحريماً، وبدعة قبيحة. . مع الأدلة من السُّنَّة الصحيحة. . مع الدعوة إلى إزالة هذه البدعة.

وأُرْسِلتْ هذه الفتوى إلى الشيخ عبد الله الجزّار مُفتي عكّا، وسُئل عن رأيه في ذلك. . . فنقل عن بعض العلماء أنه لا بأس بفعل ذلك في أيامنا.

---

(١) المجيب عن السؤال أحد الشيخين (القسام أو القصاب) ولكن الكتاب لم ينصّ على واحد من الاثنين. وجاء في رأس الفتوى (صورة الفتوى التي أفتى بها أحدُنا في حيفا).

وأرسل المستفتي وهو الحاج عبد الواحد الحسن، صورة الفتويين إلى الشيخ: محمود محمد خطّاب السبكي[1]، والشيخ علي سرور الزنكلوني، من كبار علماء الأزهر..

فجاءت فتوى الشيخين موافقةً لما قاله القسَّامُ والقصاب.. ونشر الشيخ الزنكلوني فتواه على صفحات جريدة (الشورى) التي كانت تصدر في مصر.. وهذا الذي جعل خُزيـران يضمُّ الزنكلـوني إلى القسَّـام والقصاب، في عنوان رسالته، التي ألَّفها بعنوان (فصل الخطاب في الردِّ على الزنكلوني والقسَّام والقصاب) انتصاراً لأستاذه عبد الله الجزار مفتي عكّا.

وقد تنـاول خزيـران في رسـالته موضوع (الصياح في التهليل والتكبير أمام الجنائز) وموضوعات أُخرى مما نُقِل عن القسَّام، وعارض فتوى القسَّام والقصاب، وأتى بالأدلة التي رأى أنها مدعِّمة رأيه، وجمع الزنكلوني مع القسَّام والقصاب في عنوان الرسالة، لأنه أيَّدَ، أو وافقَ القسامَ على فتواه.

عندئذٍ قام القسَّام، أو القسَّام والقصَّاب بتأليف رسالة (النقد والبيان: في دَفْع أوهام خُزيران)، وفنَّدا فيها أقوال خزيران التي وردت في رسالته.

---

(١) محمود بن محمد بن أحمد خطاب السبكي.. فقيه مالكي، له مؤلفات ـ توفي سنة ١٩٣٣م بالقاهرة. ونسبته إلى بلدة (سبك الأحد) من قُرى أشمون بالمنوفية.

سؤال: ما قولُ أهل العلم الحقّ في الصِّياح في التهليل والتكبير وغيره أمام الجنائز؟ أفتونا أثابكم الله.

الجواب: هو مكروهٌ تحريماً، وبدعةٌ قبيحةٌ، يجبُ على علماء المسلمين إنكارُها، وعلى كل قادر إزالتُها، قال الله تعالى: ﴿ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾ [الأعراف: ٥٥] أي ادعوه تذلُلاً واستكانةً، إنه لا يحبُّ المجاوزين لما أُمروا به من الدعاء، بالتشدُّق ورفع الصوت، فمن جاوز ما أمره الله في شيء من الأشياء، فقد اعتدى.

وأخرج البخاريُّ ومسلم في (صحيحيهما) من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: كنّا مع رسول الله ﷺ فجعلَ الناسُ يجهرون بالتكبير، فقال رسول الله ﷺ: «أيها الناسُ أرْبِعوا على أنفسِكم، إنكم لا تدْعون أصمَّ ولا غائباً إنكم تدْعونَ سميعاً بصيراً، وهو معكم، والذي تدْعونه أقربُ إلى أحدِكُم من عُنقِ راحلتهِ».

قال صاحب (الدُّرِّ)[1]: ويُكره في الجنازة رفعُ صوتٍ بذكرٍ وقراءة. قال ابنُ عابدين في (حاشيته) عليه: قال صاحبُ(البحر)[2]: وينبغي لمن تبِعَ الجنازةَ أن يُطيلَ الصمتَ، وفيه عن (الظهيرية): فإن

---

(١) هو الإمام الحصكفي. (الناشر)

(٢) هو الإمام ابن نُجيم صاحب (البحر الرائق في شرح كنز الدقائق). (الناشر)

أراد أن يذكرَ الله تعالى يذكرْه في نفسِه. انتهى باختصارٍ وتصرُّفٍ.

وقال الشُّرنْـبُلاني أيضاً: ويُكرَه رفـعُ الصوتِ بالذكـر والقرآن، وعليهم الصمت.

وقولهم: كل حيٍّ سيموت، ونحو ذلك خلف الجنازة بدعةٌ، قال العلامة الطحطاوي في حاشيته عليه: وفي (القهستاني) عن (القنية) يُكره تحريماً رفعُ الصوت بالذكر والقرآن خلف الجنازة. وفي (السراج) ويُستحبُّ لمن اتبع الجنازة أن يكون مشغولاً بذكر الله تعالى سِرّاً، والتفكر فيما يلقاه الميت، وأنَّ هذا عاقبةُ أهل الدنيا، فإن لم يذكر الله تعالى فليلزم الصمتَ، ولا يرفع صوته بالقراءة ولا بالذكر، ولا يغترَّ بكثرة من يفعل ذلك.

وأما ما يفعله الجهَّال في القراءة على الجنازة من رفع الصوت، والتمطيط فيه فلا يجوز بالإجماع، ولا يسعُ أحداً يقدرُ على إنكاره أن يسكت عنه، ولا ينكر عليه. انتهى.

فيؤخذ من هذا أنه يتعين على كلِّ قادرٍ على إزالة هذه البدعة أن يـزيلها، وإلا فهو آثم، وشـريكٌ لصاحبها، ويجب على كـلِّ عالم أن يُنْكِرَها، وإلا فهو داخلٌ تحت قوله ﷺ: «إذا حَدَثَتْ في أُمتي البدعُ، وشُـتم أصحابي، فلْيُظْهِر العالِمُ علمَـه، فمن لم يفعل فعليـه لعنـةُ الله والملائكة والناس أجمعين». رواه الحافظ الآجري في كتاب (السنَّة) من طريق الوليد بن مسلم عن معاذ بن جبل انتهى.

جـ ـ موضوعات الرسالة :

تضمَّنت الرسالة الموضوعات التالية :

١ ـ حُكم رفع الصوت بالتهليل والتكبير أمام الجنائز. وهو الموضوع الرئيس الذي أثار الخلاف بين الفريقين، ويرى القسَّامُ وصاحبُه أنَّ السُّنَّة في ذلك هي السكوت في حال السير مع الجنازة، وأن يكون هناك تدبُّر صامت، وذكر في النفس. ونقلَ أقوال المذاهب الأربعة المؤيدة لذلك.

٢ ـ مناقشة حول (البدعة)، ويرى أنه ليس هناك بدعةٌ حسنةٌ وبدعةٌ سيئةٌ، فالبدعة في الدين كلها محرَّمة. وإذا جاء تعبير (البدعة الحسنة) فالمقصود بها المعنى اللغوي، وهو المحدَث من الأمور التنظيمية المتعلقة بالدنيا.

٣ ـ صلاة التراويح، وكونها سُنَّة عن النبي ﷺ.

٤ ـ عدم مشروعية تخصيص قراءة سورة الكهف يوم الجمعة في المساجد.

٥ ـ عدم مشروعية قراءة الدعاء الخاص مساء ليلة النصف من شعبان، وعدم مشروعية التعبد بذلك على الوجه المخصُوص المعروف عند الناس.

٦ ـ المباح في المولد النبوي قراءة قصة المولد النبويّ المشتملة

على بيان شمائل الرسول ﷺ وفضائله، التي يكون للمسلمين بها أسوة حسنة.

٧ ـ كراهية قراءة القرآن الكريم في المساجد المقرونة بالتشويش على المصلين، مع إخراج القراءة عن حدِّها المشروع، كالتمطيط والتلحين.

٨ ـ عدم مشروعية إنشاد الأشعار في وداع شهر رمضان.

د ـ المنهج العلمي:

إنَّ مَنْ يقرأ هذه الرسالة (النقد والبيان) يطمئن إلى الدرجة العلمية العالية التي ارتقى إليها كاتبُ الرسالة، ويسلِّم له بكل ما أفتى به، فالكاتب ليس مؤلفاً متفلسفاً، وإنما هو مؤلفٌ عالِمٌ يوثِّقُ كلامَه بالمصادر المتفق على أنها المرجع في موضوعها، وهو عارف بأطوار المجتمع، والأزمنة التي طرأت فيها البدعُ الدينيّة، أو الملصقة بالدين.. فهو لا يكتفي بالقول «ليس من السنة هذا الفعل» أو القول: إن الصحابة لم يفعلوه، وإنما يذكر لك تاريخ البدعة، وأقوال العلماء القريبين من تاريخ نشوئها.

فالاحتفال بقراءة قصة المولد أحدثها الملك المظفر كوكبري صاحب إربل، ثم صارت عادةً متّبعةً، وسنةً مبتدعة، وينقل في حكمه فتوى العلامة ابن حجر المتوفى في القرن التاسع الهجري.

والاحتفال بليلة نصف شعبان بدْعةٌ، والدعاءُ المحفوظ الذي يُتلى في ليلتها من عمل المشايخ، وينقل فتاوى العراقي والنووي والزبيدي فيها.

وورودها في كتاب (الإحياء) للغزالي ليس حجةً. . فالعلمُ الشرعي لا يُؤخذ عن كلِّ كتاب قديم، فورود المسألة في كتابٍ ليس حجةً، ففي كثير من الكتب الصحيح والضعيف والموضوع.

والمؤلف واسع الاطلاع على كتب العلوم الإسلامية، متبحِّر فيها، عميق الفهم في نصوصها:

١ ـ فهو متبحّر في علم أصول الفقه، الذي تُعدُّ معرفته شرطاً من شروط الاجتهاد والفتوى.

٢ ـ وواسع الاطلاع على كتب تفسير القرآن الكريم.

٣ ـ ومتمكن من اللغة العربية.

٤ ـ وله نظر ثاقب في المذاهب الفقهية.

٥ ـ وله معرفة واسعة بمصطلح الحديث، ويميّز بين الصحيح والضعيف والموضوع، فيردّ الحديث الضعيف، ويقبل الحديث الصحيح، ويناقش مقولة: «إن الحديث الضعيف يُعمل به في فضائل الأعمال» وينقل أقوال العلماء فيه.

ومع أن المؤلف قد وثّق فتواه. بإرجاعها إلى المصادر الإسلامية الموثوقة، فإنه أراد أن يكون هناك إجماعان على صحة فتواه: إجماع العلماء القدماء، وإجماع علماء العصر في زمنه، فقدَّم نصَّ الرسالة كاملاً إلى عدد من العلماء يصل إلى سبعة عشر عالماً، وقد وقَّع كلٌّ عالم في ذيل جوابه. وفي العلماء، الحنفيُّ والشافعيُّ والمالكيُّ والحنبليّ، وجملتهم من أعلام العصر في أقاليم: مصر، والعراق، وبيروت، ودمشق.

ومن أشـهر **علماء الشام**: محمد بهجة البيطار عضو مجمع اللغة العربية في دمشق، والشيخ عبد القادر بدران العالم المشهور، ومصطفى الشطي مفتي دوما، وصالح نجم الدين التونسي الإمام المالكي المدرس بالجامع الأموي، ومحمد جميل الشطي النائب الحنبلي بدمشق، ومحمد توفيق الغزّي العامري المفتي الشافعي بدمشق.

ومن أشهر **علماء العراق**: محمد بهجة الأثري، علامة العراق، وعضو مجمع اللغة العربية بدمشق.

ومن **بيروت**: محمد راغب القباني الحسيني، خريج الأزهر.

ومن مصر: محمد بخيت المطيعي مفتي الديار المصرية، والشيخ الزنكلوني، والشيخ السبكي.

وقد جاءَت أجوبةُ العلماء جميعاً مؤيدةً فتوى القسَّام والقصاب.

هـ ـ وهذه كلمة موضوعيّة في (الوهابية) أرى أنَّ القسَّام والقصَّاب قصّرا عن قولها:

فقد جاء في الصحيفة الخامسة والعشرين: «وكُنَّا نودُّ أن نُرشِدَ الأستاذ الجزار وتلميذَه (خيزران) إلى الاستفادة من هذا الكتاب الذي لا نِدَّ له في بابه ـ كتاب (الاعتصام) لأبي إسحاق الشاطبي الغرناطي ـ ولكننا خشينا أن يرميا مؤلفه بالنزعة (الوهابية) (التي هي حجة العاجز لترويج الباطل، وإضاعة الدين) التي رميانا بها، وإنْ تقدم زمن الإمام الشاطبي على زمن محمد بن عبد الوهاب ما يقرب من (٥٠٠) سنة (لأنه لا يَبْعد أن يُعلّلا ذلك بأنه من باب أخذ المتقدم عن المتأخر)».

وجاء في المقدمة ص٣: «ورمانا بالزيغ والضلال، لاتباعنا السُنَّة الموروثة عن النبي ﷺ، وكأنه يشير إلى وصف القسَّام والقصاب بالوهابية».

ونلحظ أن المؤلفين استعملا كلمة «أن يرميا» و«رميانا بها» وهي هنا بمعنى القَذْف بأمْرٍ قبيح.

وقد فهم الشيخ محمد جميل الشطي ـ النائب الحنبلي بدمشق ـ هذا الفهم أيضاً فقال في رسالته المنشورة في آخر التأليف: «والمصيبة كلُّ المصيبة أنَّه متى قام نابغةٌ من علمائنا يخالفُ مثل هؤلاء، داعياً إلى الدين الصحيح، مثل صاحبيِّ هذه الرسالة: الأستاذين كامل القصاب وعز الدين القسَّام.. جافَوْه، وناؤوه، **ووصموه بالوهابية** وهذا

ـ ولا شك ـ من علائم الجهل والحسد» وقوله: وصموه أي: عابوه.

ونلحظ أنَّ القسَّام والقصاب يتبرءان مما «رُميا به» ويوضحان منهجهما بأنه (اتباع السنة الموروثة) وليس (الوهابية).

قلت: إذا كان مَنْ يتّبع السنة النبوية، يُوصف بأنه (وهابي)، فإن وصف (الوهابية) ليس عيباً، يُرمى به، إلا عند من ينكر السنة النبوية مع العلم، إذ إنه ليس هناك مذهبٌ يُسمى (الوهابيّة) فقد كان أتباع الشيخ محمد بن عبد الوهاب يُدْعَون (أهل التوحيد) أو (إخوان مَنْ أطاع الله) وسمّاهم خصومهم بالوهابيين نسبةً إليه. وشاعت هذه التسمية عند الأوروبيين، ودخلت معجماتهم الحديثة، وأخطأ بعضهم فجعلها مذهباً جديداً في الإسلام، تبعاً لما افتراه خصومه.

ومن أقدم ما كُتب عن جزيرة العرب بعد قيام الشيخ (تاريخ الوهابيين)، كتاب لمؤلف فرنسي ونشر في باريس سنة ١٨١٠م أي: بعد وفاة الشيخ بثماني عشرة سنة.

ومَنْ يقرأ آثار الشيخ محمد بن عبد الوهاب، فإنه لا يجد فيها جديداً، وإنما كانت جديدةً على أهل عصره، لأنه حارب كثيراً من البدع التي كان الناسُ يعدّونها من الدين وما هي من الدين. وإذا كان من خطأ، فإنه لايُنسبُ إلى الشيخ محمد بن عبد الوهاب، وإنما يُنسب إلى الأجيال التالية من أتباعه الذين كانوا يجهلون أصول الدين، وينصّبون أنفسهم

للإفتاء، وغالوا في حكمهم على الناس، وما يرونه من أفعال العباد.

و ـ الأهداف التربوية من المناظرة:

زعم أهل التاريخ أنه عندما كانت جيوش محمد الفاتح تحاصر عاصمة بيزنطة، كان البيزنطيون فيها مشغولين عن الحرب بجدالٍ محتدمٍ حول: «أيهما أقدمُ: الدجاجة أم البيضة» فضربوا المثل بهذا الجدل البيزنطي العقيم، لكل جدالٍ لا يؤدي إلى نتيجةٍ نافعة.

وعندما احتدم الجدال بين القسَّام وخزيران في قصة (الجنازة) ـ، كان الموت محيطاً بالأمة من كل جانب، وكان الداء الوبيل مستشرياً في كل ركن.

فهل في جدال القسَّام لخزيران شيء من المشابهة بالجدل البيزنطي؟

الجوابُ: ليس فيما بين الجدلين مشابهة: فالجدل البيزنطي في قصة الدجاجة والبيضة لا يؤدي انتصارُ أحد الطرفين فيه إلى قوّة الأمّة.. لأنّ الجدل البيزنطي لا يقوم على منهج..

أما جدلُ القسّام، فإنه يقوم على منهجٍ يؤدّي انتصارُه إلى بعث القوة في الأمة.

والقسَّام لم يكن غافلاً عن الأعداء، ولكن كان يريدُ أن يضعَ

الأساس المتين الذي تنطلقُ منه الأمة لقتال الأعداء، لأنَّ الأعداء الأقوياء لا يُحارَبون بأمةٍ ضعيفة.

أراد القسَّام أن يبني مجتمعاً جديداً يقومُ على منهجٍ يقومُ على قاعدةٍ قديمةٍ، مجرّبة في القرون السابقة، وأثبتت نجاحها، وهي أنّ صلاح آخر هذه الأمة، **لا يكون إلا باتباع ما صلَح به أولها، والتعاليم الإسلامية التي كانت سبب قوّة المسلمين في كل عَصْرٍ ظهرت فيه قوّتُهم هي التعاليم التي جاءت في القرآن الكريم، والسُّنَّة النبوية، وسنة الخلفاء الراشدين المهديين**، ولا زيادةَ عليها ولا نقصَ منها.. ولن ينضويَ تحت لواء الجهاد الحقّ إلا مَنْ كان متّبعاً شرعَ الله، الذي فرض الجهاد على عباده.

فالقسَّامُ إذن لم يكن غافلاً عن الأعداء، وإنّما كان يُهيِّئ العُدَّة اللازمة للقاء الأعداء.. وأول عناصر العدَّة، الجنودُ المؤمنونَ العاملونَ بما أمر الله ورسوله ﷺ.

فكل بدعةٍ مُحْدَثَةٍ تصرف عن العمل بالسنة النبوية، والبدعة يُضاف إليها بدعةٌ أخرى تصبح فيما بَعْدُ أصلاً، يُنسى معه أصل السنة النبوية، ويبتعدُ الناسُ مع تعاقب الأزمنة عن أصول الدين، ويفقدون أسباب الصلاح والقوَّة.

هذا أحد أسباب انشغال القسَّام بهذه البدعة ـ بل بكلّ البدع التي

طرأت على الدين، ولكنَّ بدعة الجنائز كان لها صدًى أوسع من غيرها، لأنها وَجَدَتْ مَنْ ينتصرُ لها، ويتخذها سبباً للهجوم على القسَّام، لاتصالها بالمنافع الدنيوية، التي يجنيها أهلُ البدع.

وما كان القسامُ يشغلُ نفسَه بتأليف هذه الرسالة من أجلها، لولا وجودُ نفرٍ ممن يلبسون زيّ علماء الإسلام، يدافعون عن الباطل.

قال العلامة محمد بهجة الأثري في جوابه عن رسالة القسَّام: «على أنّ الجدال في مثل هذه المسائل (البسيطة) أصبحَ في هذا العصر ـ عصر المسابقة والمباراة، عصر الصناعات والمخترعات، ضرباً من المضحكات، التي يخجلُ أن يتفوّه بها عاقل، وإنني لأعتقدُ أنّ الأستاذين الهُمامين: القصاب والقسَّام، وهما هما، ما كانا ليبحثا في هذه المسألة، ويؤلفا لها رسالةً، لولا وجوبُ نصرة الحق، ودَحْر شُبَه المُضلّين في الدين..».

ويمكنُ أن نُجمل أهداف القسَّام من هذه المناظرة في التالي:

١ ـ يريدُ أن يربي مجتمعاً لا يطيع إلا الله والرسول ﷺ ووليّ الأمر من المسلمين.

أما أصحاب البدع فإنهم يطيعون أهل الأهواء.

٢ ـ يريد أن يخلِّص المجتمع من التضليل التاريخي الذي يكون في الجنائز، وهو البلاء الأعظم الذي ابتُلي به الشعب الفلسطيني، حيث

توزعتْ أهواؤه بين عددٍ من الزعماء المُفسدين المتعاونين مع الإنكليز واليهود، لأجل غاياتهم الدنيوية. . . فإذا ماتَ أحدُهم، أو مات أحدٌ من أتباعهم وذراريهم، أقاموا له الجنازة التي تغطي على معايبه وتاريخه، فيستأجرون فِرَقَ المنشدين والمهللين، الذين يرافقون الجنازة، ويعلو صوت المؤذنين من على المآذن، يكبِّرون ويهلِّلون ويترحَّمون، وتُذكر المآثر الكاذبة، ويقيمون المآدب في هذه المناسبة، من مالٍ باعوا به دينهم، ويوزعون الصدقات مما سرقوه من أموال الناس. ويستأجرونَ الصحافةَ لتكتب عن تاريخه في الوطنية.

ونقل الدكتور حسين عمر حمادة عن محمد الحنفي، صاحب القسَّام قصةَ جنازة إحدى الحسينيات (من آل الحسيني) (خرجت الجموعُ الغفيرةُ في جنازتها، مع أنّها باعت أرضاً لها لليهود في اللدّ) وفيها قال القسَّام: إنْ باع الأفندي تستَّروا عليه، وإن باع الفقيرُ فضحوه، دون النظر إلى حال القسر والإكراه والخداع والحاجة الماسّة التي تعرَّض لها الفلاح الفقير، مما أجبره على بَيْع أرضه لمواطنه العربي، وليس للمستوطن اليهودي الذي كان يحصل على الأرض مباشرةً من خلال السماسرة وتجّار الأراضي العرب.

٣ـ يقول القسَّام: «إنَّ هؤلاء الذين يصيحون أمام الجنائز، اتّخذوا الديـن متجراً، وجعلوا ذِكْرَ الله آلةً لسلب الأموال»، وكثير من هؤلاء الصائحين أمام الجنائز وعلى القبور قادرون على العمل والأكل من

كسب يدهم، ومنهم مَن يملك الأموال والأملاك، وقد أكلوا حقوق الضعفاء من الرجال والنساء والولدان، الذين لا يجدون ما ينفقون، فإذا ألجأنا هؤلاء الأقوياء إلى العمل كثرتْ الأيدي العاملة في الزراعة والصناعة والتجارة، التي هي مواد الثروة الأصلية، وحفظت الزكوات والصدقات لمستحقيها.

٤ ـ من القواعد الأصولية أن جميعَ التكاليف الشرعيّة، مبينية على درء المفاسد، وجلب المصالح.

فأيُّ مصلحةٍ تُجلَبُ، وأيُّ مفسدةٍ تُزالُ، مما يفعله الناس أمام الجنائز، وفي المآتم، وعند القبور؟ وجاءَ في الحديث: «إذا مات ابنُ آدمَ انقطع عمله إلا من ثلاثة: صدقةٍ جارية، وعلمٍ يُنْتفعُ به، وولدٍ صالحٍ يدعو له»[1] وليس فيما اعتاده الناسُ شيءٌ يدخل في هذه الثلاث.

فهذه الأموال التي تُنفَقُ على تشييع الجنازة، وما يتبعُ الجنازة، أيام العزاء، وفي الخميس، والأربعين، والسنويّة ـ تُهدرُ دون أن ترجع بالفائدة على المجتمع.

وإنَّ ما ينفقه العالم الإسلامي من الأموال على منكرات المآتم وتقاليدها، لو صرفت على تقوية الجيوش، وإنشاء المؤسسات الاجتماعية والتربويّة والاقتصادية ـ لأنتجت خيراً للوطن.

---

(١) متفق عليه. (الناشر)

وأيُّ بلدٍ كانت أحوج إلى هذه الأموال من فلسطين التي يتهدَّدها الفناء من كلِّ جانب؟

إنَّ ما يُنْفق على جنازة ثريّ أو زعيم يُسلِّح بلدةً لتستطيع درءَ الأعداء عنها.

وهذا بعض ما قصده عزّ الدين القسَّام من محاربته بدعة (الجنائز) وتوابعها.

ومن المشهور أنَّ عزّ الدين أفتى بجواز تأجيل أداء فريضة الحج، في الظروف التي تمرُّ بها فلسطين، وتحويل نفقتها إلى شراء السلاح، مع أنَّ الحج ركنٌ من أركان الإسلام.

وعزّ الدين القسَّام عابَ على المجلس الإسلامي إنفاقَ الأموال لزخرفة المساجد وهي بيوتُ الله.

٥ ـ قال المؤلف في آخر رسالته (النقد والبيان): «ويا حبذا لو يحكم العلماء في مسألة الجنازة، وبقية المسائل التي نازع فيها الخصمُ العنيدُ، ليظهر الحقُّ، ويزهقَ الباطلُ، وأهم شيء يجبُ انتباه علماء العصر إليه: أشباهُ تلك الواقعات، وتوضيح أحكامِ الشريعةِ فيها **ليعود للدين مَجْدُه، وللإسلام زهرتُه**، ليقف المجازفون في الملّةِ السمحةِ عند حدّهم، ولا يطمعوا في إغواءِ غيرهم، ويكون في ذلك الأمنُ من استشراءِ داءِ **المبشِّرين** (المنصّرين)؛ لأن المسلمين متى وقفوا على

معالم الشـريعة الصحيحة ـ لا يمكن أن يلتفتوا إلى السفساف، ولا أن يعتنوا بالزعانف.

ونفهم من هذا النص، أنَّ القسَّام يعمل لكي «يعود للدين مجده، بسيطرة السُّنَّة، ومحق البدعة، وعودة مجد الدين، هو عودةٌ لمجد أهله المتمسكين به

فالبدعة تُوهي الصلة بين المسلمين والشريعة، فيضعفون.. فإذا ضعفتْ سيطرة الدين الصحيح على قلوب المسلمين، وجدَ (المبشّرون) مرتعهم، وحقّقوا غاياتهم.

وكانت فلسطين هدفَ المبشرين في زمن الانتداب البريطاني، حيث عُقِد المؤتمر التبشيري الأول بدعوة ورعاية الإدارة البريطانية، وقد ثبَتَ أن الجنرال اللنبي ـ قائد القوات البريطانية ـ أقام حفلةً في القدس، دُعي إليها رجال الدين الإسـلامي والمسـيحي فوصل الجنرالُ ممتطياً جواده، تحيط به ثلّة من الحرس الخيّالة البريطاني، ويرافقه ضابط عربي يُدعى (جبرائيل باشا) يقوم بالترجمة. وبعد أن حيّا الحاضرين قال: «الآن انتصرت الحرب الصليبيّة، وأصبحت القدسُ لنا أبديّة».

وقال أيضاً كلاماً قريبـاً مما قاله الجنرال اللنبي قـائد القوات الفرنسيّة التي دخلت دمشق، عندما زار قبر صلاح الدين الأيوبي، بجوار الجامع الأموي.

ولذلك عاب القسَّامُ قراءة قصة المولد النبوي المقتصرة على سيرة الولادة، وما كان قبل البعثة فقط، مع ما دخل فيها من الأمور التي لم تثبت. . وأنكر قراءة المولد بالغنـاء والتمطيط والمبالغـة بتوقيعه على ألحان الموسيقى.

ذلك أنَّ المولد النبوي بهذه الصورة، يقرّبه من التراتيل الكنسيّة، ويقرّبه من الاحتفال (بعيد الميلاد) في رأس السنة الميلاديّة، مقترناً بفعل الموبقات. . مما يفقد السيرة النبويّة جلالها، ويحول دون الاقتداء بها. فضلاً عن أنَّ القصص الموضوعة التي وضعها القصاصون حول المولد، وحياة النبي ﷺ قبل البعثة، هي من الأبواب التي يدخل منها الطاعنون في نبوّة محمد ﷺ.

ولهذا حرص القسَّام على أن يكـون الاجتماع المعقود لسـماع السيـرة النبويـة مما يعتني فيه المتكلمـون بالسيرة النبويـة الصحيحـة المشتملة على بيان شمائل الرسول ـ ﷺ ـ في الحرب والسلم، لتكون قدوة للناس في حياتهم فهو يقول: «أما قراءة قصة المولد النبوي الشريف المشـتملة على بيان شمائل الرسول ﷺ وفضائله التي لا يمكن للأمة الإسلامية أن تصلَ إلى ما كان عليه أسلافها ـ من المجد والسؤدد ـ إلا بالتحلّي بها، فنحن من أشدّ الناس دعوةً إليها».

٦ ـ دراسة الواقع الاجتماعي شرط في نجاح الواعظ والمعلم والمُربّي:

كلٌّ من تولّى وظيفة التوجيه في المجتمع، يقوم بأمرين: الأول: التعليم، والثاني: التقويم والتوجيه.

أما التعليم: فهو تعريف الجاهلين بما يجب أن يعرفوه: وهذا يتطلَّبُ من المعلِّم أن يكون واسعَ الاطّلاع على الفنّ الذي يعلِّمه الناسَ.

وأما التوجيه والتقويم: فإنه يفرض على المعلم الربطَ بين المعرفة والسلوك، فيصحح ما صحَّ من سلوك الناس، ويقوِّم ما اعوجَّ، ويوجِّهه نحو الأفضل. والتصحيح والتقويم يتطلَّبان من المعلم أن يكون عارفاً بأنماط سلوك الناس في المجتمع، مطلعاً عليها بالمشاهدة.

هذا المنهج طبّقه عزّ الدين القسَّام على نفسه، ولذلك كَثُرَ اختلاطه بالناس، لحضور أفراحهم وأتراحهم، في الأسواق والبيوت، وفي أماكن العمل، في الريف وفي الحاضرة. فنجح في وظيفة الوعظ والتوجيه نجاحاً كبيراً، لأنه يقدم الموعظة التي تشتد الحاجة إليها، كما يقدّم الطبيبُ الدواء الناجع إذا فحص جسم المريض فحصاً دقيقاً.

فالقسامُ كان مطلعاً على تفاصيل الحياة الاجتماعية في المدن الفلسطينية، ويعرف عن قُرب ما يجري في احتفالاتها بالمناسبات... فنجده يصف ما يجري في أثناء الاحتفال بالمولد النبوي فيقول: «وأما الذي أنكرناه وننكره أيضاً، فهو ما عمَّت به البلوى من قراءة المولد بالغناء والتمطيط البشع... وكثيراً ما سمعناهم يقولون: «حبيبي يا... يامو. حا. مد» وأمثال ذلك مما يشمئز منه كلُّ مسلم».

ويقول: «ونرى المدعوين يشتغلون بشرب الدخان حتى يتمّ

الجمع، ويحضر القارئ، فتكون عند ذلك الغرفةُ التي يُراد أن يُقرأ فيها العُشْر من القرآن والمولد مملوءة دخاناً ذا رائحة كريهة. وفي أثناء القراءة ترى الجمع في الغرف الأخرى يشربون الدخان (التوتون والتنباك)... بل وجدناهم يرتكبون أكبر من ذلك في بعض الأحيان كشُرْب الخمر».

ولم تقتصر معرفة القسَّام على ما يجري في المجتمع الحيفي، أو الفلسطيني، بل اتسعتْ معرفته لتشمل أنحاءً من العالم الإسلامي.. ففي مجال ردّه على خزيران لاعتباره العُرْفَ مُخصِّصاً للنص الشرعي، يقول القسَّام: «إن العرف العام لا يكون حجةً إلا إذا كان من المسلمين كافةً في البلدان كلها، وذلك ما لا يمكن إثباته، لأن المسلمين في معظم البلاد ـ كمكّة، والمدينة، والأناضول، والرومللي والهند[1]، وأفغانستان، وبخارى وجاوى، وغيرها سائرون على العمل بما كان عليه رسولُ الله ﷺ وخلفاؤه الراشدون من تشييع الجنازة بالصمت. يعلم ذلك كل من زار تلك البلاد، ووقف بالمشاهدة على أحوال أهلها ـ لا كما ادّعاه حضرة خزيران رجماً بالغيب ـ.

لأن (أحدنا) شاهد ذلك في معظم البلدان التي ذكرناها شهادة عَيْن».

---

(١) كانت الهندُ سنةَ تأليف الكتاب، قطراً إسلامياً، وذلك قبل أن تنفصل عنها (الباكستان).

ثالثاً ـ الجرأة في قول الحق :

كان عزّ الدين القسّام جريئاً في قول الحق، لا يخاف في الله لومة لائم، ولا يعرف المهادنة في قضية تتعلق بالإسلام وتعاليم الإسـلام. فكان يجهر بالدعوة إلى الجهاد والتضحية بالنفس والمال لطرد الأعداء، وإنقاذ الوطن، مع وجود سلطات الانتداب الرهيبة، وكان يقرِّر من على المنبر، أنّ الجهاد فريضة على المسلمين، وإنه لا مفرَّ من محاربة الإنكليز وأعوانهم، وكان يطلب من الناس ـ جهراً ـ شراء السلاح والتدرب عليه.

واستدعته سلطات الانتداب مرةً للتحقيق حول تركيزه على آية ﴿ وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ ﴾ [الأنفال: ٦٠]، في إحدى خطبه، فأجاب القسّام، بأن الآية الكريمة جزءٌ لا يتجزأ من القرآن، وأنّ واجبهُ يحتمّ عليه شرح هذه الآية في ظل الظروف العصيبة التي تمرُّ بها البلاد.

وطلبَ مرة من المصلين أن يقاوموا الأعداء فوقف أحد المصلّين وسأله: بماذا نقاوم الأعداء ونحن لا نملك سلاحاً؟ فأجاب الشيخ: بقتلِهم وأخذ السلاح منهم.

وروى الشيخ أحمد السعدي ـ رئيس بلدية جنين ـ أنّ القسّام، رفع يوماً مسدساً أمام المصلين، وكان قد دبّر طريقة لإخفائه، وقال: منْ كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فليقتنِ مثل هذا.

وسمع أحدهم القسّام في إحدى خطبه يقول: أيها المسلمون! لقد علمتُكم دينَكم، حتى صار كلٌّ واحد منكم عالماً، وعلمتكم أمور وطنكم، حتى وجب عليكم الجهاد. ألا هل بَلَّغْتُ اللهم فاشهد.

وكان إذا تحدث في دروسه عن شخصية مجاهدة، ختم حديثه بالدعاء «ربنا ارزقنا الشهادة في سبيلك».

رابعاً ـ دراسة الواقع ووصف العلاج:

وقد أثّرت شخصية القسّام الجهادية الجريئة في خطبه وأحاديثه، فكانت تتناول الحال السائدة والتغيرات السياسية. وهذا مما أغضب الإنكليز، لأنه فاجأهم بعرض جديد للدين، لم يكونوا يظنون أنّ أحداً يعرفه، أو يجرؤ على قوله: فالإنكليز لا يعترضون على أداء المسلمين شعائر العبادات في المساجد، ولكنهم فوجئوا بنوعية من الرجال تعرِضُ الإسلام بصورته الشاملة، وتهتم بقضايا المجتمع، وتبرز السياسة الإسلامية في الجهاد. ولذلك اهتزّ الإنكليز، لأنهم أصبحوا يواجهون الإسلام بشكل غير الذي أرادوه ـ مقصوراً على العبادات ـ.

فدعوة القسّام كانت إحياء لإسلام الصحابة الفاتحين، وعباده المجاهدين، وهو ما يخشاه الاستعمار البريطاني، فلم يكن غريباً أن يُوْضَع القسّام تحت المراقبة، وأن تحصى عليه حركاته، ويحاسب على أقواله.

خامساً ـ القدوة:

من مشهور قوله: إذا كنتَ إمام الناس فكن أمامهم. ويريد بذلك أن يكون الإمام قدوةً للناس في التزام المبادئ التي يدعو إليها، والعمل بها. وطبّق القسّام شروطه على نفسه، فخرج عن ماله وبيته للنفقة على الجهاد، وفعل ذلك عندما كان في جبلة، حيث باع بيته واشترى بثمنه سلاحاً.

سادساً ـ العلمُ قبل القول والعمل:

يستدلُّ قارئ الكتاب الذي ألّفه القسّام والقصاب، على أن القسّام كان واسع العلم بالعلوم الشرعيّة: الفقه والحديث، والتفسير، والأصول. ومع أن القسّام كان في حيفا، وكان قبلها في جبلة، وهما مدينتان لاتضاهيان المدن الكبرى، ومع أن حركة الطباعة كانت في بدايتها، فإنَّ منْ يقرأ كتاب (النقد والبيان) يجد عشرات من أمهات الكتب التي رجع إليها القسّام. ولم يكن القسّام حاطب ليلٍ، ولكن كان ذا فهم ثاقب في القضايا التي ناقشها، وكان يميِّز بين الصحيح والضعيف من الأحاديث النبويّة.

ويبدو أنّ القسّام توسّع في قراءَة (المغازي النبويّة)، وتاريخ الفتوح الإسلامية، وسير قادة الصحابة، وأخبار شهداء الجهاد، وامتد علمه بالتاريخ إلى القرون الإسلامية التالية، ودرس أسبابَ الضعف

والقوة فيها. . . واستفاد من هذه المعلومات التاريخيّة في الدعوة إلى الجهاد، والتنظيم والتدريب.

ومع سعة علمه، فإنه لم يكن يستبدُّ برأيه، بل كان يشاوِرُ، ويعرض فتاويه على كبار العلماء في مصر والشام، وقد وافقه جَمعٌ من العلماء على فتاويه وأعماله.

سابعاً ـ الإعداد المرحلي، والتدرّج في الإعداد:

عندما وصل القسّامُ إلى فلسطين كانت واقعة ـ كغيرها من الأقاليم العربية ـ تحت وطأة الجهل، والتخلف الاقتصادي، وتحت وطأة البدع الدينيّة والخرافات التي تسرّبتْ إليهم عبر التاريخ. . وإذا اجتمع الجهلُ والفقرُ، أديا إلى الموت.

ليس مَنْ مات فاستراحَ بميْتٍ   إنّما المَيْتُ ميّتُ الأَحياءِ
إنَّما الميْتُ مَنْ يعيشُ شقيّاً   كاسفاً بالُهُ قليلَ الرَّجاءِ
فأناسٌ يُمصَّصُون ثماداً   وأناسٌ حلوقُهم في الماءِ

والثماد: الماء القليل الذي لا يجري. والأبيات للشاعر الجاهلي عديّ بن الرعلاء.

والبيتان الأول والثاني ينطبقان على حال السواد الأعظم من الشعب العربي، والبيتُ الثالثُ ينطبق على الحال الاقتصادِية، فإنّ أكثرَ خيرات البلاد ـ مع شُحِّها ـ تستمتع بها حفنة من الناس، والقليل القليل

يتركونه للكثرة الكاثرة من الناس، للإبقاء على حياتهم، ليكونوا خدماً للقلة... وشعبٌ هذه حالُه، لن ينتصرَ في الجهاد، ولذلك بدأ القسّام بما بدأ به الوحي: ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴾ [العلق: ١ ـ ٤].

وهي مرحلة التعليم، يرافِقُها نفث الحياة في روح أموات الأحياء، وبثّ الأمل في نفوس الأشقياء، ووصل حبلهم بالله القادر على الرزق والعطاء، وربط الأمل والرجاء بالتقرب إلى الله، مع الصبر على ما يلاقي الإنسانُ من المصاعب والمشاقّ.

ثامناً ـ التواضع ومخالطة الفقراء والعمال والفلاحين:

جاء في الحديث: «مَنْ تواضع لله رفعه» والمعنى: تواضع طالباً ثوابَ الله. وقيل: إنّ التواضع لله تعالى، الرضى بالدون من المجالس.

وقد كان القسَّام يحرصُ على الاتصال بكل فئات الشعب، منفعلاً بهموم الناس، بعيداً عن الكبرياء والغرور، يجالِسُ الفقير والغنيَّ، متدينين وغير متدينين، ويغشى مجالس الناس في المساجد، والمقاهي، و(المضافات)، ويشاركهم الأفراح والمآتم.

وكان يمتلك قلوبَ الناس بشخصِيته الجذّابة المحبوبة، وكان موصوفاً بِحُسْن السيرة والمعاشرة، محدِّثاً لبقاً، وخطيباً بارعاً، قوي الحجة، وكانت أقواله توافِقُ أفعاله وحياته، فهو الرجل الزاهد في ملبسه

ومأكله، فغلب على بيته طابع بيوت الفقراء. . . فألِفَهُ العمال والفلاحون وألفهم، وأحبهم وأحبوه، كلٌّ يرى في صاحبه المنقذ:

وفي هذا المعنى يروي عبد الغني الكرمي القصة التالية:

«رآني القسَّامُ بعد أسبوع من تعليق الأبطال[1] الثلاثة على المشانق في ١٧/ ٦/ ١٩٣٠م ألعبُ النرد في جمعية الشبان المسلمين، وسمعني أسخرُ من قروي جاء يتداوى في عيادة (الجمعية الإسلامية)، إذْ أشكلَ عليه التفريقُ بين الاسمين (الجمعية الإسلامية) و(جمعية الشبان المسلمين) لتقاربهما، فانتهرني، وأخذ بيد القروي إلى العيادة، ولم يتركه حتى اشترى له العلاج. وقال لي ذات يوم: يمين الله إن شباب العصر الأخير ابتعدوا كثيراً عن النهج القويم، وأمعنوا في الضلال، فلم يبقَ على هذه الأمة إلا أن تعتصم بما في قلوب الفلاحين والعمال من بساطةٍ وإيمانٍ، وبُعْدٍ عن بهارج مدنيّتكم الزائفة، وعلومكم وآدابكم التي تقصي الإنسانَ عن الفطرة المستحبة.

فقلتُ له: أتدري أنهم يتهمونك بالشيوعية إذا سمعوك؟! فقال: انظرْ، لقد اشتعل رأسي شيباً، وخبرتي الطويلة تجعلني أرجو خيراً من الفلاحين والعمال: فهم واثقون بالله، مؤمنون بجنّات الخلد واليوم

---

(١) هم: عطا الزير، ومحمد خليل جمجوم من الخليل، وفؤاد حسن حجازي من صفد. وقد حكم عليهم الإنكليز بالموت لقيادتهم الجماهير في ثورة البراق سنة ١٩٢٩م.

الآخر، ومن كانت هذه صفاته كان أقربَ الناس إلى التضحية، وأجرأهم على الإقدام، أضف إلى ذلك أنهم أقوى بُنْية، وأكثر احتمالاً للمشاق والمتاعب».

تاسعاً ـ السريّـة والاستقلاليّـة:

كتب الأستاذ أكرم زعتير في (يوميات الحركة الوطنية). (١٩٣٥ ـ ١٩٣٩) في ٢٠/ ١١/ ١٩٣٥م: «كنتُ في الساعة الرابعة والنصف مساءً أتحدث مع السيد بشير الشيخ ياسين. . وأعلم أن بشيراً المذكور وطني مؤمن، وأنَّ صداقةً تربطه بالشيخ عزّ الدين القسّام، رئيس جمعية الشبان المسلمين، وقد عرفَ أنه غادر حيفا منذ مدة، ولم يُعرف مقرّه، فأخذ الناس يعللون سبب اختفائه، وفيهم مَنْ أساءَ الظن به، وقال بعضهم: إنّه أحسّ أنّ الناس ضاقوا به ذرعاً، وأخذَ بعضُهم يحملون عليه، فاختفى.

وقال السيد بشير: وهو ـ سهّل الله عليه ـ قد جمع مُنذ مُدّة دراهم لشراء أسلحةٍ وكان ـ الله يصلحه ـ يجمع الدراهم بحجة إجراء إصلاحات في المسجد، ثم لم ير الناس إصلاحات، ولم تَرَ أسلحة، فظنَّ بعض الناس أنه ذو جَشَعٍ ماديّ، وهذا مستغرَبٌ ولا يمكن.

فقلتُ لبشير: معاذ الله، إنني أعرفُ صديقي المؤمن الشيخ عزّ الدين كما تعرفه، حرامٌ أن نُلقي التّهَم هكذا جزافاً.

فأجابني: وأنا أُقدّره، ولكن يا أخي: لماذا هذا الاختفاء؟!»

وقال في مذكرات اليوم نفسه: «اتصلتُ تلفونياً ببلدية جنين (من نابلس).. فردَّ عليَّ حارس في البلديـة، وسألته عن الأخبـار فقـال: حدثت معركة بين عصابة عربية وبين الإنكليز وقُتل بعض أفرادها، وقُتِلَ إنكليز، وجيء بجثث القتلى إلى المدينة (الدنيا قائمة قاعدة) ولا أعرف أكثر من هذا وأغلق (التلفون) فوراً.

فاتصلتُ بالهاتف بالسيد ماجد القطب، صاحب مكتب الصحافة، ومراسل معظم الصحف، وأخبرتُه بما سمعتُ. فقال لي: الآن أستأجرُ سيارة خاصة إلى جنين... وبعد ثلاث ساعات عاد ماجد يلهث، وبادرني صائحاً: «حـوادث مهمة ـ أخبـار خطيرة جداً.. استشهد الشيخ عزّ الدين القسّام وأربعة من إخوانِه في العصابة.. فصرختُ: استشهد القسّام؟! فقال: نعم.

فاتصلتُ بالأخ رشيد الحاج إبراهيم في حيفا، وأنبأتُه بالحادث الذي لم يكن قد علم به فتلقاه باكياً، وسمعتُ نشيجَه.

ومما كتبه ماجد القطب، في وصف ما رأى: «وتقدمتُ من أحد المجروحين وهو الشيخ نمر حسن السعدي، وأسعفتُه بالماء، وسـألتُه أسئلة لم يجبني عليها إلا بعد أن سألني عن اسمي، وبلدي، ومذهبي، وسبب سؤالي.

قال: (أي المجروح) إنَّ أفراد عصابتنا قد تأسـست منذ سـنتين

برئاسة فضيلة رئيسنا الشيخ عزّ الدين القسّام، وكُنَّانجتمع سراً في حيفا، خرجنا من حيفا منذ شهر تقريباًبعد أن اتفقنا على نُصرة (الدين والوطن) وقَتْل الإنكليز واليهود، لأنهم محتلون وطننا.

وبوصولنـا إلى سـهل بيسـان قتلنا الجاويش اليهودي، وكان معه جنديان عربيان فلم نقتلهما.. وكُنّا مسلحين بالبنادق، ومعنا كمية من الخرطوش، وقداشترينا هذه البنادق ورصاصنا بما وفّرناه من مصروفنا.

إن جمعيتنا سريّة، وكنا لا نقبل فيها إلا مَنْ كان مؤمناً مستعداً أن يموت في سبيل بلاده.

ثم قال: إننا لم نتعرض لأحد من الوطنيين، وكُنَّا نشتري غذاءَنا بالنقود، ولا نلزم أحداً بأن يقدم لنا غذاءً بالقوة، وغايتنا إنقاذ الوطن فقط.

وقال الصحفيُّ ماجد: والتفتُّ إلى جثمان الشيخ عزّ الدين، فوجدتُّه يلبس عمامة وقفطاناً، وهو ذو لحية بيضاء، وكان مسلحاً بمسدس كبير..». اهـ. كلام زعيتر.

وقد نقلتُ هذا الكلام لما فيه من الشواهد الكبيرة على ما عنونتُّ به لهذه الفقرة(السريّة والاستقلال) وأُسجل الشواهد التالية:

أ ـ الاستاذ أكرم زعيتر:

أديب وصحفيّ ألمعيّ، ورجلٌ أحبَّ أمته ووطنه، ورصد أحداثها

الكبيرة والصغيرة، وشارك عزّ الدين القسّام في جمعيات الشبان المسلمين وعرف القسّامَ خطيباً، وإماماً، وموجهاً. . ولم يشكَّ في صدق نيّاته.

ومع ذلك لم يستطع أن يقدّم تفسيراً لاختفاء القسّام، ولم يخطر على باله لحظةً أن يكون القسّام قائد عصابة حربية منظمة ولم يقدّر ذلك في واحد من احتمالات اختفائه.

مع العلم أن جماعة (حزب الاستقلال) الذي ينتمي أكرم زعيتر إليه، تزعُمُ أنّ القسّام كان أحد أعضاء الحزب.

ولو كان أكرم زعيتر يعرف شيئاً عن تنظيم القسّام، لأعلنه للناس بعد استشهاد القسّام، حيث فشا سِرُّ التنظيم. . . فأيُّ أسلوب في إحكام السّرية اتبعه القسّام؟!

٢ ـ السيد بشير الشيخ ياسين، وصفه زعيتر بأنه «وطني مؤمن»، وأنَّ صداقة تربطه بالقسّام، ومع ذلك صدر عنه السؤال التعجبي «ولكن ياأخي لماذا هذا الاختفاء إذن» وكان بشيرٌ هذا يقدّر القسّام حقّ قدره، ويظن فيه خيراً، ولكنَّ ظنَّه مشوب بشيء من الشكّ والحذر، ونأخذ هذا الشك من قوله: «سهل الله عليه»، وقوله: «وكان اللهُ يُصلحه»، فهذان الدعاءان يقالان عندما يكون في نفس القائل شيئاً ينكره، ولكن لا يريد أن يبوح به.

فكيف خفيت على هذا الصديق المعجَب قصةُ تنظيم القسّام

الجهادي مع أن عددهم ليس بالقليل، كما سيأتي في فصل لاحق؟

٣ ـ رشيد الحاج إبراهيم: تربطه بالقسّام علاقة وثيقة وشاركه قيادة جماعة الشبان المسلمين.. وكان رئيساً للجمعية الإسلامية في حيفا، وعضواً في المجلس البلدي، ومديراً لفرع البنك العربي في حيفا، توفي سنة ١٩٥٣م فكُتبَ في رثائه:

إنه الزعيم الشعبي الكبير، ذو الرأي النافذ، والكلمة المسموعة، كان لا يعلو على قوله قول في حيفا وقضائها. ومع ذلك لم يدرْ في خلده أنّ صاحبه القسّام يقود عصابة جهادية.

٤ ـ قول الصحفي ماجد القطب إنّ الجريح، لم يجب عن أسئلته إلا بعد أنّ سأله عن هُويّته، وسبب السؤال، وهذا يدل على مستوى التربية العسكرية (في السريّة وأخذ الحذر، وحفظ اللسان) التي صبغ بها القسَّامُ أصحابه.

٥ ـ قول الجريح «قد تأسستْ عصابتنا منذ سنتين، وكُنَّا نجتمع سراً في حيفا.

وسنتان، مدة ليستْ قصيرة، لمن يريد أن يفهم ما يدور في محيطه.

٦ ـ قول الجريح: لا نقبل في جمعيتنا السريّة إلا مَنْ كان مؤمناً مستعداً أن يموت... وهذا يعطينا أنموذج جماعة القسّام: فالغاية هي الموتُ في سبيل الله.

٧ـ وأخيراً: فإن المخابرات البريطانية، وجواسيسها، والمخابرات الصهيونية وعملاءَها، لم يستطيعوا أن يكتشفوا تنظيم القسَّام العسكري. .

أما الاستقلالية، فشواهد (السريّة) كلُّها تدل عليها. والاستقلاليّة في عمل (وطني) لا تعني الاستبداد بالرأي، ولا تعني الأثرة، لحيازة مكاسب اقتصادية أو مراكز اجتماعية، ولكن استقلالية جماعة القسّام نابعة من اختلاف المنهج، الذي اتبعه القسّام عن المنهج المطروح في الساحة الوطنية: وقد رأينا أن أحد أتباع منهج القسّام ذكر أنهَّم لم يكونوا يقبلـون في التنظيم إلا «المؤمـن بالله، الذي يحب الموت في سـبيل الوطن»، ومعنى هذا أنهم يؤمنون بأسلوب الكفاح المسلح لطرد الأعداء عملاً بقوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠]

أما الشعار الذي يرفعه أتباع الأحزاب الأُخرى، فهو الحلّ السلمي، والطريق الموصلة إليه (المظاهرات، والمفاوضات). . ولا ننكر أنّ أتباع الأحزاب، يحبون وطنهم، ويريدون تحريره، ولكنهم ليسوا مستعدين للاستشهاد في سبيله، لأنهم يرغبون في جني ثمرة التحرير بأنفسهم في الدنيا: وكل واحد منهم يتساءَل: ما الفائدة المادية الملموسة التي أجنيها إذا قُتلتُ ثم تحرر الوطن؟!

ثُم إنَّ أهل فلسطين ـ أو الجيل الذي نؤرخ له ـ لم يألفوا الاجتماع حـول المبادئ الفكرية أو الروحيّة، فالسـواد الأعظم من أهل المـدن

والأرياف يجتمعون للعصبية العائلية (القبلية) أو للتحالف مع صاحب العصبية الأقوى. وقد رأينا (القيسيّة واليمنية) كانت مسيطرة حتى بداية العصر الحديث.. ثم تحولت في أوائل الاحتلال الإنكليزي إلى (حسيني) و(نشاشيبي) و توزعت العائلات الأخرى إلى مؤيدين، أو حلفاء لواحدة من هاتين القبيلتين.. ولا نبالغ إذا قُلْنا: إن كثيراً من أهل فلسطين كانوا يأنفون من الانصياع لغير زعيم القبيلة (المختار) أو إلى الحليف، وهذا خُلقُ ذميم، يحول دون اللقاءات الفكريّة.

ومنذ الاحتلال البريطاني لفلسطين، بل في أعقاب الحرب العالمية الأولى، بدأت تظهر مصطلحات هذا سوري، وذاك فلسطيني، أو أردني، لمن كانوا قبل أيام يشملهم اصطلاح سورية أو بلاد الشام. وما زال الذين يؤرخون لمدة العشرينيات، يقولون: عزّ الدين القسّام سوريّ من جبلة. وكامل قصاب سوري، وفلان أردني، وفلان لبناني مع أن سناجق فلسطين بقيت تابعة حتى نهاية العصر التركي لولاية الشام، ولم يكن مصطلح (فلسطين) موجوداً في التقسيمات الإداريّة[1].

---

(١) ونذكُر للتاريخ، أن أصواتاً كثيرة بقيت مخلصةً للوحدة، ولا تحيد عن استخدام مصطلح (سورية الجنوبية) أو جنوب سورية، للدلالة على إقليم (فلسطين)، واستخدام مصطلح (سورية الشمالية) للدلالة على إقليم سورية الأمّ، أو سورية الشام وبخاصة زعماء الحركة الوطنية في سورية الشمالية.
ففي كلمة أرسلها جميل مردم بك بمناسبة تأبين القسام، لم ترد كلمة (فلسطين) أو (سورية) وإنما أطلق على إقليم فلسطين (سورية الجنوبية) وعلى إقليم سورية=

وعزّ الدين القسّام وافدٌ من جبلة، ولم يهاجر إلى حيفا بقبيلة فيها العدد، وإنما هاجر مجاهداً، ومعه اثنان فقط من بني (القسّام) وهما ابنا أخيه.. ويُظَنُّ أن عزّ الدين القسّام، لو أعلن عن نفسه قائداً، وزعيماً لحركة جهاديّة، للَقي العنت من أهل فلسطين، قبل أن يلقاه من الإنكليز، ولكان أوجد فيه زعماءُ الوطنية ألف مطعن، وما كانوا ليتركوه حتى يتخلل المتزعمون في صفوف منظمته، طلباً للوجاهة، فينتقل الشقاق إلى الصفوف فيفسدها.

= (سورية الشمالية)، وفي كلمة للدكتور توفيق الشيشكلي، نائب حماة قال: فيا سكان سورية الجنوبية ويا سدنة المسجد الأقصى سلاماً وفيراً وعزاءً... وفي يوميات أكرم زعيتر من سنة ١٩٣٥ ـ ١٩٣٩م يراوح بين لفظ (سورية الجنوبية) ولفظ (فلسطين)، وقد يطلق على القطر السوري لفظ (سورية الأمّ).

ولكن العصبية الإقليمية أخذت تشتدّ مع مرور السنوات، وتكريس الانفصال، وظهور زعامات تعمل على زيادة التشرذم، ليكون لها نصيب من كراسي الحكم.

وقد روى لي أستاذي الدكتور شاكر الفحام ـ عضو المجلس الاستشاري لهيئة الموسوعة الفلسطينية ـ ورئيس مجمع اللغة العربية في دمشق ـ أنَّ مسؤولين في منظمة التحرير الفلسطينية عابوا على الموسوعة الفلسطينية أنها جعلت (عزّ الدين القسام) من مواد الموسوعة. وقالوا: إن عزّ الدين القسام، رجلٌ من سورية، وليس له مكان في الموسوعة الفلسطينية، لأنها مخصّصة للقطر الفلسطيني...

ولكن الحقيقة التي أخفوها، أنّهم كرهوا وجودَ القسام في الموسوعة، لأنهم يخشون أن يظهرَ تاريخُهم خالياً من الأمجاد إذا قيس بتاريخ عزّ الدين القسَّام.

فكان القسَّامُ قائداً حكيماً عندما كتم أمر تنظيمه عن زعماء البلاد الذين تربطهم به علاقة مودّة، لأنه يعرف أنَّ الرغبة في الزعامة التي نشأ عليها أهل فلسطين قد تفسد المودّة، ويعلو صوتها على كلِّ علاقة.

وقد تتبَّعتُ أسماء عشرات من أتباع الحركة القسّاميّة، فلم تقع عيني على واحد ينتمي إلى عائلة أو قبيلة ذات نفوذ اجتماعي. فَجُلُّ أتباع القسَّام من العمّال والفلاحين الذين شرح الله صدورهم الإيمان، واستطاعوا أن يتخلصوا من ربقة العصبية: البلدية، أو الإقليميّة، أو القبليّة، وانقادوا للأمير الذي دلهم على طريق الخير.

ومما يدلُّ على حسد رؤساء الأحزاب للقسّام، أنهم لم يحضروا جنازة الشهداء، مع أن الأستاذ أكرم زعيتر نشر بياناً دعا فيه الأحزاب والزعماء والهيئات إلى الاشتراك في جنازة الشهداء. قال أكرم زعيتر في مذكراته: «وقد كنتُ في أثناء التشييع حريصاً على معرفة مدى الاستجابة للنداء، فرأيتُ وفوداً من صفد وعكا وجنين وبيسان وطولكرم ونابلس، وزحوفاً من جميع قرى حيفا، ولكنني لم أشاهد رؤساء الأحزاب مما يستلزم التنديد بهم في المقالات التي أنتوي كتابتها تعليقاً على الحركة البطولية القسّاميّة».

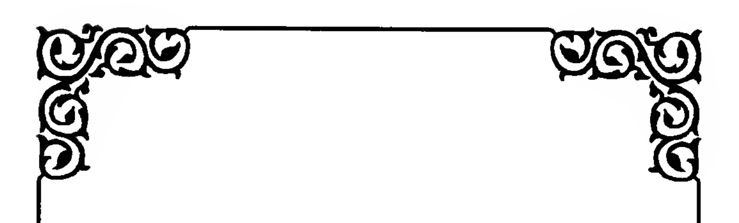
وقال أكرم زعيتر في ٢٤/ ١١/ ١٩٣٥م: «شرعتُ أكتبُ تعليقات على حركة القسّام وقد نشرتْ (الجامعة الإسلاميّة) في حديث الصباح مقالاً لي، وعنوانه: (وَحْي استشهاد القسّام هل أنتم أعداء الإنكليز

أم أصدقاء) إلى رؤساء الأحزاب والزعماء والمحامين، وفيه وجّهتُ أسئلة واضحة إلى رؤساء الأحزاب الذين سيقابلون المندوب السامي غداً ويقدمون له المذكرة بمطالب البلاد، إذا كانوا سيذكرون له حادثة القسّام وعبرتها؟.

وإلى الزعماء الذين لم يمشوا في تشييع القسّام ولم يبرقوا بالتعزّية به أو تمجيد بطولته وإلى المحامين المفروض فيهم أن يبادروا إلى التطوع في الدفاع عن القسَّاميين». اهـ.

● ● ●





الفَصل الرابع

العُصْبةُ القسَّاميّـة



الفصل الرابع

العصبة القسَّامية

١ ـ قراءة في ضمير عزّ الدين القسّام:

كان عزُّ الدين القسَّام رجلاً طُلَعةً، كثير القراءة، موسوعيَّ المعرفة. وكان كثيرَ المعرفة بالتاريخ، قادراً على الربط بين حلقاته، واستخلاص العبرة منها.

وعندما شبَّ القسامُ كانت الدول الأوروبية تحيط بالدولة التركية من كلِّ جانب، وتحاول بسط نفوذها على الأجزاء العربية، واستطاعت أن تحصل على امتيازات داخل الدولة التركية أخذَ بعضُها الوجهَ الديني، فأعلنت كلُّ دولة حمايتها لأقلية دينية في بلاد الشام بخاصة...

فلم يخفَ على عزّ الدين القسَّام أن هذه الحماية الدينية متصلةً بالحروب الصليبيّة، فتيقنَ أنّ حملة صليبية جديدة قد بدأت، وأنَّ الحملة الجديدة سوف تلبَسُ ثوباً جديداً، ظاهره حماية الأقليات الدينية، وباطنه صليبيّ، وتأكدت هذه الفكرةُ عندما أعلنت بريطانية (وعدَ بلفور) بإقامة

وطن قوميّ لليهود في جزء من سورية أطلقوا عليه اسم فلسطين، وتبنّتْ (عصبة الأمم) هذا الوعد، وجعلته هدفاً من أهدافها. واتفقوا على أن تكون فلسطين بؤرة النشاط الصليبي الجديد، يبسطون منها نفوذهم الثقافي، والاقتصادي على الأقاليم العربية كلها[1].

---

(١) يتظاهر الأوروبيون والأمريكان أنهم يؤيدون اليهود بوصفهم أصحاب حقّ في أرض (الميعاد) ولكن الأحداث تكشف نيّاتهم، وتظهر أنهم يدافعون عن وطنٍ موعود للصليبية. فقد قال الجنرال (اللّنبي) يوم دخل القدس سنة ١٩١٧م: «الآن انتهت الحروب الصليبية، وسوف تبقى القدس لنا إلى الأبد».

ويُعيد الإسرائيليون هذه العبارة بعد استيلائهم على القدس، فيقولون: «القدسُ الموحدة عاصمة اليهود إلى الأبد».

فكيف نوفق بين ضمير الجمع (لنا) في عبارة اللّنبي. وبين قول الإسرائيليين؟

الجواب: أن اليهود يخدمون أهداف أوروبة وأمريكة الصليبية، وقد اجتمعوا على كتاب (مقدّس) واحد.

ومن الأحداث التي تدلُّ على أن (إسرائيل) كيانٌ أوروبيّ أمريكيّ، قصة مقتل إسحاق رابين ـ ١٩٩٥م ـ بيد يهوديّ... فقد اهتزت أوروبة وأمريكة لهذا الحدث، فأقبلت وفودُها ورؤساؤها تترى إلى القدس، لتشارك في تشييع الجنازة، والحقيقة أنهم جاؤوا لتأكيد تأييدهم لليهود، والاطمئنان على مستقبل البلاد التي سرقوها، حيث خشوا أن يدخلَ الشقاقُ إلى صميم الدولة التي أقاموها حامية لتحقيق أهدافهم، وأن يكون هذا الحدث نذيراً بضعف هذا الكيان وزواله.

ونحن نرجو أن يقتلهم الله بالسلاح الذي أعدّوه لقتل العرب. فقد بذروا الشقاق بين العرب، وقطّعوهم شَذَرَ مَذَرَ، وسوف يرتدّ عليهم سلاحهم إن شاء الله. =

وقد تيقّن عـزّ الدين القسّام، أن هذا الغزو الصليبي الماكر، لن يستطيع الهياج العاطفي المتمثل في المظاهرات أن يردعه.

والشعب الفلسطيني، عَهْده بالنضال بعيدٌ، وخبرتُه في الحرب ابتدائيةٌ، فالجنود الذين تطوّعوا في صفِّ الثورة العربية، رحلَ أكثرهم، أو رحلَ قادتهم إلى دمشق في أذيال الجيش الفيصليّ الفاتح، وعندما دخل الإنكليز إلى فلسطين، وإلى عاصمتها القدس، استقبلهم الناسُ بوصفهم أصدقاء فاتحين محرّرين، فألقى أكثر الناس سلاحَهم، حيث جاءَ نصرُ (الإنكليز) والفتح، ودخل الناسُ تحت لواء الإنكليز أفواجاً، وأخذوا يسبحون بحمد (إنكلترة) لأنها حرَّرتهم.

وقد رأينا في فصل سابق المعروض المرفوع إلى (جناب المندوب السـامي المعظّم) يسترحمون (أي يطلبون الرحمة)، لتولية (محمد أمين الحسـيني) مفتياً للديـار، وكان تاريخ المعروض سنة ١٩٢١م. وهذا الأسلوب ينمّ عن مقدار التبجيل الذي يُكنّه (الوجهاءُ) لممثل بريطانية . . . كما يقدِّمُ للمؤرخ صورةً للجهل المُطبق على أهل البلاد، لكونهم يسترحمون المندوب البريطاني أن يختار لهم مَنْ يوجههم في أمور دينهم.

ومن هذه الصورة الواقعية التي تمثِّلُ حالَ الوجهاءُ، رأى القسَّامُ بعين البصيرة، أنَّ الزعامة السـياسيّة في (سـورية الجنوبية) ليسـت على

= وصدق الله العظيم ﴿يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحشر: ٢].

مستوى قيادة المعركة، بل إنّهم لا يريدون تحريك معركة، لأنهم يجدون مرتعهم الخصب في ظلّ القيادة الإنكليزية.

ولا يصعبُ على عزّ الدين القسَّام القادم من جبلة إلى حيفا، أن يضع يدَه على أدواء المجتمع، وأن يعرفَ الثغرات والثغور التي يتسرّب منها الأعداء، فالبيئة واحدة، والنماذج البشرية تتكرر.

ففي ساحل سورية الشمالية وُجد زعماءُ ووجهاء يحبّون الحياة في ظلّ الغُزاة، وكان في فلسطين أمثالهم.

وأسلوب الاستعمار في تقريب هذه النماذج البشريّة واحد.

ولكن الهدف سيكون مختلِفاً في فلسطين بعض الاختلاف.

في سورية الشمالية كانت فَرنسة، وكان هدفها المعلن الانتداب المؤقت المدعوم بالغزو الثقافي، لخلق شعب يبقى مرتبطاً بالسياسة الفرنسيّة، فإذا تحقق الهدف حَلَّتْ عن البلاد، وسلّمتْ مقاليدَها للتلاميذ النجباء.

وفي سورية الجنوبية: كان الإنكليز: وهدفُهم المعلن نزعَ الأرض من أهلها، وتشريدهم، ليحلّ اليهود محلهم.

ولذلك فإن صورة المقاومة في سورية الشماليّة تختلفُ عن صورتها في سورية الجنوبية ولهذه المفهومات قرّر القسّامُ أن يؤسس لبناء حركة جهاديّة تستمد مفهوماتها من الإسلام، وتتبنى منهجَه في العمل، وتتخذ

الجهادَ طريقاً وحيدةً لتحرير هذا الجزء من أرض المسلمين، واعتباره جزءاً من سورية. أو شقيقاً لسورية الشماليّة. فالمجاهدُ القسَّام هاجرَ من سوريّة إلى سوريّة، لتحرير جزء من سوريّة، فقادَ حملةَ جهادٍ كانت أخطرَ منظمة سريّة، وأعظم حركةٍ جهاديةٍ عرفها تاريخ الشرق العربي الحديث، فلم تأتِ قبلها حركة جهاديّة تضاهيها في قوّة تنظيمها، وصدق منهجها، ولم تخلفها منظمةٌ حُمدتْ عُقباها، كما حُمدت حركة القسَّام، وخَلُدتْ.

وقد اعترف جمالُ الحسيني، بقصور السياسيين عن الوصول إلى درجة واحدة من الدرجات الكثيرة التي صعد إليها القسَّام، فقال في أعقاب استشهاد القسَّام: «ثورةُ القسَّام كانت ثورةً علينا جميعاً شباناً وشيوخاً وكهولاً. إذْ يقول كلُّ واحد منّا: في قلبي إيمانٌ، وفي نفسي إخلاصٌ وعزيمةٌ، ولكني مُثْقلٌ، وورائي عائلةٌ كبيرةٌ أخافُ إن خرجتُ أن يتخطفهم الذلُّ والعارُ والموتُ، وليس لديَّ ما يدفعُ عنهم عوادي الزمن... يسمعُ القسَّامُ وصحبُه هذا، فيثورون عليه، ويخرجون... يخرجون عمّنْ؟ يخرجون عن أعشاشٍ فيها قِطَعٌ من اللحم كأفراخ العصافير، ينتظر كلٌّ منها مُعيله ليُسقط في منقاره ما يسدّ بها جوعه، ويروي عطشه... فيندفع القسامُ وصحبه من تلك الأعشاش، لتثبيت المبدأ، وإحقاق الحق، وإعلاء شأن الإيمان.

ونحن إذْ نرى منهم ذلك، لا يسعنا إلا أن نشعرَ بتبكيت الضمير، واحمرار الوجوه، فنرجو الله أن ينير قلوبَنا بهذا الإيمان».

٢ ـ المراحل التي مرَّ بها تكوين العصابة الجهاديّة :

ليس بين يدينا نصٌّ مكتوب يصف مراحل بناء الحركة الجهادية في أيام نشأتها وتدرُّجها من أرض الواقع، وواقع الزمان، فكلّ ما كُتب في وصف هذه المراحل، مبنيٌّ على روايات تذكّريّة غير مكتوبة، وقد تخطئ هذه الروايات، لأنها تصف واقعاً قد مضى زمنه، ولم يظنَّ أحدٌ من أتباع الحركة أنهم يفعلون شيئاً يمكن أن يدوّنه التاريخ، ولذلك لم يكن هناك وصف يـومي لما كان. وسـوف نصف وقائع هذه المراحل بنـاءً على الأحداث التي اتفق عليها الرواة.

ونقدّر أن العصابة الجهادية مرت بالمراحل التالية:

أ ـ المرحلة الأولى: كانت العصابة الجهادية في المرحلة الأولى فكرةً تُلحُّ على القسَّام منذ هاجر إلى حيفا سنة ١٩٢٠م. ولم تكن هذه الفكرة وليدة حيفا دار الهجرة، وإنما كانت موجودةً منذ بدأ القسَّامُ حياته العملية بعد عودته من الأزهر... وأريدُ هنا فكرة الجهاد لتخليص الوطن الإسـلامي من بـراثن الأعداء، وإظهار عِـزَّة الإسـلام في بـلاد الإسلام. فقد رجع القسَّام إلى تاريخ الإسلام، فرأى قوَّةَ المسلمين كامنةً في الجهاد والرباط في سبيل الله.. وعندما أصبحت الجيوش الإسلامية محبوسةً للدفاع عن سلطان مَلِكٍ أو أمير، بدأت عِزَّةُ المسلمين تأخذ في الأفول... ولذلك كانت فكرة القسَّام هي إحياء فرض الجهاد، الذي عطّله الأمراء، وجعلوه مرهونـاً بإرادتهم، إن شـاؤوا دعـوا إليه، وإن

شاؤوا سكتوا عنه. . . وقد نُقِل عنِ القسَّام قولُه المشهور: «ليسَ المهمّ أن تنتصر، وإنما نريد إحياء الجهاد، وتربية جيلٍ يرى الشهادة في سبيل الله أشرفَ غاياته».

وعندما انتقل القسَّام إلى فلسطين حاملاً هذه الفكرة، بدأ يدرُسُ البيئـةَ الجديدة التي سينشـرُ فيها دعوته، فتعرّف على الناس وقضاياهم ومشكلاتِهم، ودرس الخطط اليهودية والبريطانية لسلخ فلسطين عن بلاد المسلمين».

ب ـ المرحلة الثانية: مرحلةُ الإعداد النفسي للشعب، ونَشر روح الجهاد، وبناءِ القاعدة التي يستطيع أن يرفع تنظيمه عليها، وينتقي منها عنـاصره المنظّمة. وقد سـاعده على ذلك ما يملكه من علم وفهْم في طبائع الرجال، وقدرة خطابية مؤثرة، يستطيع بها أن يحرِّك مكنوناتِ نفوس السامعين ويحيي الإيمان والشجاعةَ لدى الأفراد القادرين على الجهاد، ورافق ذلك دماثة خلقٍ، وقدرةٌ على كسب محبّة الناس.

وقد بدأت هذه المرحلـة منذ تولّي شؤون مسجد الاسـتقلال في حيفا، ورَفْدها أثناء عمله في جمعيات الشبان المسلمين.

جـ ـ المرحلة الثالثة: وهي مرحلة اختيار عناصر التنظيم، وهي مرحلة مختلطة بالمرحلة السابقة مرحلة الإعداد النفسي. . . وفي هذه المرحلة اعتمد القسامُ على العمل السرّي لبناء تنظيمه بعيداً عن مراقبة ومتابعة السلطات البريطانية والعصابات اليهودية، ولذلك كان لا يبوح

بسرّ التنظيم إلا لأشخاصٍ قلائلَ جداً. بعد أن يدرس شخصياتهم وأحوالهم النفسية دراسة كافيةً.

ولاعتماده على السريّة التامة والحذرِ الشديد في اختيار الأعضاء، سارُ التنظيم بطيئاً، وكان من أهداف البطء في بناء التنظيم، وَضْعُ الأعضاء المختارين في مرحلة اختبار، وزيادة شحن للنفوس بمعاني الجهاد، وزيادة تشوُّقِهم إلى الشهادة في سبيل الله، وأن يتجهوا إلى تقويم أنفسهم عن طريق العبادة ومجاهدة النفس.

د ـ المرحلة الرابعة: الإعداد العسكري، بالتدريب على أدوات الحرب المُتاحة.

هـ ـ المرحلة الخامسة: مرحلة التطبيق العملي السرّي بتنفيذ عمليات جهادية فرديّة.

و ـ مرحلة القرار الذي اتخذه القسّامُ، بالخروج إلى الجهاد.

٣ ـ المنهج، والثقافة الجهادية:

رجعتْ حركة عزّ الدين القسَّام إلى الإسلام، وتاريخ المسلمين السياسي والعسكري والاجتماعي في قرونه الخيّرة، وأزمانه المضيئة... واتخذت حركةُ القسَّام الإسلامَ منهجاً للعمل والتربية والجهاد. وقد نقلنا من قبْلُ روايةَ الصحفي ماجد القطب عن نمر السعدي قوله: «خرجنا من حيفا بعد أن اتفقنا على نُصْرة الدين والوطن» وقوله: «لا نقبلُ في جمعيتنا

السريّة إلا مَنْ كان مؤمناً، مستعداً أن يموت في سبيل بلاده. . . »[1].

وإذا كان الجهادُ في أصل فرضيته، لنشر الدعوة، والدفاع عن أرض الإسلام، وردْع كلَّ عدوٍّ. . . فإنّ الحركة القسَّاميّة في فلسطين، جعلتْ هدفَها الأوَّلَ طرد الإنكليز، الذين يعملون على بناءِ وطنٍ قومي لليهود، على أنقاض وطن المسلمين في فلسطين. . . ويمكنُ حصر العناصر الثقافية لعصابة القسَّام فيما يلي:

أ ـ (هذا جهادٌ. . . نَصْرٌ أو استشهادٌ) هذه العبارة كانت شعار عُصْبَة القسَّام وحول هذه العبارة كان يُدندنُ القسامُ، وينطلق منها لتربية أتباعه.

واختارَ لفظ (الجهاد)، لأنه اللفظ الإسلامي المستعمَل في قتال أعداء الإسلام والمسلمين، وقد حرص القسَّام على استخدام المصطلحات الإسلاميّة، لأنها تربط المسلمَ بماضيه العزيز، فيأخذ

---

(١) قوله: «والوطن» هذا من عطف الجزء على الكلّ، فَنُصْرَةُ الدين متضمِّنَةٌ نُصْرَةَ الوطن. والصحيح أن نقول: نُصرةُ الدين ورفع راية الإسلام على الوطن. وقوله: «في سبيل بلاده. . . » الصحيح أن نقول: في سبيل الله، أو «في سبيل رفع راية الإسلام في بلاده». وهذه العبارات ليست من ألفاظ القسّام ولعلّها لم تكن من ألفاظ الجريح نمر السعدي، وإنما نقلها الصحفيُّ بالمعنى واستخدم في صياغتها الألفاظ الدارجة على ألسنة الناس، الذين لم يتثقفوا ثقافة إسلامية أصيلة.

القدوة الصالحة منه. وفي لفظ (**الجهاد**) من المعاني ما ليس في غيرها من المصطلحات المولّدة، مثل: (النضال) و(الكفاح) و(الثورة)... إلخ فهو يجمَعُ بين المعنى اللغوي: (المشقّة) والمعنى الشرعي: بذل الجهد في قتال الكفار، ويدلُّ أيضاً على مجاهدة النفس، ومجاهدة الشيطان، ومجاهدة المفسدين في الأرض.

وفي معنى (**الجهاد**) بذل النفس والمال، والمشاركة بكل ما يملك المسلمُ.

فالجهادُ: ليس قتالاً فقط، وإنما يكون أيضاً باللسان والقلب. وقد جاء في الحديث: «إنَّ المؤمن يجاهِدُ بسيفِه ولسانِه»[1]، وقال عليه الصلاة والسلام: «اهجوا بالشعر، إنَّ المؤمن يجاهِدُ بنفسه وماله، والذي نفسي بيده لكأنما تنضحونهم بالنَّبْل»[2].

وملخص القول في شعار (هذا جهاد نصر أو استشهاد) أن يفهمَ كلُّ مَنْ ينتمي إلى هذه العُصْبة، أنّ الجهاد يختلِفُ عن القتال والحروب التي شهدها التاريخ القريب لأن هذه الحروب كانت تهدُف إلى تحقيق

---

(١) حديث صحيح، أخرجه أحمد؛ انظر صحيح الجامع، رقم (١٩٣٤). (الناشر)

(٢) متفق عليه من حديث عائشة رضي الله عنها ولفظه: «اهجُ قريشاً فإنه أشد عليهم من رشق النبل» قاله لحسان بن ثابت رضي الله عنه؛ انظر (صحيح الجامع) رقم (٢٥٣٤). (الناشر)

أغراض سياسيّة أو اقتصادية، لأفراد أو جماعات يريدون العلوَّ في الأرض. قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ﴾ [النساء: ٧٦].

ب ـ بريطانية أصلُ الداء، وسَبَبُ البَلاء: وهي عدوُّ العرب والإسلام الأول، ومسؤولية الجماعة هي الجهاد لطرد الإنكليز من فلسطين، وأنّ الحركة الصِهْيَوْنيّـة وليدة الاسـتعمار البريطاني. فبريطانية هي الرأس، والصهيونية هي الذنب، فإذا قُطِعَ الرأسُ مات الذنبُ. ذلك أنّ بريطانية كانت تشجِّع الهجرةَ اليهوديّة إلى فلسطين منذ العصر التركي، حيث جعلت إحدى الامتيازات التي حصلت عليها، حمايـة اليهود في فلسـطين. . . وعندما انتُدبتْ لاحتلال فلسطين، جعلتْ هدفها الأول المعلَنَ، تحقيقَ (وعد بلفور) بإقامة وطن قومي لليهود. . . وتحقيق الوَعْد، يكون بفتْح باب الهجرة اليهودية، وإعطاءِ اليهودِ مزيداً من الأرض، وإعدادِهم لإقامة حكومة مستقبليّة. . . وكان يتمُّ هذا بحماية الجيش البريطاني.

جـ ـ القرآن الكريم دسـتور الجماعة: يتعَبدُ المسـلم بمفهوماته ومعانيه، ويتعبد بتلاوته، ولذلك وجّه القسَّامُ تلاميذه إلى أن يحمِل كلُّ واحدٍ مصحفاً، يقرأ فيه متى وجد نفسَه خالياً من العمل. وفَرَض على كلِّ عُضْوٍ أن يحفظَ ما يستطيع من الآيات التي تحثُّ على الجهاد.

د ـ السيرة النبويّة، والحديث النبويّ الذي يحثُّ على الجهاد،

وتاريخ الفتح الإسلامي، وتراجم الصحابة المجاهدين، وقادة الفتح الإسلامي، وسيرة صلاح الدين وفتوحاته.

هـ ـ الجهادُ ليس قتالاً فقط، وإنما هي تربية كاملة شاملة، تشمل الأخلاق الإسلامية بلْه الفرائض والسنن، ليصلَ المجاهِدُ إلى درجة الإحسان: فالمجاهِدُ يساعدُ الفقيرَ، ويطعِمُ الجائعَ، ويعودُ المريضَ، ويصلُ الرَّحِمَ. وقبل هذا كله، فإن المجاهِدَ قويُّ الإخلاص لله تعالى، فلا يرى لأحدٍ طاعة إلا لله تعالى، ولمن أمر اللهُ أن يطاع ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْۖ﴾ [النساء: ٥٩]، وأولو الأمر هم المؤمنون الذينَ يَدْعُون إلى الفضائل ـ فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.

فهذه الأخلاق والفضائل والفرائض، والسنن، والنوافلُ، مُقَدَّمةٌ على القوة الجسدية، وجودَةِ الرمي، في الجهادِ. فالله تعالى لم يبعث محمداً ﷺ لقوة جسده، وإنما أرسله لعِظَمِ أخلاقه ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤]، ذلك أنّ الرجل الصالحَ المرتبطَ بالله، لا يقبلُ الإذلالَ، وسوف يقاتل كلَّ مَنْ يسلبه حريته التي وهبها الله له.

و ـ الصلاة عمادُ الدين، وشعار الإسلام، وعنوان على أداء الواجبات الإسلامية. . . ولذلك فإنّ أفرادَ العصابة القسَّاميّة ملتزمون بأداء الصلوات في أوقاتها، فمن تأخّر عن أداء الصلاة ـ لغير عذر ـ فإنّه عاجز عن الجهاد. والأصلُ في ذلك حديث ابن مسعود قال: سألت رسول الله ﷺ قلتُ: يا رسول الله، أيُّ العمل أفضلَ؟ قال: «الصلاة

على ميقاتها». قلتُ: ثم أيُّ؟ قال: «برُّ الوالدين». قلتُ: ثم أيُّ؟ قال: «الجهادُ في سبيل الله . . .»[1].

وإنما خصَّ هذه الثلاثة بالذكر لأنها عنوانٌ على ما سواها من الطاعات. فإنَّ مَنْ ضيّع الصلاةَ المفروضةَ حتى يخرجَ وقتُها من غير عُذْرٍ مع خِفَّةِ مؤنتها عليه، وعظيم فضلها، فهو لما سواها أضيعُ. ومَنْ لم يبرَّ والديه مع وفور حقهما عليه كان لغيرهما أقلَّ برّاً. ومَنْ ترك جهادَ الكفار مع شدّة عداوتهم للدين، كان لجهادِ غيرِهم من الفُسّاق أترك، فهذه الثلاثة تجتمع في أنَّ مَنْ حافظ عليها كان لما سواها أحفظ، ومَنْ ضيّعها كان لما سواها أضيع.

ز ـ الجهاد بَذْلُ النفس، وبذْلُ المال: فكلُّ ما زاد عن قوت العيال، يجب أن يُبذل في سبيل الله . . . قال الله تعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ﴾ [التوبة: ١١١]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ﴾ [الصف: ١٠ ـ ١١].

وفي الحديث: قيل يا رسول الله، أيُّ الناس أفضلُ؟. فقال

---

[1] متفق عليه. (الناشر)

رسول الله ﷺ: «مُؤمنٌ يجاهد في سبيل الله بنفسه وماله»[1].

ولذلك فإن شراء الأسلحة كان من اشتراكات الأعضاء وتبرعاتهم بما زاد عن حاجتهم.

ح ـ دَرَس تلاميذ القسَّام نماذج المَثَل الأعلى من قادة المسلمين في زمن عزّة المسلمين، وبناءً على هذه الدراسة، وازن تلاميذُ القسَّام بين الزعماء الفلسطينيين المتصدِّرين لقيادة الأمة، وبين المثل الأعلى الذي وجدوه في تاريخ المسلمين فثبت عندهم أنّ الزعامةَ الفلسطينية ليست على مستوى القيادة للخلاص والتحرير.

ط ـ وجّه القسَّامُ دعوته إلى الفقراء (العمال والفلاحين)؛ لأنّ غالبَ أنصار وأتباع الأنبياء[2] كانت حالهم تشبه حال العمال والفلاحين في بلادنا: ولأنّهم بعيدونَ عن الاستكبار والشقاق والحسد، وليس

---

(١) متفق عليه من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه. (الناشر)

(٢) روى البخاري في (صحيحه) أن رسول الله ﷺ أرسل إلى هرقل كتاباً، فوصله الكتابُ وهو في بيت المقدس، فطلبَ من جنده أن يأتوه بعربيٍّ من الحجاز يسأله عن أَمْر النبي، فوجدوا أبا سفيان في قافلةٍ تجاريةٍ، فأخذوه إلى هرقل. ومما قال هرقلُ لأبي سفيان: «وسألتُك أشرافُ الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم؟ فذكرتَ أنَّ ضعفاءَهم اتّبعوه، وهم أتباعُ الرُّسُل. وسألتُك: أيزيدون أم ينقصون؟ فذكرتَ أنهم يزيدون، وكذلك أمرُ الإيمان حتى يتمَّ. وسألتُك: أيرتَدُّ أحدٌ سخطةً لدينه بعد أن يدخلَ فيه، فذكرتَ أنْ: لا، وكذلك الإيمان حين تخالِطُ بشاشتُه القلوبَ» [البخاري/ ك/ ١ باب ٦].

عندَهم شيءٌ من حُطام الدنيا يخافون فراقه، وليسوا أصحابَ مناصب يحرصون عليها. . . فإذا دخلَ الإيمانُ إلى قلوبهم، كانوا جنوداً أوفياء لعقيدتهم.

٤ ـ كيف اختار القسَّام أعضاء التنظيم السّري:

كانت للقسَّام تجربتان في تكوين الكتائب الجهادية قبل التجربة الفلسطينية، ولكن الظروف كانت مختلفة، فاقتضى ذلك تغييراً في الأسلوب والمنهج.

التجربة الأولى في ظل الدولة العثمانية: وكانت الدعوة إلى الجهاد علنية، استجابة لنداء السلطان العثماني.

والتجربة الثانية في ظل الدولة العربية ـ الحكم الفيصلي ـ ولم تكن فرنسةَ قد بسطت سلطانها على الأصقاع كلها، فكان المجاهدون ينطلقون من بلادٍ لم يدخلها الفرنسيون، ولم يكن هناك نظام أو قيود لانضمام فرد إلى عصبة المجاهدين، فكلّ مَنْ دفعته الحمية إلى القتال يصبح مقاتلاً، وكانت الدوافع إلى الجهاد متعددة. وكانت أشبه بـ(الثورة) التي تكون ردة فعل سريع على حادث طارئ.

أما حال التجربة الفلسطينية، فهو مختلف جداً: فقد جاء القسَّام إلى فلسطين وبريطانية قد بسطت سلطانها على جميع أنحاء فلسطين، وانتشرت شرطتُها ومخابراتُها في كلِّ مكان. . . وازدادت الهجرة

اليهوديّة، وصار لليهود شأنٌ يذكَرُ في طول البلاد وعرضها، وكان لهم مخابرات وجواسيس... فكانت البلاد واقعةً بين عدوَّيْن متساندين لهدف واحد... ومما زاد الحال سوءاً أنَّ الزعامة الفلسطينية نهجت طريقاً سنَّتْه الإدارةُ البريطانية، كانت تقومُ على المطالبة بالحقوق بأساليب سمّوها (الطرق المشروعة) وهي أساليب المفاوضات والمظاهرات والمؤتمرات... إلخ.

فكان لا بدَّ من منهجٍ جديد في الجهاد، يعتمد على السريّة ودقّة اختيار المجاهدين والحذر الشديد في اختيار الأنصار... فليس كلُّ مَنْ أبدى حماساً للجهاد صالحاً للانضمام إلى عضويّة التنظيم... فكان القسَّامُ يصرُّ على صفاتٍ وأخلاق في الرجل تؤهله أن يكونَ في تنظيمٍ محاطٍ بأعداءَ ماكرين.

وأولها: **استعداده للطاعة ورغبته في التضحية في سبيل الله**: وقد صرّح بهذا الشيخ نمر السعدي فقال: «إن جمعيتنا سريّة، لا تقبل إلا مَنْ كان مؤمناً بالله، مستعداً أن يموت في سبيل بلاده». والإيمانُ بالله، والرغبةُ في الشهادة ينتج عنهما (الطاعة) وهي طاعة الله ورسوله ﷺ، وطاعة القائد الذي لا يأمر إلا بما أمر الله ورسوله ﷺ.

وكانت أولى خطوات اختيار الرجل الصالح تبدأ من خلال التقاء القسَّام المصلين في مسجد الاستقلال، وبعد صلاة الجمعة، وفي دروس ما بَعْد العصر، حيث كان القسّام يتفرّس في وجوه المصلين، ويدرُسُ

شخصيات المتأثرين بدروسه وخطبه، فيزورهم في بيوتهم لمزيدٍ من المعرفة والملاحظة، ويدعوهم لزيارته في منزله وتتكرَّرُ الزيارات، ويدورُ الحديثُ في كلِّ زيارة حولَ الجهاد. . . إلى أن يؤمن الرجلُ بوجوب العمل لإنقاذ فلسطين. . . فإذا اطمأنَّ القسَّامُ إلى صاحبه، أدخله في حلقة سريّة، لا يزيد عددُ أفرادها عن خمسة، وكان لكلِّ حلقةٍ نقيبُ يتولى القيادةَ والتوجيه، ولتنظيم أبناء القرى، اتّبع القسَّام مبدأ زيارة القرى، وبخاصة القُرى التي يسكنها أصدقاءه في أقضية حيفا، والناصرة، وجنين. وإذا كان أحد أفراد التنظيم قروياً يسكن حيفا، فإنّ القسَّام يطلبُ منه العودة إلى قريته، ليمهِّدَ له عند مختار القرية، ويدعوه لزيارته. وعندما يزور القرية يحرص على التقاء أهل القرية في دَرْس ديني بعد صلاةِ العصر، أو مجلس ذكْرٍ بعد صلاة المغرب، ومن خلال هذه اللقاءات يتعرّف على أكثر الناس تديناً. . . وكان يجتمع سرّاً مع مَنْ يرى فيهم الحميّة وحبّ الجهاد. ومع دوام الوعظ والملاحظة والتأهيل والتعليم يتمُّ تشكيل حلقات جديدة.

ولم تكن تُتاح العضوية لأحد إلا بَعْد مدة من التجربة والمراقبة، ولا يشترط أن تكون التجربةُ في عملٍ تقوم به جماعة القسَّام، فقد تكونُ التجربةُ من خلال عمل فدائيٍّ يقوم به الرجل في مقاومة الإنكليز واليهود. ففي ثورة (البراق) سنة ١٩٢٩م شارك آلاف من مسلمي فلسطين، وبرز منهم قادةً مخلصون، فتوجهتْ أنظار جماعة القسَّام إلى هؤلاء لجذبهم إلى التنظيم السريّ.

وفتح القسَّام المجالَ أمام فئات المجتمع كافة: الغني والفقير، والمتعلّم والأميّ، والشباب والشيوخ... ولكنَّ أكثرَ أنصاره الذين قبلوا دعوته، هم أولئك الذين لم تغرّهم المناصب الحكومية، والذين ذاقوا مرارة مؤامرات الإنكليز واليهود بإخراجهم من ديارهم وأرضهم، ولذلك فإن الكثيرين من أفراد تنظيم القسَّام كانوا من الفقراء ومن العمال ومن غير المثقفين في المدارس والجامعات.

وكان القسّامُ قد أبدى اهتماماً بالمحتاجين والفقراء، فعمل على تحسين أحوالهم المعيشية، وأخذ يكافح الأميّة في صفوفهم بالدراسة الليلية. واهتمّ أيضاً بإصلاح المنحرفين، وكان يؤمِنُ أنَّ جُرأة السارق أو القاتلِ من الممكن أن تتحوّلَ إلى شجاعةٍ وإلى جهادٍ، إذا تابَ إلى الله تعالى، وآمنَ بالجهاد في سبيلِ الله. والمثال الموثّق في نجاح هذا الأسلوب قصة (حسن الباير) الذي اعترف للشرطة البريطانية بَعْد أسره إثْر معركة (يَعْبُدْ)، فقال: «أنا من قرية (برقين) ـ قضاء جنين ـ وكنتُ من قبلُ أسرقُ وأرتكب المحرّمات، فجاءني المرحوم عزّ الدين القسَّام، وأخذ يهديني ويعلمني الصلاة، وينهاني عن مخالفة الشرع الشريف وأوامر الله. وقبل مُدَّة أخذني المرحوم الشيخ عزّ الدين إلى أحد جبال برقين، وهناك أعطاني بندقيةً، فسألتُه: لم هذه؟ فأجاب: لأجل أن تتمرَّنَ عليها، وتجاهِدَ مع إخوانِك في سبيل الله».

وقد أخذ القسَّام مذهبه هذا من أمثلة وقعت في التاريخ الإسلامي:

من ذلك قصة أبي محجن الثقفي الشاعر المشهور (المتوفى سنة ٣٠ هـ) كان محبوساً أيام القادسيّة، لما يُحبسُ عليه، فلما كان يوم القادسيّة رآهم يقتتلون، فكأنه رأى أنَّ المشركين قد أصابوا من المسلمين، فاحتال للخروج من سجنه وقال:

كفى حَزَناً أن تلتقي الخيلُ بالقَنَا وأُتْركَ مَشْدُوداً عليَّ وثَاقِيَا
ولله عَهْدٌ لا أَخِيسُ بعَهْدِهِ لَئِنْ فُرِّجتْ ألاّ أَزُوْرَ الحَوَانِيا

فأبلى في معركة القادسيّة بلاءاً حسناً، ورجعَ عن فِعْل المنكرات.

وقصة مالك بن الرَّيْب التميمي (ـ ٦٠ هـ) كان شاعراً فاتكاً مِنْ قُطَّاع الطريق، فالتقاه سعيد بن عثمان بن عفّان بالبادية في إحدى مغازيه، فنصحه، واستصلحه، فانضم مالك إلى الجيش، وأبلى في المعارك بلاءً حسناً.

وهو صاحب القصيدة الشهيرة التي رثى بها نفسه، حيث يقول في مطلعها:

ألا ليتَ شعري هل أبيتنَّ ليلةً
بجَنْبِ الغَضَا أُزْجي القِلاصَ النواجِيَا

ويقول فيها:

ألم تَرَني بِعْتُ الضلالةَ بالهُدى
وأصبحتُ في جَيْشِ ابنِ عفّانَ غازِيا

تــذكّــرتُ مَــنْ يبكــي علــيَّ فلــم أجــدْ
سـوى السيـفِ والـرُّمـحِ الـرُّدينـيّ بـاكيـا

وقد اتّسـع تنظيمُ القسَّام بعد إقدام سـلطات الانتداب على طرد سكان (٢٢) قرية من قُرى (مرج ابن عامر)[1] والاستيلاء على أراضي وادي الحوارث[2] والحولة وغيرهما. والتفَّ حوله عدد كبير من الناس في أثناء ثورة البُراق (١٩٢٩م).

وبعد جهود ثلاث سنوات استطاع القسَّام تكوين اثنتي عشرة حَلْقة جهاديـة تعملُ كلُّ واحدةٍ مُنفصلـةً عن الأخرى، وتتكون كلُّ خليّةٍ من خمسـة أفراد، أكثرُهم من عُمَّال البنـاء، والسكك الحديديـة، وعمال المينـاء، ومن الباعة المتجوليـن. ثم زادَ عددُ أفراد الخليـة في أوائل الثلاثينات، فأصبحت تضمُّ تسعة أفراد.

فكان تنظيمُ القسَّام أول تنظيم فلسطيني يجذب الفلاحين والفقراء والبدو حيث أقام علاقاتٍ قويّةٍ مع منطقة الغبيّات[3]، وفيها عرب

---

(١) مرج ابن عامر: يفصل جبال فلسطين الشمالية (الجليل) عن جبال نابلس، وجبل الكرمل، طوله من الغرب إلى الشرق نحو ٤٦ كيلاً، وعرضه من الشمال إلى الجنوب حوالي ١٩ كيلاً. وكان يُعدّ (سلّة خبز فلسطين).
(٢) وادي الحوارث، كان يُعْرَفُ هذا الوادي باسم نهر أو وادي (سكندرونة) ولمّا نزلته قبيلة الحارثية في أواخر القرن الحادي عشر، فنُسِبَ إليها.
(٣) الغُبيّات: مجموعة تضمُّ (الغُبيّة الفوقا) و(الغُبيَّة التحتا). والتَعْتَعِيَّة تقع في =

منسي، وأبي زريق، والسعديين، ناهيك عن علاقاته بأهالي عشرات القُرى.

ومما يؤكِّدُ هذا الاتجاه أنَّ القيادة الأولى للحركة التي تم تشكيلها عام ١٩٢٨م كانت من العمال والفلاحين: وهذه هي أسماؤهم، وأعمالهم:

العبد قاسم: فلاح، بائع كاز في حيفا ـ من قرية الرينة.

محمود زعرورة: فلاح، بائع كاز في حيفا.

محمد الصالح الحمد: فلاح، كانت لديه عربة (كارو).

خليل محمد عيسى (أبو إبراهيم الكبير): فلاح، صاحبُ دكانٍ لبيع الصوف والأكياس.

ثم أُعيد تشكيل القيادة، فضمت:

خليل محمد عيسى: من قرية المزرعة الشرقية، بقضاء رام الله.

وسليمان عبد القادر حمام: من قرية (سمسم) بقضاء غزة.

وسرور برهم العودة: من مدينة حيفا.

وعطية أحمد عوض: من قرية بلد الشيخ قرب حيفا.

= الجنوب الشرقي من حيفا على الطريق، بينها وبين جنين.

ومحمود زعرورة: من قرية الرينة.

وتوفيق الإبراهيم: من قرية (أندور) قضاء الناصرة.

وحسن حمادة: من حيفا.

ومحمود غزلان (أبو محمود الصفوري) من قرية صفورية بقضاء الناصرة.

ومع أنَّ هؤلاء التلاميذ لم يكونوا من حملة الشهادات المدرسية والجامعية، ولكنَّ القسَّام استطاع أن يثقفهم، ويعلمهم، وأن يضعَ بأيديهم مفتاحَ المعرفة الواسعة بالرجوع إلى كتاب الله، وسنّة رسوله ﷺ، فأصبحوا أساتذة بالقدر الذي يحتاج إليه المجاهد آنذاك... ولذلك، كان القسَّام يشاورهم، ويرجع إلى رأيهم، فكانت القيادة جماعيّة ولم تكن مسؤولية القسَّام وحده... واستطاعت قيادة الحركة أن تتابع الجهاد، وتقود الحركة الجهادية، بعد استشهاد القائد القسَّام.

٥ ـ وقد اختلف المؤرخون في عدد أفراد الحركة القسّاميّة، فمنهم المُقلُّ، ومنهم المكثر، ولكلٍّ وجهة نظره، ومفهوم كلامه المراد.

فمن قلّل العدد، أراد القياديين المشهورين.

ومَنْ أكثر عددهم، أرادَ كلَّ مَنْ عَملَ فيما بَعْدُ على نهج القسَّام.

فذكر أحمد الشقيري في كتابه (أربعون عاماً في الحياة العربية

والدوليـة): أنّ أتباع القسّـام بلغوا خمسـين شخصاً. وهي روايـة غير مقبولة، لأنّ الشقيري لم يتصل بالقسَّام، ولم يعرف حركة القسَّام إلا بعد إعلانها سنة ١٩٣٥م، وكان الشقيري محامياً، يدافع عن المعتقلين أمام المحاكم البريطانية، ولعل الخمسين قسَّامياً الذين ذكرهم، هم من المعتقلين الذين حوكموا لاشتراكهم في الثورة الكبرى (١٩٣٦ـ١٩٣٩م)

ونقل إحسان النمر في كتابه (قضية فلسطين في طورها البلدي): أنَّ عدد القسَّاميين بلغ نحو (٤٠٠) مجاهد.

وذكر صبحي ياسين في كتابه (الثورة العربية الكبرى في فلسطين): أن عدد المجاهدين الذين أعدّهم القسَّامُ للقيادة، بلغ سنة ١٩٣٥م نحو مئتي مجاهد، يشرف أكثرهم على حلقات توجيهية، يضاف إليهم نحو (٨٠٠) كانوا مهيّئين نفسياً وعسكرياً للاشتراك في الجهاد. ويوافِقُ على هذا العدد الدكتور عبد الوهاب الكيّالي في كتابه (تاريخ فلسطين الحديث)

وهذه الأرقام كلها ظنٌّ لا يعتمد على إحصاء دقيق، لأن سِرَّ التنظيم ذهب أكثرُه مع القائد القسّام، وعدد من الشهداء، وبقي منه قليلٌ أخبر به الباقون. . . وإنَّ كثيراً من أتباع القسّام لم يعلنوا عن أنفسهم بعد وفاة القائد، لأنّ التنظيمَ بقي يعمل في الطريق التي خطها القسَّام، فاقتضى الأمرُ الاستمرارَ في السريّة التي تميز بها التنظيم في حياة القسَّام. فالألف الذي ذكروه يرمز إلى كثرة العدد. ولذلك قال الشيخ محمد الحنفي عندما سُئِل عن عدد أفراد التنظيم: إن عددهم يزيد على الألف.

وعبارة (يزيد على الألف) يريد بها أنهم كثيرون، ولا يريد بها التحديد، مع أنّ الشيخ محمد الحنفي أقدرُ الناس على إعطاءِ رقمٍ قريب، لأنه كان من أقرب الناس إلى معرفة أسرارِ التنظيم، فهو رفيقُ القسَّام في جبلة، وفي الحَفّة وفي جبال صهيون، وهو من أُمناء السرّ في حيفا. . . فكيف يكونُ عدد أفراد التنظيم ألفاً، وقد ذكر حسن شبلاق ـ أحد أصحاب المحاجر في أراضي الكبابير بجبل الكرمل ـ أنَّ معظم الحجّارين السبعمئة الذين كانوا يعملون في تلك المنطقة، كانوا من القسّاميين؟!.

ومما يدلُّ على كثرة أصحاب القسَّام أنَّ الثورة الفلسطينية الكبرى (١٩٣٦ ـ ١٩٣٩م) كانوا جنودها وهم الذين قادوها، في الأقضية الشمالية، والوسطى من البلاد. . . وسيأتي البحثُ مفصلاً حول هذه المسألة في فصل قادم إن شاء الله تعالى.

٦ ـ التراتيب الإدارية في التنظيم:

عندما قرَّرَ القسَّامُ ورفاقُه إنشاء العُصْبة السريّة للجهاد، رأت القيادة العامة أن توزعَ الأعمال على جماعات متخصصة (إدارات) تتولى كلُّ إدارة تدبير شأنٍ من شؤون الجماعة. فكانت الجماعات التالية:

ـ جماعة شراء السلاح: ويديرها حسن الباير، ونمر السعدي.

ـ الاستخبارات والتجسس على الأعداء: ويديرها ناجي أبو زيد.

ـ التدريب العسكري: ويشرف عليه (جلادات) وهو ضابط سابق

في الجيش العثماني .

ـ الاتصالات السياسية : ويديرها محمود سالم المخزومي .

ـ التمويل : وهي جماعة مختصة بجمع المال من الأعضاء والأنصار ، ورعاية أُسر المعتقلين والشهداء .

٧ ـ التمويل :

كان هدف المنظمة القسّامية الأول إعدادُ المجاهدين للمعركة القادمة ، والجهادُ يحتاجُ إلى عُدَّة ، وعُدّتُه السلاح ، وليس كلُّ مجاهدٍ قادراً على شراء بندقية أو مسدّس ، أو أيّة آلة حرب . وقد رأينا أنّ المنظمة كانت قويّة في مجتمع العمال والفلاحين ، وصغار الباعة المتجولين ، وهذه الفئات كلُّها أو أكثرها تعيش في أدنى درجات الفقر . . . فكان لابُدَّ من جَمْع المال لشراء السلاح ، وتجهيز مَنْ لم يقدر على جهاز نفسه . . . وهناك مئات تتشوَّقُ نفوسهم إلى الجهاد ، ولكنهم لا يملكون عُدَّته أيقعدون عن القتال وفيهم قُوَّة؟ .

وكان أكثر المال يأتي عن طريق الاكتفاء الذاتي لكل عُضْوٍ في التنظيم ، فقد نُقِل عن القائد القسّامي أبي إبراهيم الكبير خليل محمد العيسى ، قوله : «لقد كنا نصرف من عملنا الشخصي على عملنا السياسي» .

وكان العضو العامل في الجماعة يبدَأُ بدفْع عشرة قروشٍ شهرياً إلى

رئيس حلقته، وبَعْد أن يمتزج بالعصبة، وينفعل بأحداثها، يفرضُ العُضْوُ على نفسه عُشْرَ دَخْلِه الشهري، أو أكثر من ذلك، فيقدم للجماعة ما يزيدُ عن حاجة أسرته الضرورية. ويؤكد إبراهيم الشيخ خليل، أنّ عدداً كبيراً من رفاق القسَّام كانوا يبذلون كل ما يملكون، بعد سدّ حاجاتهم اليوميّة. وقال: إنَّ المال كان يأتي من مصدرين:

الأول: المساهمة الشهريّة، وكانت جيدة.

والثاني: البذل الطَّوْعي، أو التطوعي.

وقد وصل إخوان القسَّام إلى درجة عالية من البذْل، لأنهم فهموا أنّ الجهاد يكون بالنفس والمال. فالقرآن الكريم صريح في قوله تعالى: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ﴾ [التوبة: ١١١] وفي آية أخرى: ﴿ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ﴾ [الصف: ١١].

وقال ﷺ: «مَنْ كان عنده فَضْلٌ من ظَهْر (راحلة) فلْيَعُدْ به على مَنْ لا ظَهْرِ له، ومَنْ كان له فَضْلٌ من زادٍ فليعُدْ به على مَنْ لا زاد له» قال الراوي: حتى رأينا أنْ لا حقَّ لأحدٍ مِنّا في فَضْلٍ. والفضل: ما زاد عن الحاجة[١].

(١) أخرجه مسلم من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه. (الناشر)

هذا البَذْلُ في الجهاد ـ بالنفس والمال ـ الذي يُعَدُّ أعلى درجات العطاء، قد آمن به القسَّاميّون، لما تشرّبوه من الثقافة القرآنية، ولما عرفوه من بَذْل الصحابة في ساعة العسرة... ولا نبالغُ إذا قُلنا: إنَّ القسَّام ربّى ووجّه وأرشدَ جيلاً من الرجال، يُمكنُ نَظْمُهم في سِلْك رجالات المثل الأعلى في تاريخ الجهاد الإسلامي.

ومما يرفع التجربة القسَّاميّة درجةً... أنه أحيا نفوساً بعد موتها، وأنقذ رجالاً من ذُلٍّ وهوانٍ، ورفعهم إلى مرتبة أهلِ العزّةِ والإباء. فقد كان أكثرُ إخوانِ القسَّام عُمّالاً أُميّين، يكدحون من أجل لقمة العيش، فحوّلهم إلى شيوخ فقهاء، وإلى أغنياء أجواد... فكان أحدُهم يحرِمُ نفسَه الخبز من أجل شراء السلاح، ويعتمد على نفسه في العمل والإعداد.

وقد كان أتباع الشيخ القسَّام نوعين: الأول: جنود انتظموا في سلك العُصْبَةِ المجاهدة. ويعرفون شيئاً من أسرار التنظيم.

الثاني: أنصارٌ، أحبوا الشيخ، ووثقوا به، وعرفوا فيه الأمانة والصدق، وحبّه فِعل الخير... وهؤلاء لا يعرفون شيئاً من أمر التنظيم الجهادي، ولكنهم يلبّون نداء القسَّام إلى البذل والعطاء، فيقدِّمون ما يقدرون عليه من المال، لأيّ هدفٍ يُعلنه الشيخ... فكان القسّام يدعو مرةً إلى بذل المال باسم البرّ والإحسان وإعانة المحتاجين، ويدعو مرة أخرى إلى العطاء لإصلاح المسجد... إلخ ولكنه كان يهدف إلى شراء السلاح. ولو أباحَ للناس عن مقصده، لبذل الناسُ أكثر مما بذلوا،

لأنهم يعلمون أنّ أموالهم تذهبُ لأعلى درجات الخير والعمل، وهو الجهاد. . .

لقد كان السبب الرئيس لنجاح عُصْبة القسَّام في السياسة الماليّة، أنها لم تستخدِم المال لكسب الأنصار، وتكثير عدد الأعضاء، ولم يكن لأحدٍ في التنظيم راتبٌ، وإنما كان الجميع يبذلونَ كلَّ ما عندهم، مختارين، لم يجبرهم على البذل السخيّ إلا الطمعُ في ربحٍ وفيرٍ عند ربّهم.

ولذلك فإننا نؤكّد أنّ عُصبة القسَّام قد اعتمدت على نفسها في المال، ولم تقبل إلا المال الحلال، ولم تربط نفسها بجهات خارجية، فتحرَّرت من القيود والولاءات الخارجية.

وعندما قرر القسامُ الخروج إلى الجهاد كان في صندوق العصبة مئة جنيه فقط. . . ولا يصحُّ القولُ بأن عُصبة القسَّام، اتصلتْ بالحكومة الإيطالية عن طريق قنصليتها لتضمن تأييدها، بل هو افتراءٌ افتراه الذين يريدون تشويه قصة القسَّام وصدّقه الغافلون.

فعزُّ الدين القسَّام الذي جمع المجاهدين لمحاربة إيطالية أمس، لا يمكن أن يَمدّ لها يدَه اليوم.

وقالوا: إن عصبة القسَّام اتصلت بإيطالية في أثناء غزوها الحَبشة. حيث كانت بريطانية تعارِضُ هذا الغزو. . . وكيف يؤيِّدُ القسامَ إيطالية

في غزو الحبشة، والحبشة تضمُّ ملايين المسلمين، وإيطالية والإنكليز في ميزان الإسـلام يستويان فالإنكليز أعداء المسلمين، والإيطاليون كذلك، وكلتا الدولتين تغزو صِقْعاً من أصقاع الإسلام... قد يتصلُ أحدُ أفراد العُصْبةِ بجهةٍ إيطاليةٍ كسوقٍ لشراء الأسلحة منها لا لكسب تأييدها كما يزعمون... والقسّام الذي رفض التعامل مع الأحزاب الوطنيـة وهي الأقرب إليه يـرفض التحالف مع إيطالية، وهي عدو من أعداء المسلمين، ومما ينفي اتصال العُصْبة القسّاميّة بإيطالية أنّ التقرير الرسمي البريطاني لعام ١٩٣٥م لا يشيرُ إلى وجود أسلحةٍ إيطاليةٍ فيما استولت عليه السلطات البريطانية.

٨ ـ ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: ٦٠]:

روى مسلمٌ في (الصحيح) عن عقبة بن عامر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول وهو على المنبر: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: ٦٠] «ألا إن القوّة الرَّمْي، ثلاثاً».

وقال عليه الصلاة والسلام: «إنَّ الله يُدْخِلُ بالسهم الواحد ثلاثةً الجنة صانِعَه، يحتسبُ في صنعته الخير، والرامي به، ومُنبله، فارموا واركبوا، وأنْ ترموا أحبُّ إليَّ من أن تركبوا».

وفي الحديث: «مَنْ عَلِمَ الرميَ ثم تركه، فليس منّا، أو فقد عصى».

وفي رواية أخرى «مَنْ ترك الرميَ بَعْدَ علمه رغبةً عنه، فإنها نعمة كفرها»[1].

وقال المفسرون: إنما فسَّر القوَّة بالرمي، وإن كانت القوّة تظهر بإعداد غيره من آلات الحرب، لكون الرمي أشدُّ نكايةً في العدوّ وأسهل مؤونة، لأنه قد يُرمى رأسُ الكتيبة فيصابُ، فينهزمُ مَنْ خَلْفَه.

ويحتمل أنه يدعو إلى إجادة فنّ الرمي، وليس الرميّ مطلقاً. فكل صنعة فيها الجيد، وفيها الأجود.

ومجموع ما نقلنا من الأحاديث فيها دعوة إلى صناعة السلاح، أو اقتنائه، وتعلّم استعماله. وكانت هذه المسألة تشغَلُ بالَ القسَّام وعصبته. فبعد أن انتهت مرحلة الإعداد النفسي والتثقيف، جاءَت مرحلة إعداد القوّة التي ترهِبُ الأعداءَ، وكان من منهج حركة القسّام أن يتدرَّبَ جميعُ الأفراد على حمل السلاح، ليكونوا مستعدين لخوضِ معارك الجهاد. ومع أنَّ الجهاز الماليَّ في التنظيم كان يجمع المال لتوفير السلاح والعُدَّة اللازمة للجهاد، فإنّ التنظيمَ كان يدعو كلَّ قادر من أعضائه أن يجهّزَ نفسَه بالسلاح من نفقتِه الخاصّة. وتمكن الجهازُ المالي من توفير المال لشراء مئاتِ البنادقِ الحربية، وكانت الخطةُ تقضي أن لا يبدأ الجهادَ حتى يكون في

---

(١) أخرجه أبو داود والنسائي والحاكم، وإسناده حسن (الترغيب والترهيب) رقم (١٩٣١). (الناشر)

مخازن التنظيم ألفُ قطعةٍ من السلاح.

وقد أشار تقريرٌ سرّي مرفوع إلى الوكالة اليهودية في أيّار سنة ١٩٣٢م من أحد جواسيسها في حيفا، إلى وجود تدريبات عسكرية بين العرب، وإلى شرائهم السلاح بشكل نشط. وربما كان ذلك إشارة لما كان يقوم به تنظيم القسّام من إعدادٍ وتدريبٍ.

وكان بدء المرحلة الجادّة في التسلح والتدريب في أواخر عام ١٩٢٨م، عندما خطا اليهودُ خطوةً جريئة، حيث تجاوزوا المباح لهم عند حائط البراق[١]، وتداعـوا من كلٍّ أنحاء فلسـطين، وتدفقوا إلى

---

(١) البراق ـ أو حائط البُراق ـ جزء من الحائط الغربي للحرم القدسي. فيه بابٌ يرى المسلمون أنه الباب الذي دخل فيه النبي ﷺ ليلة إسرائه من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى وربط عنده البُراق الذي امتطاه في رحلته. وتسمّى المنطقة المحيطـة بهذا الجدار (حيّ المغاربـة) أو (وقف أبي مديـن) وهو من صلحاء المغاربة الذين هاجروا إلى القدس. أوقفها الملك الأفضل بن السلطان صلاح الدين على المدرسة التي أقامها في هذا الحيّ وسماها (الأفضلية) وكان ملوك المسلمين وأمراؤهم الذين جاؤوا في أعقاب تحرير القدس من الصليبيين أصحاب نظر بعيد، فقد رأوا فلسطين ومقدساتها عُرضةً للغزو والمطامع، فبذلوا ما استطاعوا بَذْلَه ـ بعد إنقاذها من الغزاة ـ في سبيل صيانتها في مستقبل الأيام. فأحاطوا الحرم القدسي ـ مثلاً ـ بسلسلة من المدارس إلى بُعْد مئة متر أو أكثر من سورها، وأوقفوها، لتصون هذه المنطقة من البيع واليد الغريبة. وأوقفوا الأوقافَ الكثيرةَ في القدس وغير القدس، وحبسوا القرى الكثيرة على هذه =

الزيارة آلافاً مؤلفة بين مَظَاهِرِ الحماسِ والزهوِّ، فأثار هذا المسلمين، وتداعوا إلى حراسة المسجد الأقصى، والدفاع عنه. . . مما دفع جماعةَ القسَّام إلى الانتقالِ من مرحلة الدعوة إلى الإعداد العسكري المسلح.

ويذكر أبو إبراهيم الكبير أنه في عام ١٩٢٨م إثْر ازديادِ التهديد اليهوديّ:

= المدارس، وعلى المساجد، والمنشآت الإسلامية، لتكون حبساً في إيرادها وأعيانها. ولولا تهاون المسلمين في زمن الدولة العثمانية وتهاون الحكام وقصر نظرهم إلى المستقبل، ما استطاع اليهود أن ينجحوا في غزوتهم بطريق شراء الأراضي، لأن ثلث أراضي فلسطين تقريباً من هذه الأوقاف، ولكن الحالة تغيّرت بسبب قصر النظر، فانقلبت وقفيتها العينية إلى العشرية، وأبيح انتقالها من يدٍ إلى يدٍ بالبيع مع بقاء عُشْرها وقفاً، فلم تنجها صفةُ الوقف المتطورة من هذه الغزوة. وقد كانت مساحة واسعة مما اشتراه اليهود وأقاموا عليه مستعمراتهم من الأراضي الوقفية. ولم ينجُ إلا جزء يسير جداً بالنسبة للمجموع، يُعدّ نحو سبعين ألف دونم. وقد زعمت الحركة الصهيونية أن حائط البراق، هو من بقايا هيكل سليمان المزعوم، وحرضت اليهودَ على زيارته والبكاء عنده. . . ولم يكن يُسمَحُ لهم بزيارة القدس في العهد المملوكي. وقيل: إن السلطان سليمان القانوني هو أول مَنْ سمح لهم بهذه الزيارة، وقيل: إنها منحة من محمد علي باشا أيام حكمه فلسطين، وكان هذا مخالفاً للعهدة العمرية عند فتح القدس «ألاّ يسكنها أحدٌ من اليهود» وكان المسموح لهم أن يقفوا أمام الحائط، والبكاء وقراءَة التراتيل بصوت خفيض.
ومنذ الاحتلال البريطاني أخذوا يتجاوزون ذلك بنفخ البوق، ووضْع المناضد، والصراخ والعويل. . . فكان هذا التجاوز بدايةً لثورةِ حائط البراق، التي عمّتْ فلسطينَ كلها، وحُكم في نهايتها على ثلاثة من تلاميذ القسّام بالموت.

«طلبنا من الشيخ أن ينتقل من مرحلة الكلام إلى العمل، وطلبنا أنْ نتسلّح ونتدرب، فاشترينا بندقيةً، وأحضرنا مدرباًكان اسمه (محمد أبو العيون). وكانت تبدأ الجلسة بأن يُلقي الشيخ دروسَه، ثم تحولت دروس الشيخ من دروس دينية إلى تحريض على الجهاد، وكان المدرب يقوم آخر الجلسة بتدريب الموجودين على البندقية واحداً واحداً».

ثم جاءَت ثورة البُراق عام ١٩٢٩م، لتعجّلَ بالتحضير العسكري، والانتقالِ من المرحلة السريّة إلى المرحلة العلنية. فأخذ القسّام يتولى تدريبَ المجاهدين بنفسه، وكان يخرج ليلاً يدرب الأعضاء على الأسلحة، ويوجههم إلى أساليب الكفاح المسلح. ويصف حسن شبلاق ـ عضو الهيئة المسؤولة عن الحجّارة في (أراضي الكبابير)[1] بجبل الكرمل وأحد الذين تدربوا على يد الشيخ القسّام ـ الخطوات، كالتالي: «كنا نجتمع قبل الخروج إلى جبل الكرمل في واحد من الجوامع الثلاثة: الاستقلال، والجامع الكبير (الجرينة) والجامع الصغير. وكان الخروج عادةً على مستوى الحظيرة، ثلاثة أشخاص يعرف بعضُهم بعضاً. والحجة القانونية التي كُنّا نتسلح بها في خروجنا، وجود المحاجر، فلي ـ أي حسن شبلاق ـ محجرٌ هناك مثلاً. ومعظم الحجّارة السبعمئة كانوا من القسّاميين. وكان القسّام يخرج مع كل حظيرة، ويعلِمها فكّ وتركيب البندقية، وتنظيفها، وكيفية استخدامها».

---

(١) الكبابير: تقعُ في الجنوب الغربي من حيفا، بجوار خربة الدير.

وكان القسَّامُ حازماً في تدريب المجاهدين، قال أحدُ القسّاميين:
«كان يأخذنا لدروس التدريب، وإطلاق النار، ويطلب منّا أنْ نمشي حُفاةً. وعندما كنّا نتدرب في الجبال، كان يجعلنا ننام في العراء في جوٍّ باردٍ، وكان يطلب منا السير دون حمل طعامٍ أو ماء، حتى نستطيعَ تحمل الجوع والعطش. وكان يطلبُ منا أن ننامَ مرةً أو مرتين في الأسبوع على الحصير، بغطاءٍ خفيفٍ، وكان يصرُّ دائماً على سريّة أنشطتنا، ولذلك كنّا نُواجه متاعب في بيوتنا مع زوجاتنا وعائلاتنا، لأننا لا نستطيع شرحَ وتوضيحَ: لماذا ننام بهذه الطريقة؟ وكان علينا أن نحتمل هذا، لأننا تعاهدنا على تنفيذ هذه الأوامر».

ويذكر صبحي ياسين أنه في يوم ١٢/ ١١/ ١٩٣٥م كانت الجمعية تملك ألف قطعة سلاح، وقاعدة تسليح في منطقة اللاذقية. وفي هذا اليوم اجتمعت القيادة في (حيفا) ودرست الموقف العام في فلسطين، وتقرّرَ بدء الجهاد العلني

٩ ـ الحكم والتقويم:

لم يضع القسَّامُ وصحبُه اسماً للتنظيم الذي جمعهم، ولم يكتبوا ميثاقاً أو دستوراً، ولم يدوّنوا أعضاءَ التنظيم في سجلاّت. ولو كان عندهم شيء من هذا لوصلنا عن طريق الأنصار، أو عن طريق الأعداء.
فالعلاقات بين أفراد الجماعة مبنيّةٌ على عَهْدٍ مكتوبٍ، لا يراه

إلا أصحاب البصيرة، ولا يقرؤه إلا أهلُه. . . إنه القرآن الكريم، والحديث النبويّ الصحيح، وشروحهما، وما استنبط منهما. . .

وكان نصُّ البيعة موجزاً، يتكون من ثلاث جُمل:

(١) الأخوّة في الله.

(٢) والجهاد لنوال إحدى الحسنيين: النصر، أو الشهادة.

(٣) والسمع والطاعة: لله ورسوله وأولي الأمر منكم.

وهذه مأخوذة من آيات الله التي يضمها مصحفٌ يحمله كلُّ مجاهد، فما الحاجة إلى صياغة قوانين، والأهدافُ معروفةٌ، وسُبُلُ العمل مرسومةٌ.

وما الحاجة إلى سجلات تجمع أسماء العاملين، وهم لا ينتظرون عطاءً من أحد؟ وأما الاسم، فقد اختاره القرآن الكريم ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الحج: ٧٨] وكون جماعة القسَّام لم تترك أثراً مكتوباً يدلّ على الأحكام الناظمة لأفراد العُصبة جَعَل بعض الباحثين ينظرون إلى تنظيم القسَّام على أنه تنظيم مُرتجل، تنقصه الضوابط الجامعة، التي توجد في التنظيمات الثوريّة. . . : فالدكتور عبد الستار قاسم يذكر في كتابه (الشيخ المجاهد عزّ الدين القسَّام):

أ ـ أن الانضمام إلى جماعة القسَّام لم يكن صعباً أو معقداً: يريد أن التنظيم كان يتساهل في اختيار أعضائه.

ب ـ ويرى أنَّ القسّام لم يخلق تنظيماً، وإنما عمل على إيجاد مراكز يمكن أن ينطلق منها مجاهدون في المستقبل.

جـ ـ وأن القسَّام إذا كان قد نجح في إنشاء فرقة جهادية، فقد اقتصر هذا النجاح على حلقة حيفا وأما الحلقات الأخرى، فقد تزعمها أفرادٌ عملوا بعد استشهاد القسَّام على تشكيل فرق جهادية، أي: أنّ القسَّام عمل على إيجاد بُؤَرٍ من الشباب المتحمسين للجهاد، في مناطق مختلفة ويستدل على ذلك بأنّ الشخصيات المركزية في المناطق لم تكن تنسِّق فيما بينها في أثناء ثورة ١٩٣٦ ـ ١٩٣٩م.

د ـ ويرى أنّ اللجان المتخصصة التي تذكرها بعض المصادر، كانت مهمات مؤقتة أوكلها القسَّام لأشخاصٍ من الجماعة.

وهذا الكلام لا يقدحُ في شخصية القسَّام، ولا يطعن في شيء من نيّاته وأهدافه، ولكنه تقويم يخصّ التنظيم من الناحية الشكلية، فنجيب عنه بتقويم آخر فنقول:

أ ـ أمّا التساهلُ في قبول الأعضاء في التنظيم، فقد ضرب مثلاً بقصّة (عربي بدوي) الذي اهتدى بعد بحث طويل إلى مسجد الاستقلال، وحدّث القسَّام بأنه يفكر بالجهاد منذ سنوات، فضمّه القسَّامُ إلى التنظيم الجهادي، قبل أن تتحرّى الجماعةُ عنه...».

والجواب عن هذه القصة من وجهين:

الأول: إنَّ النتيجة التي وصل إليها الدكتور عبد الستار مبنيّة على الرواية التي وصلته حيث تقول: إنه لم يكن بين اللقاء الأول، وبين الانضمام إلى الجماعة وقتٌ طويلٌ. ولكن رواية أخرى تقول: إنَّ عربي البدوي أخذ يتردد على الشيخ القسَّام، والتردد يدل على تكرار الاستماع، وتكرار اللقاءات.

الثاني: إنّ عربي البدوي التقى القسَّام في أواخر سنوات السريّة، حيثُ قرّر القسَّام بدء إعلان القتال. فقد كان القسَّام يخطِّطُ لمرحلتين:

الأولى: التنظيم والتعبئة العامّة. أما التنظيم فهو سريّ، ولا يعرف أسرارَ الخطة المستقبلية إلا القسّام. وأما التعبئة العامة: فهي بث روح الجهاد في المجتمع كلّه، وكانت هذه المهمّة علنية، وحجة القسَّام في هذا الإعلان، أنه خطيبُ جمعة، وإمامُ مسجدٍ، ومعلّم دينٍ... وفي القرآن الكريم، آياتُ الجهاد والحرب، وآياتُ السلم والمعاملات السلمية، والقرآن كلٌّ لا يتجزأ.

والمرحلة الثانية: إعلان القتال، والدعوة إلى النفير العام، وإشراكُ الأمّةِ كلّها في الجهاد، بعد أن يكون قد بث القيادات الموجِّهة في المناطق.

ب ـ إنَّ بؤر الشباب المتحمسين للجهاد، التي أوجدها القسامُ في مناطق متعددة ليس من السهل ضبطها سنوات طويلة، دونَ وجود تنظيم

قادر على توجيهها وضبطها في خطة محكمة، وبخاصة الشباب الذين تغلي مراجلهم شوقاً إلى الجهاد. ويؤكد صبحي ياسين في كتابه: (حرب العصابات في فلسطين): وجودَ خلاف بين القيادة ومجموعة من الشباب الذين كانوا يرغبون في استعجال العمل العسكري، ولكنَّ هذا الخلاف بقي سرياً، ولم يخترق واحدٌ منهم الخطة التي اتفق عليها الأكثرون. وهذا يدل على قوة الانضباط التي تصدر عن قيادة جماعية.

جـ - إنَّ المخابرات البريطانية القويّة التي تعمل في خدمة أوسع الدول نفوذاً في العالم، في تلك المدة، لم تستطع اكتشاف هذا التنظيم إلا بَعْد أن بدأ العمل بصورة علنية سنة ١٩٣٥م. وكانت المخابرات اليهودية لا تقلّ قوّة، لأنها جَمعتْ كلَّ قواها في فلسطين. ومع ذلك لم تستطع المخابرات الإنكليزية واليهودية وما لهما من الجواسيس، أن يحصلوا على معلومة واحدة، تضعهم في مرحلة الشكّ بوجود تنظيم قسّامي، وكلُّ ما كان يُحاسَبْ عليه القسّام، أنه يحرِّض المسلمين على الثورة، وأنَّه يشرح الآيات الداعية إلى قتال الأعداء. ومثل هذه الجماعة لا يمكن أن يكونَ عملُها عفوياً مرتجلاً.

د - إنَّ كثيراً من الكُتّاب والمؤلفين الذين عاصروا القسّام، وعملوا في الحقل الوطني، ودونوا مذكرات، ورصدوا شواردَ الحركة الوطنية - لم يخطر ببال أحدهم أن يكون القسَّام على رأس تنظيم عسكريّ سريّ. وقد نقلنا من قَبْلُ ما سجّله أكرم زعيتر في (مذكراته) يوم استشهاد

القسَّام. ويقول أحمد الشقيري ـ الذي عاصر القسَّام، وعايشه في محيطه ـ إنه لم يكن يدور في خلده أو خلد أصدقاءِ القسّام المقربين أنّ الشيخَ القسّام كان يهيِّئ لقيادة ثورة مسلحة»[١].

وقال محمد عزّة دروزة تحت عنوان (الحلقات الجهادية وحركة الشهيد القسَّام):

«وكانت حيفا مركزاً هاماً من مراكز العمال العرب، الذين كان كثير منهم من مشرَّدي مزارعي القُرى التي بيعت لليهود، وأُجْلُوا عنها... وكان لهؤلاء العمال حيٌّ خاص مساكنه من التنك والخشب، فأخذَ يظهر من هذه الطبقة رجال جهادٍ منذ سنة ١٩٣٠م حيث أخذت تقع غزواتٌ جهادية على اليهود ومستعمراتهم في قضاء حيفا، فُهِمَ فيما بَعْدُ أنها من جمعيات أو حلقات جهادية متدينة وسريّة، محكمة التشكيل كلُّ فرد منها يجهز نفسه بنفسه، ويقومون بأعمالهم باسم الجهاد. ولم تستطع السلطات أن تكتشف أسرارَ هذه الجمعيات، أو تحول دون غزواتها، مع ما بذلته من جهد واعتقال بعض أعضائها»[٢].

هـ ـ إنّ جماعة القسَّام قد جعلت العمل العسكري أسلوباً رئيساً لطرد الأعداء، وأخذت تدرب أفرادها على حمْل السلاح، وجمعت

---

(١) أحمد الشقيري: أربعون عاماً في الحياة العربية والدولية، ص١٤٣.
(٢) محمد عزة دروزة، القضية الفلسطينية: ١/ ١٢٠.

مئات القِطع من الأسلحة... وكان جلَّ جهد المخابرات البريطانية موجهاً للبحث عمَّن يستعمل السلاح في المقاومـة... ولكنّ هذه المخابرات لم تكتشف شيئاً من ذلك. وعندما قُبض على بعض أفراد جماعة القسَّام في حادث (نهلال) سنة ١٩٣٣م لم يعترف أحدٌ بانتمائه لجماعة معينة، مما يدلُّ على تربية عسكرية منضبطة واعية، يوجهها جهازٌ ذو كفاءة عالية.

و ـ والحقُّ الذي لا مراءَ فيه: أنّ القسَّام قد أنشأ تنظيماً سريّاً هادفاً وجادّاً، يفوق أرقى التنظيمات الحزبية من حيثُ دِقّةُ التنظيم، وسموُّ الهدف، وشرفُ المطلب. ولا نبالغ إذا ألحقناه، وشبهناه بما كان في العهد النبويّ. فالجماعات والأحزاب الفلسطينية والعربية قاطبةً ذُكرتْ لها محاسِنُ، وذكرتْ لها معايب. وكتب المؤرخون، فقوّموا رجالات الأحزاب والجمعيات، والمخلِصُ منهم مَنْ تعادلتْ كفةُ حسناته مع كفة سيّئاته.

أما القسَّام وجماعتُه، فقد مضى على معرفة تنظيمهم ستون سنة ١٩٣٥ ـ ١٩٩٥م، فلم يستطع أحدٌ أن يجد عيباً في أهدافهم، وأُسلوب عملهم، واتفقتْ المذاهب السياسيّة والدينيّة كلُّها على مدح القسَّام وعصبته... وما وُجد تنظيمٌ أثَّر في الأحداث التي تلته كما أثّر تنظيم القسّام، حيث عُدَّ الأنموذج والقدوة والمثل الأعلى الذي يُحتذى، في باب التحرير والجهاد.

وأختم هذه الفقرة بشهادة محمد عزّة دروزة، حيث يقول في وصف استشهاد القسَّام وصحبه: «وكان الحادث نموذجاً جديداً للجهاد، ومثلاً عالياً على التضحية والإقدام، مجردين من كلِّ غرض أو شهوة أو غرض دنيوي. وغدا اسم القسَّام وعصبته لا يُذكر إلا مع ألفاظ التكريم والإجلال، وهو ما أشعرنا بواجب ذكرهم. وكان الحادث من الحوافز النفسيّة القوية للأحداث التي تلته بعد أشهر قليلة... حيث انفجرت الثورة الكبرى».

وربما قصّرت عبارة دروزة عن التعبير عندما قال: «كان الحادث من الحوافز النفسية... إلخ». بل إن الروايات المتواترة تقول: إن الثورة الفلسطينية الكبرى كانت من عمل عُصْبة القسَّام كما سنرى في فصْل لاحق، لأنّ القسَّام ـ رحمه الله ـ كان قد وضع الخُطّة لما سيكون في حياته ولما سيكون بعد وفاته. والله أعلم.

١٠ ـ علاقة التنظيم القسَّامي بالزعماء والأحزاب:

من باب حُسْن الظنّ بالناس جميعاً، أنْ تقول: إنَّ جميعَ الزعماء والسياسيين يحبون وطنهم، ولكنهم ينقسمون في هذا السبيل إلى أقسام عدّة:

الأول: يحبُّ وطنه، ولكنه يعطي الوطن من الحبّ أقل مما يدّخر لنفسه. وهؤلاء يريدون أن يأخذوا من الوطن ولا يعطونه شيئاً.

الثـاني: يجعل للوطن حظاً أوفر من الحب، ولكنه لا يتخلّى عن

حبّ الذات، وقد يبذل للوطن بعض ما يملك، ولكن يريد أن يأخذَ أكثر مما أعطى، وليس مستعداً لبذْل النفس.

الثالث: جعل حُبَّه كلَّه للوطن، ولكنه أخطأ السبيل في خدمته.

وكان للقسّامُ، علاقات صداقة، أو علاقات ودّ، مع أكثر الزعامات الفلسطينية، ولكنه لم يَبُحْ لواحدٍ منهم بما في نفسه، ولم يُطْلِعْ أحداً منهم على خُطّته، والسبب في ذلك، التباعد بين منهج القسَّام ومنهج هؤلاء القوم في تحرير البلاد، ولو عَلِمَ القسّام أنَّ واحداً من هؤلاء ينقاد للمنهج الذي ارتضاه ما تأخّرَ عن ضمَّه إلى التنظيم الجهادي. فقد كانَ يتطلَّع إلى أن يكون فيهم وجيهٌ أو ثريّ أو زعيم، يدعمُ المجاهدين بماله أو جاهه. وعرف القسَّامُ أنَّ هؤلاء لن تكون منهم طاعة الله، ورسوله وأولي الأمر من الجماعة، لأنهم طبعوا على حبّ الزعامة، ولن يرضوا عن الصدارة بديلاً. وهل يرضى أحدُهم أن يكونَ في خليّة يقودها عاملٌ، أو بائع جوّال؟.

وكان التنافس بين الزعماء لإرضاء الجمهور الفلسطيني، بالوسائل (المشروعة) أي التي أباحتها السلطات الإنكليزية. وهي: قيادة مظاهرة، أو عقْد مؤتمر، أو تقديم مطالب إلى المندوب السامي، والحصول على وعود بتحقيق المطالب، والزعيم الألمعيُّ، هو الذي يكون في وَفْد لمقابلة المندوب السامي... وسارت الحركةُ الوطنيةُ في فلسطين في معظم أحوالها، على هذا الشكل من العمل حتى سنة ١٩٣٥م.

وعندما ذاع نبأ استشهاد القسَّام ورفاقِه، وشاع خبرُ وجود تنظيمٍ جهاديٍّ مسلحٍ . . صُدِم الزعماءُ، وأصابهم الذهول، لأنهم كانوا يظنون أنْ ليس في الميدان أحدٌ ينهج غير نهجهم، وفتح القسامُ باباً من الجهاد، لا يستطيعون وُلُوجه.

ولمّا شُيعت جنازة الشهداء في حيفا، بحشد من الناس لم يشهدْ له التاريخ مثيلاً، تخلّف الزعماءُ عن السير في الجنازة ـ ما عدا قادة حزب الاستقلال: رشيد الحاج إبراهيم، وعادل وأكرم زعيتر وصبحي الخضراء ـ.

ثم قرؤوا ما كتبته الصحافة في وصف الحشود التي تبعتْ الجنازة، ففقد الزعماءُ الأمل في أن يبقى لهم تابعٌ يصفق لهم . . . ولم يذهبوا إلى مجلس العزاء في حيفا، مع قُربه، فأرسلوا برقيات تعزية فاترة . . . لأنهم تيقنوا أنّ ثورة القسّام كانت دليلاً على عُقْم أساليبهم، وفضحتْ تضحيتُه وتجرُّدُه نفعيتهم وأنانيتهم.

وبَعْد ستة أيام من استشهاد القسَّام، كان ممثلو الأحزاب على موعد مع المندوب السامي فماذا قالوا للمندوب السامي؟ لقد شَكَوْا إليه أنهم سيفقدون كلَّ ما يملكونه من نفوذ على أتباعهم، وتسود الآراء المتطرفة. ويقصدون بـ(المتطرفة) الباب الذي فتحه القسَّام، وهو باب الجهاد المسلح.

وقد ترك استشهاد القسَّام أثراً عميقاً في فلسطين كلها، وسرعان

ما أصبح رمزاً للتضحية والفداء. وتمنّى مَنْ لم يكن معهم أن يكون منهم. ففي رسالة من الدكتور (أمين رويحة) إلى أكرم زعيتر يقول: «لقد أحيا القسّامُ وإخوانُه في نفوسنا الأمل، بعد أنْ كِدْنا نفقده، وليتني علمتُ بعصابتهم قبلَ الآن، لكنتُ واللهِ أولَ مَنْ ينضمُّ إليهم، فهذا والله سبيل الخلاصِ وحده».

ولمّا كان القسّامُ غيرَ بعيدٍ عن تيّار (الحركة الوطنية) وكانت له صِلات وصداقات مع بعض شخصياتها، أدى ذلك إلى ادّعاء بعض المؤرخين المقرّبين من بعض الأحزاب والشخصيات الفلسطينية أنّ عزّ الدين القسَّام كان ينتمي إلى هذا الحزب أو ذاك، أو أنَّ شخصيةً ما كان لها مساهمة فعّالة في التنظيم القسّامي، وتجرّأ بعضهم على القول بأن التنظيم القسَّامي كان من تفكير وتخطيط الحاج أمين الحسيني... وادّعى بعضُ الكُتّاب أنّ القسَّام كان عضواً في حزب الاستقلال الذي تأسس سنة ١٩٣٢م. وزعم آخرون أنّ القسَّام كان أحد أعضاء الحزب العربي حزب المفتي، الذي تأسس في ربيع سنة ١٩٣٥م.

والجواب عن هذه الأقوال في النقاط التالية:

أ ـ إنَّ تنافسَ هذه الفئات في ضمِّ القسَّام إلى صفوفهم شهادةٌ للقسَّام بالتفوق في ميدان الحركة الوطنية، لأن ادّعاء هؤلاء بانتماء القسَّام إلى جماعتهم، يريدون منه نوال شيء من التقدير الذي ناله القسَّام.

ب ـ قرر أميل الغوري في كتابه (فلسطين عَبْر ستين عاماً) أن

القسَّام كان أحد أعضاء الحزب العربي البارزين، وأنّ مؤتمر الحزب انتخبَ القسَّام ممثلاً في لجنته عن حيفا.

ولكنّ أميل الغوري نسي أن يمحو اسم القسَّام من قائمة حزب الاستقلال المؤسس سنة ١٩٣٢م وهو الأسبق، ولا شكَّ أنه قرأ نسبة القسَّام إلى حزب الاستقلال. فكيف يكون القسامُ في حزبين في وقت واحد؟ وهذا مطعن في الرجل، لأن الرجل الحزبيّ يلتزم طريقاً واحدة، وإلا كان منافقاً.

جـ ـ إن القسَّام لم ينضمَّ إلى حزب الاستقلال أو الحزب العربي رسمياً، وإذا كان له اتصال بواحدٍ من الحزبين، فإنه اتصال تضامن وتأييد للمبادئ التي يعلنها أيُّ حزبٍ من الأحزاب: وهي حبُّ الوطن، وكُرْه اليهود والإنكليز، ومحاولة إخراج الأعداء من فلسطين... وهذه المبادئ مما يدعو إليه القسَّام، وإن كان يخالفهم في أسلوب الدعوة، وربما أظهر القسَّامُ تضامنه مع هذه الأحزاب التي تعترف بها السلطة البريطانية، ليصرف نظر المخابرات البريطانية عنه، من باب (الحربُ خدعة).

وربما توّهم المؤرخون نسبة القسَّام إلى هذا الحزب أو ذاك، بسبب الصداقة القويّة التي تربطه بالشخصيات الحزبية الفلسطينية... لأنّ القسَّام كان يعمل بالقول: «اختلاف الرأي لا يُفسدُ للودّ قضية». ولعلّه كان يطمعُ في أن يشرحَ اللهُ صدور هؤلاء الزعماء للمنهج الذي ارتضاه في قتال الأعداء.

د ـ والذي يمنعُ من انضواء القسَّام تحت لواء حزب من الأحزاب، أن القسَّام كان مختلفاً اختلافاً بعيداً عن غيره من السياسيين في تفكيره، وأسلوب عمله في إنقاذ البلاد، وكان متيقناً بأنَّ الزعماء السياسيين لن يصلوا إلى نتيجة محسوسة بالطرق السلمية (المشروعة). واستقرَّ في نفسِه، أنّ الجهادَ المسلَّح هو السبيل الوحيدُ لتحرير البلاد.

أما القيادات الوطنية فكانت تحاول أن تحقق غاياتها عن طريق المفاوضات السياسية، التي تساندها مظاهرات سلميّة. وقد صاغت هذه الأحزاب أهدافَها صياغةً (علمانيّة) أو (وطنيّة) لا أَثر للإسلام فيها، مجاراةً أو مداراةً للنصارى من أهل البلاد وطمعاً في انضمامهم إلى الأحزاب، وليكون الحزبُ مقبولاً عند السلطات البريطانية.

وكانت هذه الأحزاب مستعدة للتفاوض مع البريطانيين والتعاون معهم. ولم يصرّح أيُّ حزبٍ عن نيته بحمل السلاح بوصفه مرحلةً من مراحل الكفاح، إذا لم تثمر المفاوضات، بل كان كثير من الأحزاب يصرّحُ بعداوته لإيجاد (وطن قومي يهودي) ولا يصرِّح بعداوته للإنكليز، وربما آمنوا بحقّ اليهود في الهجرة التدريجيّة إلى فلسطين.

ففي لقاء الزعماء الأحزاب مع المندوب السامي، قدّموا له مذكرة جاء فيها: «المطالبة بتأليف لجنة من ذوي الاختصاص والكفاية تقدّر مدى قُدْرة البلاد على استيعاب مهاجرين جدد إلى فلسطين، وإجراء تحقيقٍ عاجلٍ في الهجرة غير المشروعة». فهناك في اصطلاح زعماء

الأحزاب هجرة يهوديّة مشروعة، وهجرة غير مشروعة. والهجرة المشروعة هي التي يصرّح بها الإنكليز، على أن تكونَ الهجرةُ مناسبة لاتّساع البلاد لهم، أو ضيقها عنهم. . . وبَعْدَ هذا: كيف نقبلُ أو نقرُّ أنّ القسَّام كان مرسوماً في واحدٍ من هذه الأحزاب؟.

١ ـ أما حزبُ الاستقلال، الذي قيل إنّه أحد أعضائه، فقد وافق القسَّامَ في جَعْل الانتداب البريطاني (سبب الداء ورأس البلاء). ولكنه لم يخرج عن الأساليب (المشروعة) في مقاومة الاحتلال، بإقامة مهرجانات كبرى، وإصدار البيانات، وكتابة المقالات. وفي هيئة الحزب رجالٌ عُرفوا بإخلاصهم للوطن، وصِدْق نيّاتهم في العمل، وبذْل ما يستطيعون بذْله. . . أمثال: أكرم زعيتر، ومحمد عزّة دروزة، ورشيد الحاج إبراهيم، صديق عزّ الدين القسَّام. ولكن كان من أعضاء الحزب المؤسسين الدكتور سليم سلامة، وكان هذا الرجل وفيّاً مخلصاً للعشيرة (الماسونيّة) وله أشعارٌ في مدح محافلها ورجالاتها. والماسونية ـ قبل أن تظهرَ صبغتُها اليهودية ـ كانت منذ نشأتها تدعو إلى التفاهم والتقارب السلمي بين الشعوب والأديان.

ومن هنا جاء في نصّ مبادئ الحزب «إلغاء الانتداب وَوَعْد بلفور».

والنصّ على (الإلغاء) فقط، يعني سكوتَ الحزبِ عن وجود يهوديّ في فلسطين.

٢ ـ وأما (الحزب العربي الفلسطيني) وشُهر باسم (حزب المفتي) فلم يُقم القسامُ صلةً رسميّة به، ولم يُسجل القسامُ نَفْسَه في دفاتر الحزب. لأنّ فِكْر الحزب فِكْرٌ (علماني) مع أن مفتي فلسطين كان الأب الروحي لهذا الحزب: وتميّز الحزب بمشاركة مسيحيّة واسعة بلغت (٣١٪)، مع أن نسبة المسيحيين في فلسطين كانت في حدود (١١٪) فقط آنذاك. وهذا ما جعل الأفكار (العلمانية) تسيطر على منهج الحزب.

ولا يُفهمُ من هذا أننا نطعنُ في إخلاص المسيحيين للقضية الوطنية، فقد وُجد في المسيحيين الفلسطينين مَنْ يحبُّ فلسطين أكثر مما يحبها بعض مَنْ ينتمون إلى الإسلام. ولكننا نصف واقعاً، ونجعل هذا الواقع أحدَ الأسباب التي تمنع القسّام من مشاركة الحزب العربي في نشاطه، أو الرضا بأساليبه المطروحة، لأن القسّام ارتضى الإسلامَ منهجاً للعمل، وكان يُرَبِّي أنصارَه تربية إسلاميّة خالصة، وأما موقع المسيحيين في حركة الجهاد الإسلامي، فإنه محدَّدٌ في الفقه الإسلامي المستنبط من القرآن والحديث. ولا يملك فردٌ أو أفراد أن يغيروه.

وبناءً على المناقشات السابقة، فإننا نستبعد مشاركة القسَّام في الأحزاب الفلسطينية، ونرى أنه ـ مع صداقته لعدد من ممثلي الأحزاب ـ كان مستقل التفكير والتخطيط والعمل والنشاط. وأنَّ ارتباطه الوحيد كان مع العقيدة الإسلاميّة وحدها.

● ● ●

الفَصل الخامِس

العُصْبَةُ القسّاميّـة

في ميدان الجهاد

الفصل الخامس

العصبة القساميّـة في ميدان الجهاد

١ ـ طلائع الجهاد في العصبة القسّاميّـة :

ذكرنا من قَبْلُ أن التنظيم القسّاميَّ مرّ بمراحل منها : مرحلة تكوين الخلايا الجهادية والتدريب العسكري. وقامَ التنظيم في هذه المرحلة بعددٍ من العمليات الفدائية الفرديّة، أو على مستوى الخلية الواحدة.

وقد زعم بعضُ المؤرخين، أنَّ هذه الأعمال كانت من أعضاء في التنظيم السرّي لم يوافقوا أستاذهم فيما ذهب إليه من وجوب المزيد من التحضير والاستعداد قبل البدء بالجهاد. ويمكن أن نقبل هذا التفسير لبعض الأعمال العسكرية، ولا نقبل تعميمه على النشاط العسكريّ كله. لأن الانضباط، والسريّة، والطاعة التي تميّز بها التنظيم، تمنع من حدوث أعمالٍ كثيرة غير منضبطة . . .

ويمكن أن نعدَّ هذه الأعمال العسكرية كانت تحقق أهدافاً أرادها التنظيم. ومن هذه الأهداف أن تكونَ نوعاً من التدريب العملي، ولكسر

حاجز الخوف لدى أفراد الجماعة... أو لتنبيه الناس إلى الأسلوب الناجع في طرد الأعداء وصرفهم عن الأساليب التفاوضية، التي انخرط فيها السياسيّون.

ومن أهدافها أيضاً لفت أنظار الشعب إلى عناصر الشجاعة والفداء الكامنين في نفوس الناس.

ومنها بعث الأمل في نفوس المواطنين، بأنّ في البلاد مَنْ يدفع عنهم أذى المعتدين.

ويمكن القول أيضاً: إنّ الأعمال العسكرية التي كانت قبل سنة ١٩٣٥م، يمكن نسبة بعضها إلى تلاميذ القسَّام الذين حضروا مجالسه، وتأثروا بدعوته، ولم ينضموا إلى التنظيم القسّامي. ومن هؤلاء شهداء ثورة البُراق الذين شنقتهم السلطات البريطانية في ١٧/ ٦/ ١٩٣٠م. ففي هذا اليوم شوهِدَ القسَّامُ متجهِّمَ الوجه يغالِبُ الدمعَ، وأوصالُه ترتجفُ غضباً، ثم أسرعَ إلى المسجد، فألقى خطبة ناريَّة جاء فيها «يا أهلَ حيفا! يا مسلمون! ألا تعرفون فؤاد حجازي؟ ألم يكن فؤاد حجازي، وعطا الزير، ومحمد جمجوم إخوانكم؟ ألم يجلسوا معكم في دروس جامع الاستقلال؟ إنهم الآن على أعواد المشانق».

والشاهد في هذه القّصة، أن أبطال ثورة البراق كانوا من تلاميذ القسّام، وإنْ لم يتوفر دليل على أنهم كانوا أعضاء في التنظيم السرّي.

ومن الذين شاركوا في ثورة البُراق من إخوان القسّام، عبد الله

الأصبح، الذي كان له جهادٌ مشهودٌ في منطقة (صفد) والشيخ فرحان السعدي في قضاء جنين.

وفي المدة من ١٩٣١ ـ ١٩٣٥م، تـأكّد أن أعضاءً من جماعـة القسّام المُنَظَّمين قاموا بأعمال عسكريّة في قضاء حيفا.

وكانت أولى العمليات، الهجوم على مستعمرة (الياجور) قرب حيفا ليلة ٥/ ٤/ ١٩٣١م فقتلوا ثلاثة من اليهود، وعادوا دون أن يتركوا أثراً، كما هجم القسّاميّون على مستعمرة (بلغوريا) ومستعمرة (كفار هاسيديم) ومستعمرة (عتليت) ومستعمرة (العفولة) في المرج.

أما العمليّة العسكرية التي أغضبت الإنكليز واليهود، وأدخلت الرعبَ إلى قلوبهم فهي عملية (نهلال) ليلة ٢٢/ ١٢/ ١٩٣٢م. فقد قام المجاهد أحمد الغلاييني ـ الذي يعمل سمكريّاً ـ بصنع ألغام في معمله في حيفا، وأعطى لغماً منها، لمصطفى علي الأحمد، فوضع اللغمَ في منزل حرس مستوطنة (نهلال) وسيّر إخوان القسّام قطيعاً من الغنم على الطريق، فذهب الأثر. فانفجر اللَّغْم، وأدى إلى قَتْل يهوديين، وإصابة اثنين بجراح. فكانت هذه الواقعة ضربة مؤثرة موجعة في أكبر رموز الصهيونية في فلسطين، وهي مستعمرة (نهلال) حيث يقول (وايزمن) في وصفها: «إن (نهلال) مستعمرة ذات قيمة خاصة في نظري، لأنني منها أبتدئ بسياحتي، وبها أختمها، وهي رمز عملنا العظيم في مرج ابن عامر، ولستُ أبالغ إذا وصفتها بأنها قلب المرج، وعندما تقترب مني

الأيام الصعبة أتطلَّعُ إلى (نهلال) لأستمدَّ منها التعزية».

ولم ينكشف أمر هذه العملية إلا مصادفةً بعد ستة أشهر، عندما قامت قوة من (البوليس) البريطاني بتفتيش قرية (صفّورية) فعثرت في بيت مصطفى علي الأحمد على قنبلة مماثلة للقنبلة التي انفجرت في مستعمرة (نهلال) - وكانت السلطة قد احتفظت بشظاياها - فألقت القبض عليه، وتعرّض لتعذيب وحشي، واعترف بتفصيلات الحادث، وقبض على أحمد الغلانيتي صانع القنبلة، وصالح أحمد طه، وأحمد التوبة، وأبو إبراهيم الكبير. فحكم بالإعدام على مصطفى الأحمد وبالسجن خمسة عشر عاماً على أحمد الغلايني، وبالبراءة على الباقين، لعدم ثبوت الأدلّة.

ودامت الأعمال العسكرية سنوات، كانت من أشدِّ ما قام به المجاهدون في فلسطين تأثيراً فألقت الرعب في قلوب اليهود، لأنهم رأوا عملاً جديداً يُنفّذُ بالسلاح، لم يعرفه اليهودُ من قَبْلُ، ومع كثرة هذه الأعمال، وتعدد أشكالها، فإنها ظلت محاطة بالسريّة والكتمان، إلى مدى كان معه أكثر الناس يجهلون مصدر هذه الأعمال، وما كان الناس يظنون بوجود حركة القسّاميين... فازدادت الحكومة واليهود ذُعْراً، وبثّوا الأرصاد، ونشروا الجواسيس ليلاً ونهاراً، فلم يتمكنوا من اكتشاف الصلة بين العاملين والمنظمة القسّاميَّة.

ولكن دعوة القسَّام الجريئة إلى الجهاد جعلت السلطة البريطانية

تشكُّ في صلة القسَّام بهذه العمليات، لكثرة الأحداث في حيفا وقضائها، فدعتْ القسَّام إلى مركز الشرطة للتحقيق معه، ولكنها لم تستطع إدانته لعدم وجود الأدلة.

ولذلك قررت القيادة القسّاميّة إيقاف نشاط العُصبة مُدَّة، إلى أن يتم تجاوز مرحلة الاستنفار لدى المخابرات الإنكليزية واليهودية. . . وقد حققت هذه العمليات أهدافها، فكانت بمنزلة الروح التي سرت في جسم الأُمّة، فحركت الهمم، وشدّت العزائم، وحفزت الناس إلى العمل.

٢ ـ الخروج إلى الجهاد العلني سنة ١٩٣٥م:

أ ـ أسباب خروج القسَّام:

١ ـ قال إبراهيم الشيخ ـ وهو أحد مجاهدي العُصْبة ـ معلِّلاً خروج القسَّام: «في أوائل عام ١٩٣٥م رأى القائدُ القسّام أن المستعمر يراقب تحركات القسَّاميين مراقبة دقيقةً. وكان القائد يخشى أن يعتقِلَ الإنكليز النخبة الصالحة من إخوانه، فيفسد جميعَ مخططات العصبة قبل أن تظهر، وكان يرى الخروج إلى الجبال والطواف بالقُرى، وحَثّ المواطنين على شراء السلاح، والاستعداد للجهاد». وقد أكَّد هذا الرأي عددٌ من أتباع القسّام.

٢ ـ ازدياد الهجرة اليهودية إلى فلسطين، واتساع مساحة الأراضي

التي استولوا عليها، فقد دخل فلسطين سنة ١٩٣٥م (٦٢,٠٠٠) يهودي، وامتلك اليهود في العام نفسه (٧٣,٠٠٠) دونم من الأراضي العربية. حتى كتب المندوب السامي البريطاني قبل نهاية سنة ١٩٣٥م إلى وزارة المستعمرات يقول: «إنَّ خُمس القرويين قد أصبحوا بالفعل دونَ أراضٍ يمتلكونها، كما أنّ عددَ العمال العاطلين في المدن آخذٌ في الازدياد».

٣ ـ تهريب الأسلحة لليهود: فقد تمَّ اكتشافُ عمليةِ تهريبِ كبيرةٍ للأسلحة مرسلةٍ إلى اليهود عن طريق ميناء (يافا) بتاريخ ١٦/ ١٠/ ١٩٣٥م. وترى المصادر التاريخية أنّ هذا الحادث كان من أقوى الدوافع لخروج القسّام، وصرّح بهذا (عربي البدوي) ـ أحد رفاق القسّام الذين خرجوا معه ـ فقال: إنَّ القسّام قال بعد اكتشاف الأسلحة المرسلة إلى اليهود: «إذا لم نهاجم اليهود فإنهم سوف يهاجموننا».

٤ ـ وكان خروج القسّام أنقاذاً للشعب من التضليل السياسي الذي يمارسه رؤساء الأحزاب في البلاد، حيث نزلوا إلى الدّرْك الأسفل من الإسفاف والتخاذل والانصياع للحكومة الإنكليزية، والخلاف فيما بينهم فيما لا خلاف فيه... فقد أحدث اكتشاف الأسلحة المرسلة إلى اليهود صدمةً موجعة للشعب الذي ينتظر الخلاص على أيدي زعمائه الضالين المُضلين، فماذا فعل الزعماءُ؟.

دعا الحاج أمين ـ مفتي فلسطين ومناط آمال الشعب ـ الأحزابَ إلى مواجهة هذه الحال فتشكلت لجنة من الأحزاب في ٢١/ ١٠/ ١٩٣٥م،

ضمّت الضالين منهم، وهم الرؤساء، وقابلت المندوب (السامي)، وطالبته بالتحقيق للقبض على المهربين، واتخاذ التدابير اللازمة لمنع إدخال السلاح في المستقبل. . وانتظرتْ لجنة الأحزاب جواب المندوب عن طلباتها. . ولما تأخر الجواب شعرت الأحزاب بالصغار أمام جمهور الناس، فطلبت من المندوب السماح لها بإعلان الإضراب في فلسطين، فرُفِضَ الطلب. . أرأيتَ دَرْكاً أسفلَ من هذا الدَّرْك الذي سقطت فيه الزعامات؟ إنهم يطلبون من عدوّهم (الإنكليز) أن يوافق على الأسلوب الذي يتبعونه لحربه؟ وأن يختار الأداة التي يستعملونها في المعركة؟! .

يا لعنة الله انصَبّي على هؤلاء الزعماءِ في قبورهم! .

ب ـ الاستعداد للخروج؛ واتخاذ القرار:

قام الشيخ في أواخر سنة ١٩٣٥م بجولة في عدد من المناطق، لدراسة جغرافيتها واختيار المناسب منها لتكون قواعد عسكرية، وكان يفضّل الأماكن الجبلية ذات الغابات الكثيفة. فزار في تلك الجولة بَعضَ القرى، كان منها: قرية (المزار) في قضاء جنين، حيث التقى بالشيخ فرحان السعدي، وقرية (يعبد) في قضاء جنين، وكان يرافقه المجاهد معروف الحاج جابر، وزار قرية (صانور) في قضاء جنين، والتقى فيها المجاهد كامل الحاج حسين، والشيخ موسى السيد، وكان المجاهد كامل الحاج حسين قد اتصل بالشيخ القسّام أواخر عام ١٩٣٥م وعرض عليه أن يجعل من قرية (صانور) قاعدةً. وعندما زار الشيخ المنطقة

وجدها خالية من الأحراج الكثيفة التي تمكن المجاهدين من الاختفاء فيها.

وبَعْدَ أن حزم القسامُ أمره، وعزم على الخروج، بدأ يتصل بأتباعه وإخوانه ويتحدث معهم في قراره إعلان الجهاد. قال عربي البدوي: قبل الخروج، كُنَّا ـ لمدة أسبوع ـ نتباحث، ونجتمعُ في بيوت متفرقة، وأخيراً قررنا الخروج.

وأرسل القسامُ حسن الباير إلى أبي إبراهيم الكبير، ليستشيره في الأمر ـ وكان أبو إبراهيم قد خرج من السجن، بعد أن أمضى مدّة في السجن بسبب حادثة (نهلال) ـ ثم التقى به في حيفا، وقال أبو إبراهيم للشيخ القسَّام: إننا بما في أيدينا، لا نستطيع الوقوف في وجه الإنكليز، فعلينا الاستمرار في عملنا كما هو الآن، أي: الاستمرار في الغارات ليلاً، والعمل نهاراً.

فقال القسَّام: إنما نريد أن نتسلح ونخرج إلى القرى، كي نحثها على الجهاد. وبَعْدَ مشاورات ومداولات وافق أبو إبراهيم، ووافق الجميع على الخروج.

وكان الأمر القياديّ الأول: «ليتوجه كلٌّ إلى أهله، يستودعهم الله، ويعاهدهم على اللقاء في الجنة إن شاء الله».

وفي آخر خطبة له في جامع الاستقلال، فسّر للمصلين الآية

الكريمة ﴿ أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ وَهَمُّواْ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۚ أَتَخْشَوْنَهُمْۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [التوبة: ١٣].

ويقول يوسف الشايب الذي استمع إلى الخطاب: إنَّ آخر كلمات قالها القسّام في خطبته: «أيها الناسُ، لقد علمتُكم أمور دينكم، حتى صار كلٌّ واحد منكم عالماً بها، وعلمتُكم أمورَ وطنكم حتى وَجَبَ عليكم الجهاد، ألا هل بلغت اللهم فاشهد، فإلى الجهاد أيها المسلمون، إلى الجهاد أيها المسلمون».

وبَعْدَ ساعة من إلقاء الخطبة أخذت السلطة تفتّش عنه للقبض عليه ومحاكمته، ولكنه كان قد ودّع أهله وإخوانه، وحمل بندقيته، وذهب وصحبه إلى الجبال.

ويؤكد يوسف الشايب أن القسّام خرج بعد هذه الخطبة، وأنّ سيّارة كانت تنتظره خارجَ المسجد، وأنه لم يشاهده أحدٌ في حيفا، بعد ركوبه السيارة.

وأصحُّ الأقوال في زمن خروجه أنه في أواخر شهر تشرين أول سنة ١٩٣٥م في ليلة ٢٦، أو ٢٧ من الشهر... ومما يرجِّحُ هذا التاريخ أنّ الاستشهاد كان يوم ٢٠/ ١١/ ١٩٣٥م وأن نمر السعدي، أحد المجاهدين الجرحى قال يومها: «إنهم خرجوا من حيفا منذ شهر تقريباً» وقال أبو إبراهيم الكبير: «إنهم تمركزوا في مغارة في قرية نورس أكثر من

عشرين يوماً»، وذكر البلاغ الرسمي البريطاني أنّ الشيخ القسَّام اختفى أوائل شهر نوفمبر... ولعلّه وقّت خروجه في أثناء الإضراب الشامل الذي عمَّ فلسطين في تلك الأيام غضباً لعملية تهريب السلاح التي كانت من أسباب خروج القسَّام.

جـ ـ الهَدَفُ والخُطَّةُ:

لقد ظهر لنـا من تسلسل الأحداث، أنّ القسَّـام وعُصْبتَه، ما كانوا يهدفون إلى اقتناء السلاح فحسب، بل يستهدفون دعوة الناس إلى اقتناء السـلاح والتـدرب عليـه، وكسْـب الـرجـال المتحمسيـن والاستعـداد للجهاد... ولم يكن خارجاً يوم خرج لإعلان بدء المعركة والمواجهة المباشرة مع الأعداء، فذلك يومٌ لم يحنْ بَعْدُ... لأن الشيخ[1] محمد عارف الحنفي، أمين سرّ العصبة القسَّامية، يروي أنه قال للقسَّام ليلة خروجه الأخير: «يا شيخي لا تخرجْ، أنتَ تأمرنا ونحن نفعل وننفّذُ ما تريده. ويبدو أنَّ المجاهد خليل محمد عيسى (أبو إبراهيم الكبير) كان من رأيه أن لا يخرج القسامُ في تلك المدّة، ولكن القسّام استجاب لرغبة بعض رفاقه، ومنهم المجاهد الشيخ حسن الباير.

---

(١) يستعمل لفظ (الشيخ) للدلالة على مَنْ تقدّمتْ سنُّه وظهر عليه الشيب، والعالم الكبير، وصاحب المكانة من علمٍ أو فضلٍ أو رياسة. وقد يوصف به الذي التزم بأداء الفرائض والسنن، ومن السُّنّة إعفاء اللحية. وأكثر أصحاب القسام الذين يسبق أسماءهم لفظ (شيخ) كانوا من الصنف الأخير.

وفي رواية أن أبا إبراهيم الكبير كان من رأيه التريّث في الخروج مسلحين، بل الطواف بالقرى دون سلاح، وحثّ المواطنين على تجهيز ما يلزم للجهاد.

وإذا كان القسَّام قد حمل سلاحه عند خروجه، فإنما حمله لتدريب الناس عليه، وليكون أداة دفاع أو هجوم إذا اقتضى الحال ذلك. ويؤكد الشيخ الحنفي هذا المعنى بقوله: «إنّ الشيخ القسّام لم يخرج للحرب، بل للتدرب على السلاح، وكانت نيّة القسَّام أن تقوم الحربُ ضد الإنكليز واليهود في يوم واحد، في جميع أنحاء فلسطين».

ويستدل الحنفي لذلك بدليلين:

الأول: أنّ القسَّام قال للحنفي ليلة خروجه: «نريد العمل لصحوةِ الناسِ، وتهيئتهم للعمل، فإلى متى نظلُّ نائمين»؟.

الثاني: إنَّ جميع اللفافات الورقيّة المشمّعة (وعددها ثلاث عشرة لفافة) الخاصة بثلاث عشرة مدينة ومنطقة في فلسطين، كانت محفوظة في أشرفية بيسان، ضمن عبوة تنكيّة مدفونة في أرض المزرعة، وكان يوجَدُ في كلّ لفافة، ما بين عشر ورقات إلى اثنتي عشرة ورقة ملفوفة، تحتوي على أسماء المجاهدين القسَّاميين، والتعليمات الضرورية لهم. ومن هذه المناطق: الخليل، غزة، الناصرة، طبرية، عكا، طول كرم، جنين وتُعرف اللفافة من خارجها، لأنها معنونة؟؟ باسم قائد المنطقة الحركي.

وبعض المنـاطق كانت تـوجد فيها أسـلحة محفوظـة ضمن (الكاوتشوك) للتدريب عليها والقتال بها عند اللزوم.

ونقل صبحي ياسين في كتابه (حرب العصابات في فلسطين) أن القيادة القسَّاميّة قررتْ احتلال مدينة حيفا لمدة ثلاثة أيام، بقصد إحراز مكسب عسكري يكون حافزاً لأبناء فلسطين للالتحاق بالثورة والجهاد منذ البداية، ولإرهاب السلطة البريطانية منذ الضربة الأولى، وإشعار الحركة الصهيونية بقوة الثورة... ويذكر صبحي ياسين أنّ هذه الخطة درست دراسة كاملة، وجرى إحصاءٌ كاملٌ لعدد القوات البريطانية وأنواع أسلحتها وكمّياتها. وكانت احتمالات النجاح مضمونة، وإن لم يكن مكفولاً أن تبقى حيفا بأيدي المجاهدين أكثر من ثلاثة أيام.

وقد بقي عدد من إخوان القسّام في حيفا، ليكونوا النواة المقاتلة التي تدعم الثوار المهاجمين القادمين من خارج حيفا.

٣ـ في ساح المعركة:

أـ في قضاء جنين:

غادر عزّ الدين القسَّام وصحبُه حيفا، واتجهوا نحو قضاء جنين.
ومدينة جنين تكوّن الرأس الجنوبي للمثلث المتكوّن من مرج ابن عامر، ولذلك يمتاز موقعها بأنه على أحد مداخل المرج الجنوبية المؤدية إلى جبال نابلس.

وتقوم جنين الحالية على البقعة التي كانت عليها مدينة (عين جنّيم) العربية الكنعانية، بمعنى (عين الجناين)، وفي العهد الروماني كانت في مكانها قرية ذكرت باسم (جيناي)، وذكرتها المصادر العربية القديمة بلفظ (جينين) بيائين بكسر الجيم، وتلفظ اليوم بياء واحدة مع كسر الجيم، ذكر الرحّالة مصطفى اللقيمي حُسْنها في رحلته سنة ١١٤٣هـ، فقال:

يا حبّذا يوماً بجينينَ مضى كالغُرَّةِ البيضاءِ في وَجْهِ الزَّمَنْ
فيه ثلاثٌ للسُّرورِ اجتمعتْ الماءُ والخضرةُ والوجْهُ الحَسَنْ

أما قضاءُ جنين فإنه كان يشتمل على مئةٍ وعشرين قرية، يحدُّه من الشمال أقضية بيسان، والناصرة، وحيفا. ومن الشرق: قضاءا بسيان ونابلس. ومن الجنوب: قضاءا نابلس، وطولكرم. ومن الغرب: قضاءا حيفا، وطولكرم.

وفي إحصائيات سنة ١٩٣١م كانت نسبة المسلمين في القضاء (٩٨٪).. وكان عدد اليهود في هذا القضاء أربعة أشخاص فقط.

أما قرية يَعْبَدْ فيرجَّح أنها بمعنى (عبد) الآرامية. بمعنى تعهد الأرض بالزراعة، ثم مجازاً بمعنى: العبادة، والعَبْد، والخادم، والفلاح، والعامل.

وتقع في الجهة الغربية من جنين على بُعد ثمانية عشر كيلاً منها..

بلغ عدد سكانها سنة ١٩٣٥م حوالي أربعة آلاف نسمة. وجميعهم من المسلمين.

وتمتاز أراضي (يعبد) بكثرة أشجارها، وأحراجها: فقد بلغت الأراضي المغروسة بالزيتون (٧٢١٠) دونمات. وأما الأحراج، فتُقدَّر مساحتها بـ(٩٢)ألف دونم، ويستفيدون من هذه الأحراج في رعي المواشي الكثيرة فيها، وصناعة الفحم.

ويرد في القصة أسماء قرى (نُورس)، و(شطة)، و(زرعين)، و(كَفْران)، و(برقين)، و(البارد)، و(كفر قود)، و(نزلة الشيخ زيد، و(فقوعة)، وكلّها في قضاء جنين، وسوف يرد التعريف بها في سياق الأخبار.

ففي هذه القرى الخصائص الجغرافية البشرية التي اختار القسام المنطقة بسببها. ناهيك عن أنّ كثيراً من أصحاب القسَّام من سُكَّان هذا القضاء.

ب ـ أخبار معركة يعبد:

تتعدَّد مصادر أخبار المعركة؛ فقد نقلتها بيانات حكومة الانتداب البريطاني، وهي بيانات غير موثوقة، لأنها تصوّر الأحداثَ كما يُزيّنَ لها الهوى، لتحدث الأثر الذي يناسِبُ السياسة الاستعماريّة.

ونقلت أخبارَ المعركة الصّحافةُ اليوميّة الفلسطينية: وهي غيرُ

موثوقةٍ حيناً، وغير دقيقةٍ حيناً آخر. أما كونها غير موثوقة، لأنها محكومة لقانون المطبوعات الإنكليزي، ولا تملك الحريّة الكاملة لنشر ما تريد، بالألفاظ والعبارات التي تصوّر الواقع، فعندما اكتُشفت صفقة الأسلحة المهرّبة إلى اليهود، مُنعتْ الصحافة من ذكر لفظ (السلاح والتسليح) في بيان سبَّبَ هياج الشعب الفلسطينيّ.

وهي غير موثوقة أيضاً: لأنها تُجبَرُ على نَشْر بيانات الحكومة الإنكليزية في وصف الأحداث.

وهي غير دقيقة حيناً: لأنها قد تعتمد في نقل أخبار الأحداث على مَنْ لم يـر الحدث، فهي لا تملك المراسـلين المبثوثين في كل مكان، فتعتمد على الشائعات. وكما كانت الحياة السياسيّة محكومة بالهوى الحزبي، أو العائلي، كذلك كانت الصحافة.

والمعروف أن السياسيين لم يرحبوا باستشهاد القسَّام، فقد حسدوه على هذه الميتة (حتى على الموت لا أخلو من الحسدِ). فعندما دعا أكرم زعيتر في ٢١/ ١١/ ١٩٣٥م الأحزاب والزعماءَ والهيئات إلى الاشتراك في جنازة الشهداء، ونشر دعوته في جريدة (الجامعة الإسلاميّة) اليافيّة.

علّق الشيخ سليمان التاجي صاحب الجريدة على البيان بقوله: «وفيما يتعلق بمسألة تشييع الجنائز، فهذه مسألة دينيّة، لا يُرجع فيها إلى حكم سياسيّ، ولا إلى نصٍّ قانوني، وإنما حُكْم الدين الذي لا يفرِّق بين ميّت وميت» وهو حقٌّ أُريدَ به باطل... وإذا كان يرى الشيخُ أن تشييعَ

جنازة الشهداء بالصفة التي دعا إليها زعيتر أمرٌ سياسيّ، فإن السياسة من الدين، ولا فَصْلَ بين الدين والسياسة. والشهداء المطلوب تشييعهم، كانوا يشتغلون بالمسألة الوطنية التي يعدونها من السياسة.

وأما قوله: «إنَّ الدين لا يفرق بين ميّت وميت». فهذا باطل، لأن الشهيد ليس ميتاً بحكم الدين. فهناك فرق بين مَنْ يُقتلُ في سبيل الله، أو في سبيل الوطن كما يقولون، وبين مَنْ يموت كما يموت الجبناء في حصونهم وقصورهم المشيدة لحراستهم من الموت.

والمصدر الثالث من مصادر أخبار المعركة القسَّاميّة: هم القسَّاميّون أنْفُسُهم، أو مَنْ بقي حيّاً منهم عندما بدأ التدوين. ويُعدّون أوثق المصادر في أخبار العصبة القسّامية ولكن رواياتهم كانت شفوية، بَعْد مضيّ زمن طويل على وقوع الأحداث. وتكلّم مَنْ سُئِل منهم في سنٍّ متأخرة، فكانوا يُمْلُون أجوبتهم عن سن الشباب البعيد، وجلُّ أصحاب القسَّام لم يكونوا من أهل الكتابة والتدوين، فلم يكتبوا لأنفسهم مذكراتٍ متأنّية، فنُقلتْ أخبارُهم إلى المؤلفين والكُتّاب عن طريق لقاءات وقْتِيّة، قد يقولُ أو يتذكر أحدهم فيها شيئاً، ثم يظهر له خلافُه... وكانت اللقاءات الشفوية ناطقة باللهجة العاميّة، فيترجِمُها الناقلُ إلى لغة الكتابة، فيظهر الفرقُ في المعنى بين الصياغتين...

وسوف أجمعُ بين المصادر الثلاثة وآخذ منها ما أراه مناسباً لسياق الأحداث.

جـ ـ قَبْل المعركة الأخيرة:

كم مجاهداً خرج في صحبة القسَّام؟.

لا يعلمُ أحدٌ جواب هذا السؤال اليوم، إلا الله تعالى. فذكر بعضهمُ أن العدد خمسة وعشرون مجاهداً، وذكر بعضهم أسماء ستة عشر مجاهداً، وذكر بعضهم أقلَّ من هذا، وأكثر منه... ولعلّ أقرب الأقوال إلى الصحة، أنّ القسَّام خرج وحده من حيفا، وكان أصحابه في انتظاره في مكان متفق عليه، ولعلّ أصحابه الذين رافقوه في مكمنه، كانوا من القياديين الذين استبقاهم بجانبه للتشاور معهم.

أما بقيّة المجاهدين المنظمين في الخلايا، فقد تفرّقوا في القُرى، ليكون دُعاةً إلى الجهاد، وليكونوا القادة المحركين عندما يحين وقتُ الإعلان، والنفير العام. لأن الخِطة كانت تقضي أن يطوفَ الأنصار في القرى لإعدادِ الرجال وتسليحهم. وقد يكون التسليحُ ذاتياً، وقد يكون مما أعدّته العصبةُ لهذا اليوم من الأسلحة المخبأة. فكل عضو في الحركة كان يملك السّلاحَ، وكان للعصبة أيضاً سلاح مُدّخر.

ويبدو أن الموعد كان في قرية (نُورِس)[1] حيث ينتظرهم الشيخ

---

(١) نورس: (بضم أوله وكسر ثالثه، وسين في آخره) تقع في ظاهر قرية (المزار الشمالي) لا يملك اليهود في أراضيها شيئاً. وتحتوي على مغائر منقورة في الصخر. هدمها الأعداء بعد سنة ١٩٤٨م.

فرحان السعدي[١]، وهناك أقاموا في مغارة في أحد جبال القرية... ويظهرُ أنَّ الجماعة اختارت قرية (نورس) ولم تختار (المزار) قرية الشيخ السعدي، لأن فرحان السعدي كان معروفاً بجهاده، وسجن ثلاث سنوات في أعقاب ثورة البُراق، ويُخشى أن يكون محاطاً بالجواسيس.

وهناك رواية تجعلُ الكهف مقرّ جماعة القسَّام قُرْبَ مستعمرة (عين حارود)... والروايتان صحيحتان، لأنَّ القرى والمواقع متقاربة جداً في فلسطين. ولكن (عين حارود) في قضاء بيسان، بالقرب من (عين جالوت) على الحدود بين قضائي بيسان وجنين، بين قريتي (نُورِس) و(زرعين).

وعندما كان القائد القسّامُ يبثُّ الدعوة الجهادية في قرية (زرعين)[٢] المجاورة طرأتْ أحداثٌ عرضيّة بالقرب من مقرّ الجماعة في الكهف، فاجتهد بعض المكلفين بالحراسة والمراقبة، بما رآه مناسباً، فأدّى ذلك

---

(١) الشيخ فرحان السعدي: من قرية (المزار) المجاورة في قضاء جنين. انضم إلى جماعة القسّام، فكان فارسَ ثورة سنة ١٩٣٦م، حكمتْ عليه بريطانية الظالمة بالإعدام سنة ١٩٣٨م وقد تجاوز الثمانين من عمره، وكان يوم استشهاده صائماً.

(٢) زرْعين: (بكسر أوله، وسكون ثانيه وكسر ثالثه، وياء ونون) تقوم على بقعة (يزرعيل) الكنعانية العربية. و(زرعين) كلمة سريانية بمعنى: زارعون، وفلاحون. وتقع آخر أعمال جنين من الشمال على بُعْد أحد عشر كيلاً. دمّرها الأعداء سنة ١٩٤٩م وأقاموا على بقعتها مستعمرة (يزرعيل).

إلى إثارة شكوك السلطة بوجود عُصْبة جهادية في المكان، حيث أطلق أحدُ الحراس النار على دورية شرطة عابرة، ظُنَّ أنها تبحث عنهم، فأدى إلى مقتل شرطي يهوديّ، فربطت الشرطة بين غياب القسَّام عن (حيفا) ومقتل الشرطيّ، فكثّفت عيونها في تلك المنطقة.

ولما عَلِمَ القسامُ بخبر مَقْتل الشرطيّ ـ ولم يكن في خطة الخروج الابتدائية ـ أمر بالرحيل فاتجهوا نحو قرية (كَفْر دان)[1] وورد في جريدة (فلسطين) في ١٠/ ١١/ ١٩٣٥م أن حادث مقتل الشرطي حصل يوم ٧/ ١١/ ١٩٣٥م.

وقد أعلنت الشرطة عن حوافز مادية لتشجيع القرويين على الإدلاء بمعلومات عن قاتل الشرطيّ.

ونشرت الشرطة خبراً يفيد أنّ المجموعة المطاردة في جبال جنين هي عصابة لصوص، لتضليل الناس والحصول على معلومات عن تحرّكها.

ثم انتقلت الجماعة من (كَفْر دان) إلى قرية (بِرْقين)[2]، ومنها

---

(١) كَفْر دان: الكَفْر: معناه: القرية. و(دان) بمعنى (القضاء) و(الحكم) فيكون المعنى قرية القاضي، أو قرية الحاكم. وتقع للغرب من جنين، بانحراف إلى الشمال على مسيرة ثمانية أكيال. بلغ سكانها سنة ١٩٤٥م (٨٥٠) فرداً، وفي سنة ١٩٦١م كانوا ١٢٦٢ عربيّ.

(٢) بِرْقين: (بكسر أوله وسكون ثانيه وثالثه، وياء ونون). لعله محرّف من كلمة=

انتقلوا إلى جبال قريتي (البارد)[1] و(كَفْر قُود)[2].

وقد وصف (عربي البدوي) ـ وهو أحد أفراد العصبة المرافقين للقسَّام ـ هذه المرحلة من حركة الجماعة فقال: «أثناء النهار، كنتُ حارساً، وكان الشيخ وبقية المجاهدين يستريحون في مغارة، وبينما كنتُ أراقب أتى رجلٌ معه عصا طويلة في رأسها قطعة حديد... وزعم أنه حارس مزروعات القرية، فأبلغتُ الشيخ القسَّام بخبره، فأمرني بتركه... وبَعْد برهة أدركتُ أنه جاسوس، وكان مقتنعاً أن المطاردين عصابة لصوص، وكان البوليس على الجبل المقابل يتعقبنا، دون أن يعرف تحديد المكان، فأرسلوا شرطياً لنشتبك معه، وينكشف مَخْبَؤُنا،

= (برك) الجذر العربي المشترك، بمعنى (الاستراحة) ثم تجوزاً بمعنى البركة. والياء والنون، للجمع، فيكون المعنى (أمكنة الاستراحة) أو (الأمكنة المباركة).

تقع القرية غرب جنين بانحراف إلى الجنوب، على مسيرة خمسة أكيال.

(١) البارد: قرية تقع غرب جنين، على بُعْد تسعة أكيال. بلغ سكانها سنة ١٩٦١م (٣٧٧) نسمة. وقد كره مختار القرية اسمها، لأن الناس كانوا يقولون: ذهب وجاء (المختار البارد) فرفع إلى الحكومة الأردنية ـ بعد النكبة ـ أن تُسمّى (الهاشمية) فكان لها هذا الاسم.

(٢) كَفْر قُود: الجزء الثاني (بضم القاف، ثم واو ودال) ربما كانت تحريفاً لكلمة (ياقودا) السريانية، بمعنى (الواقد) أو (الحارق) وعليه فإن معنى الاسم (قرية الواقد) أو قرية الحارق أو (صانع الفحم) بلغ سكانها سنة ١٩٦١م (٣٦٢) نسمة.

فأمر الشيخُ (معروفَ الحاج جابر) و(محمد أبو القاسم خلف) بالذهاب إليهِ وأخْذ سلاحه، وحين اصطدموا معه، ابتدأت المعركة بينهم وبين باقي أفراد البوليس، وسمعنا صوت إطلاق النار، فهيأنا أنفسنا، وتفرقنا بانتظارهم. واستشهد أثناء المعركة محمد أبو القاسم خلف الحلحولي، واستطاع معروف جابر، الانسحاب والعودة إلى حيفا».

وقد نشرتْ الصحافةُ المحلية يومها بيان دائرة البوليس حول مَقْتل محمد أبو القاسم خلف وزعمتْ أنه من (عصابة أشقياء) تهدد الأمن العام. ولكنَّ عقلاء الناس لم يكونوا يصدّقون مزاعم السلطة البريطانية، ويعرف كثيرٌ من الناس أن السلطة تخفي الحقائق لئلا يعلم الناسُ بوجود مجاهدين، فيدبُّ فيهم الحماس الوطني.

إنَّ الناس متأكدون أنَّ هؤلاء الذين تطاردهم سلطات الانتداب، من إخوانهم المجاهدين، ولكنهم لا يعلمون هُويتهم، بل كانوا يظنّون أنها عمليات فدائية فرديّة غير منظمة. فلم يعرف الناسُ حتى ذلك الوقت تنظيماً في العمل الوطني. يوجد أناس مخلصون للقضية، ولكنهم لا يجدون بجانبهم مَنْ يوافقهم على وجوب الجهاد الجماعي المنظم. إنَّ إعداد العُدّة لحركة ثورية جهادية كانت أمنية الناس... ولكن الناس سنة ١٩٣٥م سقطوا في أدنى درجات اليأس والخوف: اليأس من وجود قيادة وطنية منظمة، تعمل لوجه الله، لا ترهب البطش ولا تطلب الأجْر، إلا من الله تعالى.

والخوف: من بطش السلطة البريطانية التي بثت عيونَها وجواسيسَها في كل مكان.

لقد كان اليأسْ مسيطراً على خاصة القوم، بَلْه العامّة: ومن أمثلة اليأس، قصة الشيخ عبد القادر المظفّر: فقد شارك في ٢٧/ ١٠/ ١٩٣٣م في مظاهرة قادها رجال الحركة الوطنية... فاعتقلت الشرطة زعماء المظاهرة، ومنهم الشيخ المظفر، وأودعوا السجن، وشُرط لخروجهم تقديم كفالات (حُسْن سلوك)... فقدّم الزعماء كفالاتٍ إلا المظفر فقد رفض هذا الطلب، وأبى أن يُسجَّلَ عليه عار (الكفالة) وآثر السجن والاعتقال ستة شهور[1]، وبعد خروجه، كتب إلى أكرم زعيتر رسالةً قال

---

(١) وقد مدحه إبراهيم طوقان لهذا الموقف فقال:

انظر لما فَعَلَ المظفّرُ إنَّه
نَفعَ القَضِيّةَ غائباً لم يحضرِ
عَرَضُوا (الكفالةَ) والكرامة عنده
عبثاً... وهل عَرَضٌ يُقاس بجوهرِ
ورأى التحيّز في التخيّر سُبّةً
ففدى كرامته بستةِ أشهرِ
لم يَخْلُ ميدانُ الجهادِ بسجْنه
فلقد رماه بقلبه المُتَسَعِّرِ

توفي عبدالقادر المظفر سنة ١٩٤٩م. وقصتُه مثلٌ يُحتذى للوطنيين والمصلحين والدعاة المخلصين... أما الذين يهيّجون مشاعر الجمهور، ثم يهربون لقيادة=

فيها: «وهأنذا ـ مُنْذُ خُروجي حتى اليوم ـ على فراش المرض. وواللهِ إنَّ السجنَ وما فيه لأشرفُ وأحسنُ وأخفُّ على النفس مما أُشاهد في البلاد، فالناسُ صرعى الألقاب والمُهاترات... كلُّ يوم يقوى الخصمُ، ونزدادُ ضعفاً» وكان هذا الخطاب في ٣٠/ ١/ ١٩٣٥م.

وفي ١٠/ ١١/ ١٩٣٥م: كتب الأستاذ أكرم زعيتر في جريدة (الجامعة الإسلامية) يدعو الشبابَ المخلصين إلى نفض اليد من زعاماتٍ لاتتقي الله في وطنها. وفي ١٩/ ١١/ ١٩٣٥م كتب الأستاذ سامي السرّاج في جريدة (الجامعة الإسلامية) مقالاً يدعو فيه المتزعمين إلى أن يتنحّوا عن العمل السياسي، وأن يجربوا أنفسهم في الحقل الاقتصادي وأن يشرعوا في تأسيس معامل الإسمنت (الشمينتو) والمكانس والجوخ.

والمثال الذي يجمع بين الخوف واليأس، ما سجله الأستاذ أكرم زعيتر في ١٠/ ٢/ ١٩٣٥م، قال: كنتُ كتبتُ ـ من بغداد ـ إلى الأخ رشيد الحاج إبراهيم ـ زعيم الحركة الوطنية في حيفا ـ حاثّاً على تغيير أساليب النضال، وإعداد العُدّة لحركة ثورية جهادية، فتلقيتُ اليومَ جواباً، وفي طيه رسالتي إليه مُعادةً إليَّ... وتحدّث عن التدهور في الحركـة الوطنيـة، وعن يأسـه من الشباب، وقال: ولذلك أُعيدُ إليك كتابك لتمزّقه بنفسك، راجياً ألاّ تكتب لغيري بهذه الصراحة، خوفَ

= المعركـة من بعيد وهم آمنـون، فليسـوا دعاةَ خيرٍ، وإنما هم بـاحثون عـن الرئاسات على رقاب الضعفاء.

انتقال الكتاب إلى أيدٍ غيرِ أمينة، مما يوجب الضرر لك، وأنت أدرى بما يُضمره لك، خاصة لابس القبّعة. . .

د ـ قَبْل يومين من معركة الشهادة:

في الثامن عشر من شهر تشرين الثاني، ترك القسامُ وصحبه جبال (كَفْر قود) واتجهوا نحو خربة (الشيخ زيد) قُرْب (يَعْبد)، حيث الشيخ (سعيد الحسان) أحد أفراد عصبة القسّام، وفي الطريق، لاحظ عربي بدوي متابعة الجواسيس خطواتهم فطلب من القسَّام، أخذ قسط من الراحة، لبحث مسألة الجواسيس. يقول عربي: كان القسَّام يأخذ بآرائي مع صغر سني، فأخبرتُ الجماعة أنّ هذه القرى يوجد فيها مَنْ يتعقبون آثارنا، واقترحتُ أن ننقسمَ إلى فريقين: فريقٍ يتجه إلى الشمال، ويعود إلى حيفا والناصرة، ويقوم أثناء سيره بتخريب سكك الحديد، وقطع خطوط الهاتف التابعة للإنكليز واليهود، ثم يذهبون إلى (نُورِس) حيث يوجد الشيخ فرحان السعدي، ونلتقي جميعاً في (الوادي الأحمر)[1] بين نابلس والغور. وهناك تملك الجماعة حرية أكثر، وتخف ملاحقة الجواسيس، فأُعجب القسَّامُ بهذه الفكرة، وطلب من المجاهدين الانقسَّام إلى مجموعتين:

---

(١) الوادي الأحمر: واد شتوي، يبدأُ مجراه من قرب قرية عقرباء، وينتهي في نهر الأردن في الجنوب من وادي الفارعة.

الأولى: ذهبت إلى الشمال، وهي مكونةٌ من عشرة رجال، ويدلهم على الطريق الشيخ داود الخطاب.

والثانية: توجهت نحو الغرب إلى ضواحي (يَعْبد). وهم: الشيخ عزّ الدين القسّام وحسن الباير، وعربي البدوي، وأحمد عبد الرحمن جابر، ومحمد يوسف، ونمر السعدي، وعطية المصري، وأسعد المفلح، ويوسف الزيباوي.

قال الراوي عربي البدوي: وفي الطريق، نَفِدَ الماءُ، وكانت أحمالُنا ثقيلةً، فكل رجل يحمل بندقية، وستين (مشط فشك)، وحربة صنعها القسّام عند أحد الحدّادين تيمناً بسلاح الصحابة، يضاف إليها الأغطية وأدوات السفر والطعام.

وفي الليل أرهقنا التعبُ والعطش، فطلبتُ من الشيخ أن نستريحَ لنشربَ، ولكن ليس لدينا ماء، ولا نعرف منهلاً قريباً، وكان حسن الباير يعرف المنطقة شبراً شبراً فقال: إنَّ أقرب منبع للماء يبعدُ حوالي عشرة أكيال... فأمرنا الشيخ بالاستراحة، وأرسل معي رجلين حملوا أوعية ماء، فسِرْتُ أمامهم على غير هدى، ولم نكن نقطع مسافة ستين متراً، حتى أتينا صخرة، وإذْ بها حفرة (معصرة) حجمها متر مربّع، مليئة بالماء، فشربنا وملأنا الأوعية، ورجعنا، فشرب إخواننا، ثم واصلنا السير حتى وصلنا خربة الشيخ زَيْد.

وفي اليوم التاسع عشر من شهر تشرين الثاني أصبحت تحركات الجماعة تلاقي صعوبة شديدة . . . فقد وصل إلى جنين عدد كبير من رجال المخابرات والجواسيس، وانبثوا بين الناس في قرى القضاء، وكانوا يتخفّون في زيّ عامل أو فلاح أو زبّال . . . إلخ . ووصف مراسل صحيفة (فلسطين) في جنين وقضاء المدينة بأنه أصبحَ ساحةَ حرب، لكثرة استعدادات البوليس، وازدياد عدد رجاله من رسميين وسرِّيِّين .

وفي اليوم نفسه شيّعتْ مدينة جنين الشهيد (محمد أبو القاسم خلف الحلحولي). وكانت الشرطة قد أبقت جثته مكانها بعد استشهاده يوماً كاملاً، إلى أنْ تمَّ فحصها، وقد سار في الجنازة عدد كبير من تُجّار ووجهاء وشباب مدينة جنين وقضائها، وأظهر المشيّعون تعاطفاً مع الشهيد، مع أنّه لم يكن معروفاً وقتها أنَّ المطاردين هم جماعة مجاهدة . وإنّما كان الشائعُ ـ حسب بلاغات الشرطة ـ أن القتيل من عصابة لصوص . فشيّعه الناس بوصفه خارجاً على قانون الانتداب البريطاني الجائر، وكان الناس ينظرون بعين التقدير لمن يتحدّى قانون الانتداب بقوّة السلاح، حتى ولو قيل : إنّه لصٌّ يسطو على مزارع اليهود، ومعسكرات الانتداب، ولو كان ذلك بدافع السرقة فقط، لأنه وجّه نفسَه لسرقة أمتعة الأعداء فقط، ولم يسطُ على أحدٍ من إخوانه العرب .

وقد عُني الناسُ في الثلاثينيات بأخبار (أبو جلدة) قاطع الطريق على

الإنكليز واليهود وصار بطلاً شعبياً، يتغنّى الناسُ بقصته[1]. مع أن (أبو جلدة) لم يقطع الطريق على الإنكليز واليهود، وهو يرفع شعاراً وطنياً. ولكنه نال إعجابَ الجمهور، لأنه كان يزرع الرعبَ في قلوب المستعمرين ببسالته وجرأته، في وقْتٍ كان فيه الذين يرفعون الشعارات الوطنية منطوين في جحورهم.

٤ ـ يوم الشهادة والشهداء:

وصل الشيخ القسَّام وصحبه خربة الشيخ زيد[2] في التاسع عشر من شهر تشرين الثاني، ونزلوا في بيت الشيخ سعيد الحسان، حتى صبيحة الأربعاء ٢٠/ ١١/ ١٩٣٥م... وهو يوم الشهادة، يوم الحياة، يومٌ بُعثتْ فيه الأُمة، واستيقظ الشعب من غفلته. ويصف عربي البدوي

---

(١) أحفظ من أغاني الطفولة في قصة (أبي جلدة) قولهم:

بنت (أبو جلدة) قاعدة بتخيِّط
أجاها الخبر وأبوها ميِّتْ
أخذت شنطتها وطلعت تعيّط
وقالت: يحرمكن ياللي حرمتونا

(٢) خربة الشيخ زيد، وتُعْرَف أيضاً باسم (نزلة زيد) تقع في الجهة الشمالية من (يعبد) على مسافةٍ أقل من ثلاثة أكيال، وهي ملك لآل زيدٍ من عائلات (يعبد) كان بها سنة ١٩٢٢م عشرة أشخاص، بلغ عدد السكان سنة ١٩٦١م (١٣٢) نسمة. وتضم قبري الشيخ زيد الثاني، وأخيه الشيخ محمد.

مشاهد من هذا اليوم، فيقول: كان يوم أربعاء، وكنتُ أقفُ خفيراً في طرف حرش (يعبد) قرب خربة الشيخ زيد، والطرْم[1]، ورفاقي داخل الغابة: الشيخ عزّ الدين وعصبته. ومع طلوع الشمس رأيتُ رجال (البوليس) يهجمون علينا، وهم على ظهور الخيل، ويتصايحون «عليهم عليهم» فأوعزت إلى رفاقي بأن يتوزعوا، ويأخذوا أماكنهم. . . وبدأتُ أُطلِقُ الرصاص، فجعلوا يتركون الخيل، ويأخذون مواقعَ لهم على بطونهم، خلفَ الحجارة والرجوم من أكوام الحجارة.

وابتدأت المعركة غير متكافئة. . . نحن تسعةٌ، وهم يتوافدون عشراتٍ عشراتٍ إلى أن اكتمل عددهم، من مئتين إلى أربعمئة، ومعظمهم يحمل شارة بندقيتين على ذراعه، وهذا يعني أنه قنّاصٌ لا يخطئ. مكثتُ مُدَّةً تزيد على عشرين دقيقة وأنا أطلِقُ الرصاص واقفاً، لا يحجبني عنهم حجرٌ أو شجر، والمسافة بيني وبينهم لا تزيد عن خمسين متراً. . . وأخيراً انتبه الشيخ رحمه الله وصاح بأعلى صوته خُذ الأرضَ، لن تموت شهيداً إذا مت على هذه الحال، أنت منتحر إذا لم تأخذ الأرض. . .

---

(١) خربة الطرم: تقع في الجهة الشمالية الشرقية من (يَعْبد). وقد يكون اسمها تحريف (طورام) بمعنى الجبل، ويُظنُّ أن المعركة كانت أقرب إلى الطرم.
وللعلم: فإن كلمة (خربة) في فلسطين، لا تعني (الخراب) وإنما تعني أنها كانت مأهولة في زمن سابق، ثم جلا عنها أهلُها، فخربت بيوتهم، ثم عادت إليها الحياة. وأكثر الخرب ـ جمع خربة ـ تكون مناطق زراعية، تسكنها قلة من الناس.

تلقينا أمراً بالانسحاب، والتوغل داخل الغابة، وجرح الشيخ أسعد المفلح (من أُم الفحم) وحاولتُ حمله، فناداني الشيخ: اتركه واعتنِ بنفسك... وفي داخل الغابة وجدنا صخوراً تصلُح للتمترس بها... ضيقوا علينا الخناق، وأحكموا نطاق الطوق إلا من جهة واحدة جهة الشمال، وكانت مكشوفة، والانسحاب منها معروفةً نتائجُه، فقررنا المقاومة حتى مجيء الظلام...

وحين عرف الشيخ القسّام أنّ أفراد الشرطة يقتربون، أعطى للمجاهدين أمراً بألاّ يطلقوا النار على أفراد الشرطة العرب، وأن يوجّهوا رصاصهم إلى الإنكليز، وكان الضباط الإنكليز قد وَضَعُوا الشرطة العربية في ثلاثة مواقع أمامية، وتمترس الإنكليز خلفهم، ولم تكن الشرطة العربية تعرف حقيقةَ الجهة التي أُحضروا إليها، وحقيقة الجماعة التي يطاردونها... فقد ادّعوا لهم بأن المطارَدِين لَصوصٌ، يهددون أمنَ البلاد.

واتخذت المعركة بين الطرفين شكل عراك متنقل، وساعدت كثافة الأشجار على انتقال أفراد الجماعة من موقع إلى آخر. ودامت المعركة مستمرة من الصباح الباكر حتى وقت قُبيل العصر.

وقد ثبت المجاهدون وأَبَوْا الفرار، وكان يستطيعون ذلك، وبدت أمامهم فرصة للنجاة عندما ناداهم الضابط البريطاني: استسلموا تنجوا.

فأجاب القسّام: لن نستسلم، هذا جهاد في سبيل الله. ثم هتف

بأصحابه: موتوا شهداء. . . فردَّد الجميعُ: الله أكبر الله أكبر.

فاستشهد في المعركة القائدُ عزّ الدين القسّام، وثلاثة من أصحابه: هم يوسف عبد الله الزيباوي ـ بالزاي ـ نسبة إلى قرية (الزيب) في قضاء عكا. وعطية أحمد المصري[1]، وأحمد سعيد الحسّان، من (نزلة زيد).

وجرح في المعركة: نمر السعدي ـ من غابة شفا عمرو، وأسعد المفلح ـ من أم الفحم.

وأُسر في المعركة: حسن الباير ـ من برقين، وحكم عليه بالسجن ١٤ عاماً. وأحمد عبد الرحمن جابر ـ من (عنبتا) وحكم عليه ١٤ عاماً. وعربي البدوي ـ من (قيلان) وحكم عليه ١٤ عاماً. ومحمد يوسف ـ من سبسطية.

٥ ـ تقويم مقاصد القسّام من هذه المعركة:

خرج القسّام من حيفا إلى قضاء جنين، وفي خطته البدءُ بالدعوة إلى الجهاد، وجمع الرجال، وتسليحهم، ثم إعلان الحرب على الأعداء في فلسطين كلها. . . على أن تبقى الخطوات والأهداف سريّة ما أمكنت السريّة. . . ولكنَّ الأحداث التي رافقت خروج القيادة منذ اليوم الأول،

---

(١) روي اسمه بصورٍ شتّى: فجاء بالصورة التي أثبتناها في المتن ـ و(حنفي عطية أحمد المصري) و(سعيد عطية أحمد) و(محمد حنفي المصري) ـ وهو مصريٌّ جاء عاملاً إلى حيفا.

كشـفتْ سـريّة الخروج، ورافق ذلك غياب القسَّـام عن حيفـا، وربْط المخابرات الإنكليزية بين الأحداث الابتدائية وغياب القسَّام، وخصوصاً أن القسَّام كان متهماً عند السُّلطة أنه كان وراء الأحداث التي حصلت في السـنوات السابقة، ولكنها لا تملك الأدلة لإدانته ومحاكمته، وكانت السلطات البريطانية ترجّح أن يكون القسّام وراءَ الأحداث العسكريّة بوصفه منظماً، أو داعية جهاد. . . فلم يكن في فلسطين كلِّها مَنْ يصرّح بـأن الجهاد طريق التحريـر، إلا عزّ الدين القسّـام، فقد جَعَل الجهادَ موضوعه الأول في جامع الاستقلال.

فكل الدلالاتِ تشيرُ، أو تربطُ بين القسَّام والأحداث العسكريّة، قبل خروج القسَّام وبعد خروجه، وقد كُشِفت الخطة في بدايتها، ولم يكن النـاسُ في قضـاء جنين أو في غيره من الأقضيـة يعلمون بخروج القسَّـام مجاهداً، وزاد الناسَ جهلاً التضليلُ الإعلامي الذي اسـتخدمته السـلطة، لئلا يعلم الناسُ أن عصبة القسَّـام الجهادية هي التي تطاردها القوات الإنكليزيـة، فيثور الناسُ لنجدتـه، ويفلت زمام المبادرة من السلطة البريطانية.

إذن، حوصر القسَّـامُ وعصبتُه إعلاميـاً وعسكرياً، ولم يكن مع القسَّام في معركته الأخيرة إلا ثمانية مجاهدين، وهو تاسعهم.

فـالمعـركـة غيـر متكـافئـة، وخسـارة القسَّـام وعصبتـه المعـركـة العسكريّة، متحقق. . . فالعدوّ البريطاني يملِكُ الطائـرات والمدافـع،

والدبَّابات، والآلاف المؤلفة من الجنود... وقيل: إنّ عدد الجنود الذين حضروا المعركة مئتا جندي، وقيل أربعمئة، ولو لم يكن للعدوّ إلا هذا العدد، فإنّ المعركة غير متكافئة في العدد والعُدّة... ولا يجدرُ بعصبة قوامها عشرة رجال، وعُدتها البنادق مع قليل من الذخيرة، أن تصمدَ أمام هذا العدد... فإن كانوا مئتين فإن المعركة تكون بنسبة (١/ ٢٠)، وإن كانوا أربعمئة تكون النسبة (١/ ٤٠). ولم يفرض الله على المسلمين الثبات أمام الكافرين بهذه النسبة. فقد كانت بداية فرض الثبات أمام الأعداء ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَـٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ﴾ [الأنفال: ٦٥] بنسبة (١/ ١٠)، ثم خفف الله على المسلمين فقال: ﴿فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ﴾ [الأنفال: ٦٦] بنسبة (١/ ٢).

ففي غزوة بَدْرٍ الكبرى، لم يكن المسلمون خارجين لقتالٍ، ثم فاجأهم القتالُ فقاتلوا وكان عددهم (٣١٩) مسلماً، وكان عدد المشركين ألفاً، فكانت النسبة (١/ ٣) تقريباً. وقد ثبت في القرآن والحديث أنّ الله َأمدَّ المسلمين بالملائكة يوم بدر وفي نصّ القرآن أن الله أمدَّ المسلمين ﴿بِثَلَـٰثَةِ ءَالَـٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ﴾ [آل عمران: ١٢٤] ولكن نسبة عصبة القسَّام إلى جنود الإنكليز كانت (١/ ٢٠)، أو (١/ ٤٠)، فما الذي جعله يثبتُ في المعركة، ولا يستسلم، ولا يهرب، وهو معذورٌ في ذلك شرعاً ومعذورٌ عُرْفاً؟.

الجواب: ليس كلُّ معركة يكون هدفها النصر العسكري المنظور

المحسـوس، بل هنـاك أهـدافٌ معنويـة يظهر تـأثيرها فيما يـأتي من الأحداث.

فقد جهّز النبيُّ ﷺ جيش مؤتة من ثلاثة آلاف رجل، وولّى عليه زيد ابن حارثة، فـإن أُصيب زيدٌ فجعفر بن أبي طالب، فإن أُصيب فعبد الله ابن أبي رواحة... وهذه المرّة الأولى التي يتخذُ النبي ﷺ فيها مثل هذا التدبير... فقابلهم الروم بجيش عِدّته مئة ألف، ومئة ألف أخرى من نصارى العرب، فكانت النسبة (١/ ٦٦) تقريباً... وهم في بلادٍ بعيدةٍ عن مركز الدعوة، ولا أملَ في مددٍ عسكريّ قريب... فشجع عبد الله ابن رواحة الناس قائلاً: «يا قوم، والله إنَّ التي تكرهون، للتي خرجتم تطلبون: الشهادة. ومانقاتلُ الناس بعددٍ ولا كثرةٍ ولا قوّة ولا نقاتُلهم إلا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به، فانطلقوا، فإنما هي إحدى الحسنيين، إمّا ظهورٌ وإما شهادةٌ».

فاستشهد القادة الثلاثة تباعاً، وحمل الرايةَ من بعدهم خالد بن الوليد، فقال رسول الله ﷺ: «حتى أخذ الراية سيفٌ من سيوف الله حتى فتح الله عليهم».

وفي قصة مؤتة شواهد، منها:

١ ـ أن تكون عدة الجيش ثلاثة آلاف لغزو الروم في عقر دارهم.. وهذا يعني أنَّ هدف الغزوة ليس النصر العسكري، وإنما هو إظهار قوة المسلمين وشجاعتهم.

٢ ـ إرسال الجيش إلى مؤتة ـ من بلاد الشام ـ فيه إيعاز إلى المسلمين بأن أرض الشام من جزيرة العرب التي يجب أن يسود فيها الإسلام، وفيها تنبيه للروم بأنهم غرباء عن هذه الأرض.

٣ ـ تعيين ثلاثة أُمراء للجيش، يوحي بأن النبي ﷺ كان يعرف أنهم سيقتلون في المعركة، وأن عدد المسلمين لا يتكافأ مع عدد الروم.

٤ ـ قول عبد الله بن رواحة: «إن الذي خرجتم إليه هو الشهادة في سبيل الله» قد يعني جواز خروج الإنسان للجهاد، أو الإقدام على عمل جهادي، وهو يعرف أن الشهادة مقدمة على النّصْر، أو يكون هدفه الشهادة لنفسه، والنصر لقومه مِنْ بعده.

٥ ـ قول النبي ﷺ في أخذ خالد الراية: «حتى فتح الله عليهم» قالوا في تفسير (الفتح) انسحاب جيش المسلمين، والرجوع به إلى المدينة سالماً، وقالوا: إنها إعادة ترتيب الجيش لإيهام الروم بوجود المدد، وإدخال الخوف إلى نفوسهم.

وربما كان من مقاصد الفتح المرادة: رجوع الجيش سالماً غانماً أنواعاً من الخبرات في لقاء الروم، استفاد منها المسلمون في فتح الشام، ولا شكَّ أن عدداً كبيراً ممن حضروا مؤتة شاركوا في فتح الشام، وعلى رأسهم خالد بن الوليد، الذي كان قائد معركة اليرموك، التي كانت قاصمةَ ظهر الروم في بلاد الشام.

وإذا طبّقنا قصة القسّام على قصة غزوة مؤتة، فإننا نجد القسَّام قد استوحى معاني هذه الغزوة ومثيلاتها، ونجد جواب السؤال الذي طرحناه: لماذا لم يهرب القسَّام، وكان يمكنه ذلك؟.

فقد نُقِل عن القسَّام قوله: «ليس المهم أن نحرر فلسطين في بضعة أشهر، بل المهم أن نعطي من أنفسنا الدرس للأُمة، وللأجيال القادمة».

واستشهاد القسَّام وصحبه كان فتحاً عظيماً فتح عيون الناس فدخلوا في منهجه الذي سلكه أفواجاً... وبدّد الرعبَ الذي كان يسيطر على قلوب الناس.

وبعد ثلاثة أيام من استشهاد القسَّام كتب أكرم زعيتر يقول: «ليس من سبيل إلى الخلاص إلا الجهاد الدامي، وقد فتح فقيدُنا القسامُ البابَ فلنلجْه، وإنا لفاعلون، إنها دعوة جديدة أخذت تظهر على ألسنة الناس، ويجهر بها الكُتّاب، لم نكن نعرفها من قَبْلُ نفخت في الأمة روحاً لم تكن تفطن لها...

وأجملُ وأبلغُ ما قيل في أثر استشهاد القسَّام في الأُمّة قول أكرم زعيتر في يوم جنازة القسَّام: «لقد سمعتُك قبلَ اليوم خطيباً مفوّهاً، تتّكئ على السيف، وتهدُرُ مِنْ على المنبر، وسمعتُكَ اليوم خطيباً تتّكئ على الأعناق، ولا منبرَ تقف عليه، ولكنك والله اليوم أخطبُ منك حيّاً». ذلك أنّ استشهادَ القسَّام كان أبلغَ خطبةٍ سمعها الناسُ، فكان للشهادة تأثيرٌ دائمٌ، وكانت الشهادة أنشودةَ الجهادِ في جميع المعارك التالية.

٦ ـ يومُ القسَّام:

بدأت المعركة، عند انبثاق نور الصباح، وانتهت قُبيل عصر اليوم، ومن أسباب طول مدة المعركة مع انعدام التكافؤ العسكري، أنّ القسَّام اتّبع خُطةً لإطالة أمد المعركة، لإحداث خسائر في الجانب الإنكليزي، ولإثباتِ قُدرة المجاهدين على مراوغة العدوّ، وبيان مدى استعدادهم العسكري. ومن الأسباب التي تعود إلى الجانب الإنكليزي، دخولُ الرعب إلى نفوسهم، لجهلهم بالعدد والعُدّة التي تحاربهم... وربّما كان أقوى الأسباب أن الإنكليز كانوا يريدون القائد القسَّامَ حيّاً، لأنهم يعرفون أنّ استشهادَ قائدٍ يُحيي سُنة الجهاد عند المسلمين، ويُصبح القدوة المتجددة للمجاهدين، ولذلك فهم يكرهون قَتْل قادة الجهاد والثورات، لئلا يكونوا مشعلاً يضيء أمام الشعوب طريقهم...

وحصل ما تخشاه السلطة البريطانية، وهو ما يتمناه القسَّام، فكان له مقعد صِدْق عند الله تعالى إن شاء الله، ونال حظاً من الذكر الحسن عند قومه، ما كان يحصلُ له لو بقي حيّاً.

استشهد القسَّام، فوجدوا في ثيابه مصحفاً، وأربعة عشر جنيهاً وأمّا الأسرة، فقد تركها لله، فهو الوكيل، وهو الكفيل.

وزعم بعض المؤلفين أنّ القسَّام باع بيته في حيفا قبل خروجه. فسألتُ الأستاذ عبد الرحمن بن محمد الحنفي هل كنتُم تمتلكون بيوتاً؟

فقال: إنَّ القسامَ لم يمتلك بيتاً، وإنّما كان يسكن بيتاً مستأجراً، وكذلك الوالد: محمد الحنفي، رفيق القسّام من جبلة إلى حيفا مع أن القسّام والحنفي، قد وصلت لأيديهم آلاف الجنيهات، فكانوا ينفقونها في شراء السلاح.

إذن مات القسّامُ، فنال - بإذن الله - ما وعد الله به الشهداء، وترك ثروةً عظيمةً أهداها إلى الأُمّة، وهو المنهج والقدوة. المنهج الصالح لقتال الأعداء ودحرهم، والقدوة العملية في الزهد في الدنيا، وبذْل النفس في سبيل الله، وإعلاء كلمة المسلمين في أوطانهم...

نُقِل الشهداء من ساح المعركة إلى جنين، ثُمَّ أُرسلتْ إلى حيفا، لتسلَّم إلى ذويها... واشترطت السلطات البريطانية شرطين:

أولهما: أن يكون الدفن في الساعة العاشرة من صباح الغد، الخميس ٢١/ ١١/ ١٩٣٥م.

وثانيهما: أن تسير الجنازة من بيت الشيخ عزّ الدين القسّام الواقع خارج البلدة، إلى المقبرة في (بلد الشيخ)[1]. فلا يُستطاع السيرُ بالشهداء داخل المدينة.

---

(١) بلد الشيخ: مُضافة إلى الشيخ السهلي الصوفي الذي أقطعه إياها السلطان سليم الأول يوم الفتح العثماني، وتقع في قضاء حيفا على بُعْد خمسة أكيال جنوب شرق مدينة حيفا. شُرِّدَ أهلُها سنة ١٩٤٨م ودُمرت بيوتهم، وأطلقوا عليها سنة ١٩٤٩ (بيت حنان).

وصدرتْ الصحافة المحليّة تحمل نبأ استشهاد القسَّام في صفحاتها الأولى . . . وعندما وصل النبأ إلى الناس ، أقفلتْ حيفا محالها ، وتدفقت إلى بيت القسّام ، وجاءَت الوفود من جميع أنحاء فلسطين ، لتشارك في تشييع الجنازة ، وأخذت المآذن تزفُّ خبر الشهداء في جميع أنحاء البلاد .

وفي بيت الشهيد القسَّام لُفّت النعوش الثلاثة بأعلام الدول العربية ، رمز وحدة الأُمة وحملت الجماهيرُ النعوش الثلاثة ، واتجهت إلى جامع الجرينة ـ النصر ـ في وسط حيفا ، رغم أنف السلطات البريطانية . . . وبَعْدَ صلاة الجنازة ، أبّنَ الشيخ يونس الخطيب ـ قاضي مكة الأسبق ـ الشهداء بكلمة مؤثرة ، بيَّن فيها أجر الشهداء عند ربهم . وبُذلتْ جهودٌ حتى أمكن الخروج بالشهداء من المسجد إلى الساحة الكبرى أمامه ، وأستعيرُ هنا قلم الأديب الألمعي الأستاذ أكرم زعيتر ليصف موكب الشهداء ؛ الذي رافقه من المسجد إلى مثواه الطاهر : «آلاف المشيعين ، والجثث على الأكف مرفوعة تصرخ : الله أكبر ، الله أكبر ، والنساءُ يزغردْن من على ظهور البيوت والشرفات والنوافذ ، والكشّافة ينشدون أناشيد تثير النخوات . . . ثم ارتفع صوتٌ والجثث مرفوعة : الانتقام ، الانتقامَ ، فردّدت الألوف بصوتٍ واحدٍ ، كالرعد القاصف : الانتقام ، الانتقام . . . وبعد جهد شاقّ ، سار الموكبُ وئيداً ، وأصواتٌ تدوّي : الله أكبر ، الله أكبر . . . إلى أن اقتربنا من دائرة البوليس .

وقد بلغ التأثر والهياج من الجمهور مبلغاً هائلاً ، فراح يرجم دائرة

البوليس بالطوب والحجارة رجماً متواصلاً، وكانت الحجارة تنهال على الدائرة ونوافذها، كالوابل المدرار... وكانت ثلاث سيارات للبوليس واقفة أمام الدائرة فحطمها الجمهور الثائر... كلُّ هذا ونعوش الشهداء على الأكُف، ونحن وقوف، وقد قفَّ شعرُ رؤوسنا[1]...

وبعد لأي... استأنف الموكب سيره إلى أن وصلنا إلى آخر شارع الملوك، حيث النُّصْب التذكاريّ للملك فيصل الأول ذكرى مرور جثمانه قَبْل سنتين بحيفا، فوقفنا، وقرأنا الفاتحة لروح فيصل بن الحسين، واستأنفنا السير حتى وصلْنا إلى مقربة من محطة السكك الحديدية، فهاجمها الجمهور بالحجارة، وتوقف الموكب والشهداءُ على الأكف.

وفي هذه الأثناء أقبلتْ كتيبة من الجند البريطاني المدجج بالسلاح، يقودها الضابط (جيمس) بخوذها الفولاذية، وإذا بالجمهور يضع الجثث على الأرض، لا هَرَباً ولا خوفاً، ولكن ليدخل في معركة مع البريطانيين الذين جاؤوا لقمع الموكب، ونزلوا من السيارات واصطدموا بالشعب. يقول أكرم: وقد رأيتُ ـ والحمد لله ـ الضابط جيمس يقع على الأرض. ورأيتُ جندياً آخر وثالثاً يجرحون... وأدركت القوّة بقيادة ـ جيمس ـ

---

(١) قفّ شعري: أي قام. والعامّة تقول: وقف شعر رأسي. وقفّ جلده: اقشعرَّ. ومنه:

وإنــي لتعــرونــي لــذكــراك قُفَّــةٌ
كمــا انتفــضَ العصفــورُ بللــه القطــرُ

ألاّ قبل لها بمقارعة الجمهور، فانسحبت مسرعة، ورفع الجمهور الجثثَ على الأكف ثانية وهو يهتف: الله أكبر، الانتقام، واستأنف الموكبُ السير، وكان مُقرراً للجنازة أن تقف عند دار الشهيدِ القسّام، وأن تُرسلَ النعوش في السيارات إلى مقبرة (بلد الشيخ) البعيدة عدة أكيال، وقفنا والجو مكهرب، وعزفت الموسيقى نشيدها الحزين، وتقدّم بعضهم لوضع النعوش في السيارات ولكن الجمهور الثائر الفائر حال دون ذلك، وأصرَّ على أن يستأنف السيرَ والنعوشُ على الأكتاف إلى المقبرة مشياً على الأقدام، خمسة أكيال، حيث ووريت الجثث التراب، وهي في حالها الطبيعيّة، وفي ملابسها المخضبة بالدماء الزكيّة... وتصوّرْ كيف شاهد الجمهورُ شهداءَه الأبطال يُدفنون بثياب الجهاد المخضبة بالدماء، وقد استغرق السير بالجنازة من الجامع الكبير في ساحة الجرينة إلى مقبرة (الياجور) ثلاث ساعات ونصف الساعة».

وفي اليوم التالي كتب الأستاذ أكرم زعيتر واصفاً الجنازة فقال:

«هل رأيتَ اليمَّ الصّخاب، الجائش الفوّار، المتلاطم الأمواج الموّار، المُرْغي المزبد الهدار؟ هل رأيتَ البراكين المضطرمة تقذف الحممَ والنار؟ هل سمعتَ الرعود القاصفة تجلجل؟ هل أحسستَ بالعواصف العاصفة تتدافع؟ هل رأيت الأَتُون المستعر المتلظي المتأجج الوهاج؟.

إن لم يكن هذا، فَسَل مَنْ مشى في موكب الشهداء في حيفا التي

دوّت صرختُها اليوم في الآفاق، وتصاعد زفيرها إلى أجواز الفضاء.

كلُّ ذلك من أجل عصابة أشقياء!! أستغفر الله، بل عصبة شهداء.

يقول البلاغ الرسمي: إنها عصابةٌ من الأشقياء، وتقول الأُمَّةُ الحية التي مشت في موكب التشييع: كلاّ، إنهم أبنائي، وذُوّادي، إنهم مُهَجي وشهدائي.

وأنهى المقال بقوله يخاطب القسَّام: لقد سمعتُك قبل اليوم خطيباً مُفوَّها، تتكئ على السيف، وتهدر من على المنبر.

وسمعتك اليوم خطيباً تتكئ على الأعناق... ولكنك واللهِ اليومَ أخطبُ مِنْك حيّاً».

٧ ـ شهادات:

في الخامس من كانون الثاني، قررت جمعية الشبان المسلمين في حيفا إقامة حفلة تأبينيّة للشهداء: عزّ الدين القسّام ورفاقه، وألقى الخطباءُ كلمات دلّتْ على المكانة التي حظوا بها في قلوب الناس، حيث تقاطرت الوفود من جميع مدن فلسطين وقراها، واتسعت قاعة خُصّصتْ للاحتفال إلى ثلاثة آلاف شخص وامتلأت الشوارع بالناس يستمعون بالمكبرات.

ومما قاله صبحي الخضراء: «إنَّ القسّام قضى على الردّة التي

أفسدت على البلد اتجاهه، إننا لا نؤبّن ملكاً ولا زعيماً ولا رئيساً، ولكن نؤبّن رجلاً من صميم الشعب صار حديث البلد، وشغل دولة بأسرها».

وقال عجاج نويهض: «سافر القسَّامُ، وكان جوازُ سفره الأكبر مصحفاً في جيبه وقلبه».

وقال حمدي الحسيني: «إن القسَّام عدّل من هذه القضية ما اعوجّ».

وقال أحمد الشقيري: «حاول الإنكليز أن يَصِمُوا القسّام بإشاعات كثيرة، منها:

أن الشيوعيين هم الذين استخدموه. كذبوا، كذبوا، بريطانية لم تترك لنا مجالاً نصادِقُ به دولة، لأننا نشكك في كلِّ الدول شكنا في الإنكليز أنفسهم».

وقال الشيخ سليمان التاجي: يا جيران القسّام، نحجُّ إلى بلدكم كما نحجُّ إلى كعبتنا[1]، القسامُ نقل القضية من دور الكلام إلى دور العمل».

---

(١) قوله: نحجّ... كما نحج: أخرج الخطيبُ الفعل عن معناه اللغوي (نقصد) إلى معناه الشرعي. ولو كان القسَّامُ حيّاً يسمعُ لأنكر هذا التعبير، فقد أراد المتكلِّم أن يبالغ في مدح حيفا وأهلها، فبالغ وأسرف، وجعل القصد إلى (حيفا) مقدساً، قداسة الحج إلى الكعبة... وهو خطأ ظاهر.

وقال أكرم زعيتر: «بالأمس دفنّا القسَّام، ودفنّا معه العدل البريطاني. لماذا التمجيد والتأبين ألأنهم ماتوا؟ كلا، بل لأنهم عَرَفُوا كيف يموتون، وأيَّ سبيل إلى الجنة يسلكون. القسامُ خاطب العاتي بأفصح لغةٍ، وأكرمِ بيان، فتح في القضية باب الجد، ودقَّ بيده المضرّجة باب المجد».

وقالت جريدة (الجامعة العربية) بتاريخ ٣/ ١/ ١٩٣٦م: يحتفل أبناءُ فلسطين بإحياء ذكرى مجاهد من (سورية الشمالية) سقط شهيداً في سبيل استقلال (سورية الجنوبية) وليس ذلك فحسب، بل قاد حملة جهادٍ لعلها الأولى من نوعها في تاريخ الإسلام الحديث في فلسطين وسورية والشرق العربيّ بأسره».

٨ ـ أمَّا بَعْدُ:

فقد أراد القسَّامُ أن يُفْهم الشعب العربي بعامة، وأهل الإقليم الفلسطيني بخاصة ما يجب أن يفعله، فقدَّم القسّامُ نفسَه مثلاً لما يجب أن يكون مع المستعمرين. ولذلك كان لاستشهاده والإعلان عن عُصبته، وقعٌ بليغ في نفوس أبناء فلسطين.

ويُجمعُ المؤرخون الذين عاصروا العقد الرابع من القرن العشرين على أن استشهاد القسَّام، كان المولد، والحياة، والقدوة للشعب الفلسطيني في جميع مراحل نضاله. حيث قدَّم القسَّام إلى الشعب

المسلم في فلسطين المثل الأعلى في الجهاد الذي كان ينتظره طويلاً، وألهبتْ حركتُه واستشهاده في الشعب الحماس، وصارت مثلاً للجرأة والجهاد العلني ضد الإنكليز. وأجبر أصحاب الاتجاهات السياسية والفكرية على الإقرار بتفوق العمل القسّامي على كلّ عمل سبقه، وقوَّةِ تأثيره فيما لحقه، ولم يتفق الكُتّابُ والمؤرخون على صحّة زعامة رجلٍ عمل في الحقل الوطني كما اتفقوا على استحقاق القسّام لقب الزعيم والقائد. ولم أجد أحداً من الكُتّاب عابَ القسّام بشيء يطعن في صدقه، وإخلاصه ونزاهته.

والشجاعُ من الكتّاب والمؤرخين ممثلي الاتجاهات السياسية، صرّح بتفوق القسّام عَلناً، والجبانُ ألمح إليه، ولم يصرح باسمه، وأُخرس الحاسدون، ولم ينطقوا ببنت شفة...

ومن الأدلّة على تفوّق أنموذج القسّام كَثْرةُ مَنْ نسبوا أنفسهم إليه، وإلى عصبته بعد استشهاده، وكثرةُ مَنْ نسبوه إلى جماعتهم لترجيح كفتهم الوطنية، عندما توزن أعمال الدنيا.

ويكفيه زيادةً في الفضل على غيره بقاء سيرته العطرة حيّةً إلى أيامنا - ١٩٩٥م - بعد ستين سنةً من استشهاده، وتطلع الناس إلى إحياء أنموذجه، وتبرّك المجاهدين باسمه، والاقتداء به.

وإليك نقولاً مما سطره الذين عرفوا فَضْل القسّام:

قال أكرم زعيتر في رسالته إلى المندوب السامي في ١٩/ ٤/ ١٩٣٦م: «وأؤكد لجنابك أن شخصاً كالشيخ عزّ الدين القسّام: لا ينتمي إلى عائلة كبيرة، ولا يمتُّ بصلة إلى الزعامات الحكوميّة، ولم يرشّح نفسه لكرسي من كراسيها، يتمتع برعايةٍ و(تقديسٍ)[1] و(احترامٍ)[2] لا يحلمُ بمثله أكبر زعيم».

وقال عجاج نويهض يصف حال فلسطين بعد استشهاد القسَّام: كانت فلسطين تُولد رُوحياً ولادةً ثانية. صارت صورةُ القسّام وحوارييه، كأنها آيةُ نجومٍ سماويةٍ تضيء، لا فلسطين وحدها، بل الرقعة العربية

---

(١) التقديس هنا: التطهير والتبريك. وفي القرآن: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ [البقرة: ٣٠] أي: نطهرُ أنفسنا لك، وكذلك نفعلُ بمن أطاعك، نقدِّسه أي: نطهره. وسمّي السطلُ (القَدَس) لأنه يُتقدَّسُ منه، أي: يُتطهر. وفي الحديث: «لا قُدّستْ أُمةٌ لا يؤخذ لضعيفها من قويها» أي: لا طُهّرتْ. وفي سياق كلام زعيتر معناه: تطهير القسام من كل عَيْبٍ قد يُرمى به من غيره من السياسيين.

(٢) الاحترام: التبجيل، وعلوّ المكانة، وفعله (احترم) وزن (افتعل) ومنه يقولون: المُحترم بوزن اسم المفعول. ولكنني بحثت مطولاً في: (لسان العرب)، و(القاموس المحيط)، و(المصباح)؛ و(المختار)، فلم أجد فعل (احترم) ومصدره (الاحترام) والوصف منه (المحترم) بالمعنى المتداول ولا بمعنى غيره قلتُ: أظنُّ الكلمة مولّدة، من العصر التركي، وربما كانت تركية الاستعمال، ثم انتقلت إلى العربية وأقرب ما يكون لها من الألفاظ الفصيحة أن يقال: فلانٌ له حُرْمةٌ: أي: مهابة، ونصيب. والله أعلم.

كلها، اكتسحت نفوسَ الناس موجةٌ كلُّها عواصف وزعازع، وزفير كزفير النار. ابن العاشرة استوى في هذه الموجة مع ابن العشرين والثلاثين والأربعين، حتى التسعين فما فوق، النساءُ أصبحن يحملْن الروح القسَّاميّة أشدّ من الرجال.

وقال محمد عزّة دروزة: «لقد كان لاستشهاد القسّام وإخوانه أثر بليغ في نفوس العرب أثار عواطفهم، وأهاج أعصابهم بما انطوى عليه من خطورة وإقدام، فقابلوه بمظاهر جيّاشة من الإكبار، حتى لقد خشيت السلطاتُ من هذه المظاهر، وانزعجت أيّما انزعاج، وبعد أن وصفت العصبةَ بالأشقياءِ، عادت إلى التهدئة، ولم تذكرها بسوء وسلّمتْ جثث الشهداء لذويها، وأغمضت العينَ عن الاحتفال بدفنهم».

وكان الحادث أُنموذجاً جديداً[1] للجهاد، ومثلاً عالياً على التضحية والإقدام مُجرَّدَيْن من كل غرض أو شهوة أو غرض دنيوي، وغدا اسمُ القسّام وعصبته لا يُذكر إلا مع ألفاظ التكريم والإجلال... وكان الحادث من الحوافز القويّة للأحداث التي تلتْه بعد أشهر قليلة، حيث أُعلن الإضراب العام الذي امتدّ ستة أشهر، وانفجرتْ في أثنائه الثورة الكبرى.

---

(١) قوله: «أُنموذجاً جديداً للجهاد»: هو جديدٌ بالقياس إلى الأساليب المتبعة منذ الاحتلال الإنكليزي، ولكنه ليس جديداً مطلقاً. فالقسام لم يبتدع، وإنما أحيا أُنموذج الصحابة، وأنموذج الأزمان المضيئة في تاريخ المسلمين... وكانت هذه النماذج غائبة عن أسماع الناس، وعن الواقع، منذ قرون مضتْ.

ووصل تأثير استشهاد القسّام إلى عواصم الأقاليم العربية، وقيل في رثائه القصائد المؤثرة ومن ذلك ما قاله الشاعر فؤاد الخطيب (١٨٧٩ - ١٩٥٧م):

أَوْلَتْ عمامَتُكَ العمائمَ كلَّها ... شَرَفاً، تُقصِّرُ عِنْده التيجانُ
إنَّ الزِّعامةَ، والطريقُ مخوفةٌ ... غيرُ الزِّعامةِ، والطريقُ أمانُ
يا رَهْطَ عزِّ الدينِ حَسْبُكَ نعمةً ... في الخُلْد، لا عَنَتٌ، ولا أَحْزانُ
شُهداءُ بَدْرٍ والبقيعُ تَهَلّلتْ ... فَرَحاً، وَهَشَّ مُرَحِّباً رضوانُ

وأرسل الدكتور أمين رويحة من بغداد، لأكرم زعيتر برقية قال فيها: «لقد أحيا القسَّامُ وإخوانه في نفوسنا الأمل، بعد أنْ كِدنا نفقده، وليتني علمتُ بعصابتهم قَبْل الآن، لكنتُ والله أوّل مَنْ ينضمُّ إليهم، فهذا واللهِ سبيلُ الخلاصِ وَحْدَهُ».

وقال المؤرخ عمر أبو النصر مؤرخاً ثورة ١٩٣٦م: «إن الثورة لم تبدأ في نيسان سنة ١٩٣٦م، بل بدأت يوم تشييع القسّام، يوم رأينا حيفا تَضطرب في موجة حزن، وتجتمع في نعش ميت، وتخرج بأعلامها وراياتها وآلامها وأحزانها ونسائها وشيوخها وشبابها، تضع هذا كُلَّه على بضعة أشبار من الأرض استراح إليها بطلٌ، ضحكت أمانيها على فمه، ولم تفطن إلى عبقريّته وتضحيته حتى سقط على أرضها صريعاً. . . عندئذٍ فطنتْ إلى عِظَمِ ما قام به في سبيلها وكيف أنه نفخ فيها روحاً لم تكن تفطن لها من قَبْلُ. . . وكذلك جعل الله من جثة القسّام الهامدة وطناً يُشْعِرُ

بالحرية، ويُعيد للذكرى التضحيات، بل يا له مِنْ جسدٍ لم يكن الموتُ يتلقاه حتى أفاض الحياة على هؤلاء الذين يعيشون على الأرض من غير أن يفطن واحد منهم إلى أضواءِ الحياة».

وإذا كان استشهاد القسّام قد نفخ في روح الشعب القوّة، فإنه ضعضع نفوذ الأحزاب السياسيّة، وأوشك الناسُ أن ينفضّوا من حول الزعماء. . . وقد صرّح ممثلو الأحزاب السياسيّة عن هذا الشعور في مقابلة مع المندوب السامي بعد ستة أيام من استشهاد القسّام، فقدموا له مذكرة جاء فيها: «إنهم إذا لم يتلقَوْا جواباً عن مذكرتهم، يكونُ مرْضياً، فإنهم سيَفقدون كل ما يملكونه من نفوذ على أتباعهم، وعندئذٍ تسود الآراء المتطرفة غير المسؤولة، وتتدهور الحالة سريعاً». فجعلوا الخوف على النفوذ والمراكز دافعاً لتحقيق المطالب، وجعلوا إعلان الجهاد بالسلاح سلوكاً متطرفاً.

وقد أعاد التاريخ نفسه بعد ستين عاماً، فَسَرت هذه (الشِّنْشِنة) من (أَخْزَمَ)[1] إلى أولاده، فما زلنا نسمعُ العبارة نفسها من المفاوضين، والرؤساء، والقُوّاد: «إذا لم تعطونا (الأقلّ من القليل) سادَ المتطرفون والإرهابيّون» فعدَّ أبناءُ أخزم المطالبة بفلسطين كلها تطرفاً وإرهاباً.

قال جمال الحسيني رئيس الحزب، بعد ثلاثة أيام من موقعة (يعبد): «زرتُ أول البارحةَ عائلات الشهداء المرحومين: الشيخ

---

(١) من أمثال العرب (شنْشِنةٌ أعرفها من أخزم) والشنشنة: الطبيعة والسجيّة وكان أخزمُ عاقاً لأبيه، فمات وترك بنين عقّوا جدّهم وضربوه. فقال الجدُّ ذلك.

عزّ الدين القسّام والشيخ يوسف الزيباوي، والسيد المصري في حيفا، مع بعض الإخوان فوجدت أنَّ العائلات الثلاث في حالة تفتتُ الأكباد، ليس من جهة الحزن على الذين فقدوهم! فقد كانوا جميعاً من حيثُ معنوياتهُم وصبرهم على أحسن ما يكون، بل لم تعتقدُ مطلقاً أن النساء والأطفال يمكن أمام مثل هذه المصيبة أن يتحلوا بالصبر ويعتصموا بقوة أكثر مما رأيناه منهم.

ولكن الحال البائسة التي هم فيها ناشئة عن الفقر، وكثرة العائلات.

٩ ـ العُصْبة القسَّـامية تمضي في الجهاد، وتقود الثورة من ١٩٣٦ ـ ١٩٣٩م

أ ـ العُصْبة بعد استشهاد القسَّام:

قُدِّم عددٌ من أصحاب القسّام إلى المحكمة، فاعترفوا بحمل السلاح والاشتباك مع الإنكليز، وحكوا كلَّ ما كان من العصبة في أحراج (يعبد).

فقد كانت هذه المرحلة من الخُطَّة القسَّامية أن يرى أبناءُ فلسطين أنَّ هناك جهاداً وثورة، وأن يُستفادُ من منبر المحاكمة للتعبير عن اتجاه جديد يريد أن يفرض نفسه على الساحة، ويوجّه العمل إلى اتجاه جهاديّ.

لقد ضُبط هؤلاء (متلبسين) بشرف الجهاد، فلتكن محاكمتهم منبراً لإعلان فكرتهم ودعوتهم، وكان حديثهم في المحكمة، وهيئاتهم،

يبعثان الثقة في نفوس الناس. قال أحمد الشقيري ـ وهو أحد المحامين الذين دافعوا عنهم ـ يصفهم أثناء سجنهم: «إنهم كانوا في حالة نفسية هادئة، لا يشوبهم القلق والجزع، وكانت سكينة الإيمان والتقوى ترتسم على وجوههم، وتتحكّم في سلوكهم، ولم يكن فيهم ما ينبئ أنهم خرجوا من المعركة أمس، ولا حرج عليهم أن يعودوا إليها غداً».

ومما قاله الشيخ نمر السعدي أمام المحكمة: «إنني أعترف بكوني صديقاً للقسَّام، ومن أنصاره، وأعتقد أنَّ الشيخ عزّ الدين القسّام على الحقّ في كلِّ ما عمل، وليس على باطل، ولم تكن له مآرب شخصية، وإنما هو مجاهد في سبيل الله والوطن»، وقد هتفت الجماهير في المحكمة للمحكوم عليهم وهم خارجون من المحكمة، فخاطبهم الشيخ أسعد المفلح قائلاً: «لا تخافوا علينا، إننا لا نخاف أحداً إلا الله نحن على حقّ، ولا تهمنا القوّة، ما دُمنا مؤمنين بحقنا، والله أكبر ولله الحمد». فرددت الجماهير «الله أكبر، الله أكبر».

يقول أكرم زعيتر مذيلاً ما نقلتهُ عنه في محاكمة عُصْبة القسَّام:

«إنني أكتبُ هذا وقشعريرة التأثّر تتملكني، يا بلادي!. ما أعظم ما تُنْجبين من رجال!».

إن القسَّام بعث الأمّة من رقدتها، وأحيا الشجاعة العربية الإسلاميّة، وجَعَل الشعب كلّه مجاهدين: باللسان، والقلم، والسيف، ونقل الإقليد من (جناب) المندوب السامي، إلى جنب الله... وظهر ذلك في كل بيت فلسطيني، وفي بيوت الشهداء بخاصة، فيوم استشهد القسامُ قالت ميمنة

بنت عزّ الدين القسَّام: الحمد لله ثم الحمد لله الذي شرفني باستشهاد أبي، وأعزني بموته، ولم يذلني بهوان وطني، واستسلامِ أُمتي».

من نصّ بيـانٍ وزعه الحزب العربي الفلسـطيني لجمع التبرعات لعائلات الشهداء.

ب ـ القسَّاميّون يفجّرون الثورة الكبرى ١٩٣٦ ـ ١٩٣٩م ويقودونها:

لقد حدَّد القسَّام مسؤوليات القادة مِنْ بعده، ووزّع عليهم مناطق فلسطين... وتأخر امتداد الثورة بعد استشهاد القسَّام، لاستشهاد واعتقال عدد من القياديين في الجماعة، ممن شاركوا في معركة أحراج (يَعْبَد). وخلال الشهور الخمسة ـ بين استشهاد القسّام في ٢٠/ ١١/ ١٩٣٥م، وبين إعلان متابعة الجهاد في نيسان سنة ١٩٣٦م، قام إخوان القسّام بدراسة خطة عمل شاملة لاستمرار الثورة حتى تتحقق أهدافها وقاموا بالانتشار في الجبال، وتنظيم الجماعات السريّة في أنحاء فلسطين، وخصوصاً في الشمال. كما قام المثقفون من إخوان القسَّام يحرّضون الشعب على الجهاد.

ومن المؤكد أن أتباع القسَّام لم يلقوا السلاح بعد استشهاده، فقاموا بترتيب وتنظيم أنفسهم، وأصبح القائد الخليفةُ هو (الشيخ فرحان السعدي)... وبقيادة فرحان السعدي بدأت الثورة الكبرى (١٩٣٦ ـ ١٩٣٩م) عندما قامت مجموعته بقتْل يهوديين وجرح ثالث في نواحي (عنبتا ـ نُورِس) مما هزّ البلاد وأحدث جوّاً عاماً من التوتر، هيّأ النفوس للمشاركة في الثورة... قامت في إثرها حوادث يافا، التي أدت إلى

اشتباكات بين العرب واليهود.

وفي إثْر هذه الأحداث تشكلتْ اللجان القوميّة في مُدُن فلسطين وقُراها، للإشراف على سير الحركة الوطنية.. وأعلنتْ عن بدء الإضراب الشامل منذ ٢٠/ ٤/ ١٩٣٦م وامتدَّ ستة أشهر كاملة. ثم تشكّلت (اللجنة العربيّة العليا) لتكون القيادة السياسيّة الموحّدة للعمل الوطني، ومثّلتْ فيها الأحزاب كلها، وترأسها الحاج أمين الحسيني[١].

---

(١) من أسباب خسارة الثورات الفلسطينيّة المتتابعة ـ ما عدا ثورة القسام ـ أنها كانت تعطي قيادَها لمن لم يخض غمارها. وهو أُسلوب يتبعه الاستعمارُ لإخماد الثورات، وامتصاص غضبة الجماهير ببطء. ولو كان القسَّامُ حيّاً، وكان عنده عشر عنزاتٍ، ما أعطى رعايتها لهؤلاء الذين تَوَلّوْا القيادة، لأنها جاءَت بطريق معكوس. فالطريق الصحيح للقيادة: أن يخطط عددٌ من المخلصين للقيام بالجهاد، ثم يبثوا الدعاة لتحريك الجمهور، الذي يستجيب للقيادة. وفي ثورة ١٩٣٦م ثار الشعبُ، وكوَّن القيادات الوطنية (اللجان القوميّة) التي تشرف على تسيير الأمور... ثم جاءَت الأحزابُ التي ليس من رأيها قيام ثورة على الإنكليز، فكوّنت (اللجنة العربية العليا) لقيادة الثورة... وليس لواحدٍ من أعضائها تاريخ جهاديّ... بل كانت الأحزابُ كلّها قبل يومٍ من تكوين اللجنة، تُصرُّ على أن الطريق الصحيح للخلاص هي التفاوض مع بريطانية.
فكيف تغيّرتْ هذه الأحزاب، وهل نسيت خلافاتها في سبيل الوطن.
الجواب: إنها لم تغيّر رأيها، ولكن بريطانية أوعزت لها بأن تتحد، وتُعلن مسايرتها للجمهور لتحافظ على مركزها، وتنقذ سُمعتها، وليسهل عن طريق=

وقد ثبت بالدليل أن تنظيم القسّاميين، كان له القيادة والتوجيه والتنظيم في شمال فلسطين، عندما تجددت الثورة سنة ١٩٣٧م، وله دور بارزٌ ورئيس في قيادة وتنظيم منطقة لواء نابلس، حيث كانت هاتان المنطقتان أشدّ مناطق الثورة قوةً وعملاً ونشاطاً.

= هذه اللجنة تقديم الوعود بتحقيق المطالب... ولذلك فإن الأهداف التي أعلنتها (اللجنة العربية) ليس فيها إشارة قريبة أو بعيدة إلى معاداة الإنكليز: فقد أعلنوا ثلاثة أهداف: منع الهجرة اليهوديّة، ومنع انتقال الأراضي إلى اليهود، وإنشاء حكومة وطنية... مع أن الجاهل كان يرى أن بريطانية لن تحقق هدفاً من هذه الأهداف، لأنها تخالف صكّ الانتداب.

وقد حققت بريطانية هدفها من الإيعاز إلى الأحزاب بتكوين هذه اللجنة، حيث استطاع أعوان بريطانية في البلاد العربية الضغط على هذه اللجنة، لتعلن وقف الإضراب، والاطمئنان إلى حُسْن نيّة بريطانية الصديقة... فكان لهم ما أرادوا، وأوقفوا الإضراب...

وفي مراحل المسألة الفلسطينية، كان التاريخ الأنكدُ يعيدُ نفسه، بالصورة السابقة عينها... ولكن شعوبنا لا تقرأ التاريخ الصحيح، وإنما تقرأ تاريخاً فُرض عليها، ولذلك فإنها تقع في الحفرة نفسها التي وقع فيها السابقون. ففي ٨/ ١٢/ ١٩٨٧م قامت الانتفاضة العارمة من داخل فلسطين المحتلة، وأضرمها الشعب المرابط الصابر تحت الاحتلال، فاهتز لها كيان الأعداء، فسلطوا عليها الزعماءَ الهاربين المنعمين في القصور، فأعلنوا قيادتهم لها، وزعموا أنهم مشعلوها... وبعد أنْ وقعتْ في قبضتهم أخذت تلفظ أنفاسها إلى أن وأدوها في ربيع شبابها.

ومَنْ يقرأ الكتب التي أرخت للثورة الكبرى (١٩٣٦ ـ ١٩٣٩) فإنّه قلّما يجد ذِكْراً للعصبة القسَّامية. والسبب في هذا أنّ الثورة كانت عامّةً عارمة شملت البلاد كلها. . .

ومع أنّ القسَّاميين كانت لهم القيادة والتوجيه، إلا أنهم لم يكونوا حزباً معلناً يعمل لكسب دعاية انتخابية، فكانوا يعملون تحت عنوان الجهاد العام، ولم يكن بينهم باحث عن الزعامة أو المال. . . فنسبَ المؤرخون الثورة إلى أهل الوطن كافة، وجعلوا دوافعها وطنية خالصة دون أن يبحثوا عن العقيدة التي أدّتْ إلى هذه الوطنيّة الثائرة. ناهيك عن أنَّ أكثر المؤرخين من ذوي الاتجاه العلماني أو ممن يحجمون عن ذكر الدافع الديني إلى الثورة.

ولكن المؤرّخ الموضوعي هو الذي يفصّل القول، وينسبُ كلَّ عمل إلى أهله، ويذكر الدوافع الحقيقيّة وراء كل عمل من الأعمال. لتحصل العبرة من قراءَة التاريخ. فالتاريخ ليس قولنا: تولّى فلانٌ، وعُزِلَ فلان، أو قامتْ حربٌ، فانتصر قوم، وهُزِم الآخرون، وإنما هو تاريخ الفكر الإنساني وتاريخ العقائد والشرائع، ومنه نأخذ المراحل الفكرية التي مرّتْ بها أمةٌ من الأمم.

وإذا حجب المؤرخون الحقيقة عن القُرّاء، لدافع من الدوافع، فإن الواقع الموثّق يفضحهم. فدراسة (وثائق الحركة الوطنية الفلسطينية) تظهر الطابع الإسلامي للثورة الكبرى، وذلك من خلال قراءَة أسماء

فصائل المجاهدين التي أخذت اسم محمد ﷺ، وأسماء الصحابة، والخلفاء الراشدين، والرجال المشهورين بجهادهم في التاريخ الإسلامي. وكذلك يتضح الطابع الإسلامي في البيانات والتقارير العسكرية، التي تبدأ عادة بالبسملة، وتوشّح بآي من القرآن الكريم وتذيَّلُ بالعبارات الإسلامية التي تحملها التوقيعات مثل (المتوكل على الله) و(خادم دينه ووطنه) و(المعتصم بالله)... إلخ.

وقد يقول قائل: إن هذه الأسماء والعبارات لا تدلُّ على مكانة القسَّاميين في الثورة، لأنها ألفاظ إسلامية، والإسلامُ أقدم من الحركة القسّاميّة.

ونحن نقول: إن الثقافة الإسلامية متغلغلة في البلاد، ولكن القسّام وعصبته أول مَنْ أحيا المصطلحات الإسلامية في الحركة الوطنية، وأول مَنْ أحيا السّنَّة النبوية في الجهاد. ونحن نقرُّ بأن كثيراً ممن يحاربون الأعداء بدافع وطني. هم مسلمون مؤمنون، ولكن ثقافتهم السياسية الوطنية لم تنهل من نبع الإسلام، فلا تظهر على ألسنتهم وأقلامهم الألفاظ الإسلاميّة... فكلٌّ يَغْرِفُ من ماعونه، وعصبة القسّام ـ في تلك المُدّة ـ هي التي امتلأ ماعونها بالألفاظ الإسلاميّة، لأن القسَّام القائد المعلِّم لم يرد إلا منهلَ الإسلام.

وقد وضع (رودلف بيترز) يده على هذه الظاهرة، ونسبها إلى أهلها، عندما درس فكرة الجهاد في البلاد العربية الإسلامية في العصر

الحديث فقال: لقد تشكلتْ في أثناء الثورة الكبرى بفلسطين جماعات كثيرة، شنّت حرب عصابات، ونجحتْ في شلّ الحكومة المدنية، وأخضعتْ مناطق واسعة من البلاد لسيطرتها، وإن كثيراً منها كان يقودها أتباع الشيخ عزّ الدين القسّام، وكانت تتصوّر النضال بمفهوم دينيّ بحت، إذْ كانت تطلق على نضالها اسم الجهاد، وقد شابهت في عملها منظمات الجهاد المبكرة مثل (السنوسيّة) في ليبية، و(المهدية) في السودان، و(المحمديّة) في الهند. وذكر أن تنظيم القسَّام أثّر تأثيراً كبيراً في الثورة الكبرى في فلسطين (١٩٣٦ـ١٩٣٩).

وقد ألمح محمد عزّة دروزة إلى أثر العصبة القسّامية في الثورة الكبرى، ولم يفصّل فقال: وكان الحادث ـ استشهاد القسَّام ـ من الحوافز النفسية القويّة للأحداث التي تَلَتْه بعد أشهر قليلة، حيث أُعلن الإضراب العام الذي امتد ستة أشهر، وانفجرت في أثنائه الثورة الكبرى.

وقال عبد الرحمن الكيالي: «وهكذا كانت ثورة القسّام ـ على الرغم من فشلها ـ نبراساً أضاء للفلسطينيين العرب الطريق الوحيد الذي بقي أمامهم ليسلكوه في مقاومة استيلاء الصهيونيين على البلاد، وكان الكثيرون من أتباع القسَّام ومريدوه لا يزالون مستعدين لحمل السلاح لمقاومة الوطن القومي اليهودي، والحكم البريطاني في أول فرصة تسنح لهم».

فلم يصرّح الكيالي بمشاركة القسَّاميين في الثورة الكبرى مع

اعترافه بأثرهم واستعدادهم لحمل السلاح. ولكن الكاتب قد خانه التعبير عندما عدّ الثورة القسَّامية (فاشلة)[1] وعندما قال: إنهم مستعدون لحمل السلاح. فالحركة القسَّاميّة بميزان الأهداف العامّة كانت ناجحة، والقسَّاميّون لم يلقوا سلاحهم بعد استشهاد القائد.

وقد أنصفت (الموسوعة الفلسطينيّةُ) الحركة القسَّاميّة، فقال محرّر مادة (ثورة ١٩٣٥م): لم يؤدِّ استشهادُ الشيخ عزّ الدين القسّام، وبعض زملائه في معارك أحراج (يعبد) إلى ما كان يأمله الأعداء من توقف أعمال الجهاد، ذلك أنَّ القسَّاميين أعادوا تنظيمهم، واختاروا خليل محمد عيسى (أبا إبراهيم الكبير) لقيادة منظمتهم. في حين ازداد عدد أفراد المنظمة كثيراً، وبادر الكثيرون من الشبان إلى الانضمام للمجاهدين، وقد حفزهم إلى هذا التطوع استشهاد القسَّام، والروح الثورية التي بثها في حياته، وجسدها في (استشهاده).

اختار القسّاميّون شمال فلسطين وأقضية: حيفا، وعكا، وصفد، والناصرة قواعد لأعمالهم، واعتصموا بصورة خاصة في الجبال الشاهقة

---

(١) أخطأ الكاتب في التعبير مرتين: الأولى: عندما حكم عليها بالإخفاق والخيبة. والثانية: عندما استعمل لفظ (الفَشَل) فوصف الحركة بـ (الجُبْن) لأن الفَشَل معناه في اللغة (الجُبْن) قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ [الأنفال: ٤٦] أي: تجنبوا عن عدوّكم، وللتعبير عن الخسارة نقول: أخفق فلانٌ، أو خاب في كذا.

المعروفة في شمال البلاد، واستأنفوا شنّ الهجمات الشديدة على المستعمرات الصهيونية، وقوات الجيش، والشرطة، وقد حدثت معارك خطيرة بين القسّاميين وقوات السلطة في (دالية الكرمل) و(المغار) و(لوبية) و(صفّورية) وغيرها، استشهد فيها بعض المجاهدين، وهلك من الأعداء كثيرون، وشكّل القسّاميّون (محكمة ثورة) للنظر في المخالفات الدينيّة والقوميّة التي يرتكبها بعض العرب.

ظلّ القسّاميّون في الميدان خلالَ الأشهر الستّة التي أعقبت استشهاد القسّام، ولما نشبت الثورة الفلسطينية في مطلع أيار ١٩٣٦م انضمّوا إليها وقاموا بأعمال مجيدة تُسجَّلُ لهم بغبطة وافتخار».

وقال محرر مادة ثورة (١٩٣٦ ـ ١٩٣٩م): «كان القسّاميّون أيضاً من عناصر الثورة، فبعد استشهاد الشيخ عزّ الدين القسّام واصل إخوانه وزملاؤه أعمالهم النضالية ضد الأعداء، فلما أُعلنت ثورة ١٩٣٦م انضموا إليها».

والحقيقة أنهم كانوا المحركين للثورة، والمخططين لها، وكانوا يتولون في أغلب المناطق قيادتها، فهم الذين حركوا الثورة التي أدّت إلى الإضراب عام ١٩٣٦م، وهم الذين فجّروها سنة ١٩٣٧م، فاختاروا لتفجير الثورة بداية قويّة، هي اغتيال (لويس أندروز) حاكم منطقة الجليل، الذي كان من أشدّ المتحمسين لتحقيق رغبات اليهود، وكان يدير الانتداب وفق الرغبات اليهودية. ففي ٢٦/ ٩/ ١٩٣٧م قام الشيخ محمد أبو جعب

من قرية (قباطية) بقضاء جنين، والشيخ محمود ديراوي من قرية (دير أبو ضعيف) بقضاء جنين باغتيال (أندروز) في مدينة الناصرة مع مرافقه العسكري، ولم يترك المجاهدان أيّ أثر، ولم يثبت أن القسّاميين فعلوا ذلك إلا بعد مرور زمن. . .

فجُنَّ جُنون السلطة، وقامت بحملة إرهابية واسعة في البلاد، وتوقعت السلطة ـ بعد الجوّ الإرهابي ـ أن تسير حثيثاً في تحقيق مشروع التقسيم، ولكن أملها قد خاب، إذ انتشرت مجموعات المجاهدين في البلاد وخصوصاً القسّاميين في الشمال حيث وقع عليهم عبءُ الثورة خلال الثلاثة أشهر الأُوَل من إعلان مرحلتها الثانية حتى عمّت فلسطين. وقد عدّ المؤرخون مقتل (أندروز) انطلاق الثورة من جديد، فقال أكرم زعيتر:

«أستطيع أنْ أقول: يمكن اعتبار مقتل أندروز الانطلاقة لتجديد الثورة».

وقد تولى قيادة الثورة في شمال فلسطين الشيخ القسّامي (أبو إبراهيم الكبير) وتشكَّلت القيادة العليا للثورة في الشمال من القسّاميين أيضاً وهم:

١ ـ محمد أبو محمود الصفوري ـ قائد منطقة متجول.

٢ ـ سليمان عبد الجبار (أبو علي) ـ قائد منطقة متجول.

٣ ـ عبد الله الأصبح ـ قائد منطقة متجول.

٤ ـ عبد الله الشاعر ـ قائد منطقة صفد.

٥ ـ توفيق الإبراهيم ـ قائد منطقة.

٦ ـ عارف حمدان ـ قائد منطقة.

٧ ـ محمود الخضر (أبو خضر) ـ قائد منطقة متجول.

٨ ـ رشيد عيد الشيخ أبو درويش ـ قائد منطقة متجول.

٩ ـ محمود سالم (أبو أحمد القسَّام) ـ قائد منطقة شفا عمرو والقرى المحيطة بها.

وكان أكثر القادة المساعدين أيضاً من القسَّاميين، أو من العاملين وِفقْ منهجهم، وهم:

١ ـ محمد عيد موسى ـ قسّامي.

٢ ـ أحمد التوبة ـ قسَّامي.

٣ ـ علي إبراهيم زعرورة ـ قسَّامي.

٤ ـ محمد سليم الصالح ـ قسَّامي.

٥ ـ الحاج صالح أحمد طه ـ قسَّامي (قاضي ثورة).

٦ ـ الشيخ حامد ـ قاضي ثورة.

٧ ـ عارف غنيم.

٨ ـ يحيى هواش.

وفي منطقة لواء نابلس، تولى القيادة سبعة، منهم خمسة قسّاميّون وهم:

١ ـ الشيخ فرحان السعدي: قسّامي.

٢ ـ عبد الرحيم الحاج محمد.

٣ ـ الشهيد يوسف أبو درة ـ قسَّامي.

٤ ـ محمد الصالح الحمد ـ قسَّامي.

٥ ـ الشيخ عطية أحمد عوض ـ قسّامي.

٦ ـ عبد الفتاح محمد الحاج مصطفى ـ قسّامي.

٧ ـ عارف عبد الرزاق.

وكتب الأستاذ محمد عزّة دروزة تحت عنوان (مناطق الثورة وقياداتها وقوادها) فذكر أسماء رجال قسَّاميين، ولكنه لم ينسبهم إلى الحركة القسَّامية، ومما قاله: «وكلّ ما أمكن هو توحيد القيادة العليا في عدة مناطق تحت إدارة عُصْبة من طبقة (المشايخ)[1] التي كان يتزعمها

---

(١) المشايخ: جمع شيخ: وهو لا يعني مشيخة العلم الديني المعروفة، وإنما هو اصطلاح جاء بسبب ما كان من تديّن هذه الطبقة وإطلاقهم لحاهم. والمعروف=

أبو إبراهيم الكبير (خليل العيسى) بما ظهر منه من شخصية قوية، وحزم ودهاء، يسَانده فيها أبو إبراهيم الصغير (توفيق الإبراهيم) وأبو علي (سليمان العبد القادر)[1] اللذين تكشَّفا هما الآخران عن مزايا شخصية قويّة، حيث ضمت هذه القيادة مناطق: طبرية وصفد، وعكا والناصرة وقسماً من منطقة نابلس وقسماً من منطقة القدس الشمالية.

وكانت المنطقة المتوسطة (لواء نابلس) مقسمةً إلى أربع قيادات رئيسة: ففي منطقة جنين الغربية قيادة تولاها الشيخ عطية أحمد من حيفا فاستشهد، فتولاها الشيخ يوسف أبو درّة. وفي منطقة جنين الشرقية قيادة تولاها محمد صالح العبد، المكنى بأبي خالد، وهي التي كانت تحت إدارة قيادة المشايخ الموحدة، فاستشهد، فتولاها الشيخ عبد الفتاح العبد المكنّى بأبي عبد الله، فاستشهد، فتولاها الشيخ أبو عمر. وجميعهم من نفس الطبقة (أي: طبقة المشايخ)[2].

* * *

= أن العصبة القسّامية هي التي أخذ أفرادها لقب (الشيخ).

(١) من المعروف أن الأعلام لا تتحلى بأل، وما سمع مثل (العباس والحارث) لا يقاس عليه وأما الأعلام المحلاة بأل في العصر الحديث فإن (أل) فيها بمعنى (آل) فالعبد القادر يعني (آل عبد القادر) وبغير هذا التأويل يفسد معنى الاسم، وربما كان مكروهاً. والله أعلم.

(٢) القضية الفلسطينية: ١/ ٢١٢.

بيان المجاهدين[1]
إلى الأمة العربية الكريمة

قد بلغ المجاهدين في فلسطين أن بعض الأشرار قاموا باقتحام بعض المنازل في القرى العربية، وتصدّوا لفريق من المارة العرب، أو بعثوا بكتب التهويد بقصد النهب وسلب الأموال، وإنهم فعلوا ذلك باسم المجاهدين وتحت ستار الجهاد المقدّس.

إن بعض المجاهدين قد باعوا أنفسهم لله، وخرجوا في طاعته لم يخرجوا إلا ابتغاء وجهه، والجهاد في سبيله، والفوز بمثوبته، واكتساب مرضاته، لا يرضون بذلك بديلاً، ولا يبغون عنها حوَلاً، ﴿صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٢٣]، وهم يتسابقون إلى ميدان الجهاد والشهادة انتصاراً للحق وإقامة العدل ودفاعاً عن أمتهم الكريمة وبلادهم المقدّسة، قد فارقوا في سبيل ذلك أهلهم، وتركوا أموالهم، وعطّلوا مصالحهم، ومن

---

(١) نصٌّ بيان أيام الثورة الكبرى، يظهر فيه الأسلوب الإسلامي في التعبير عن غايات المجاهدين، وهو من تأثير العصبة القسّامية. انظر صورة البيان في ملحق الكتاب.

كان هذا حالهم، وكان كل مبتغاهم ثواب الدنيا وحُسن ثواب الآخرة من الله لا من سواه، حاشا لله أن يفسدوا في الأرض ويسلبوا أموال إخوانهم، فيبطلون بذلك أعمالهم ويخرجون من زمرة المجاهدين الأبرار إلى زمرة السفلة الأشرار.

ولذلك فإن المجاهدين يعلنون بأن هؤلاء السلابين ليسوا منهم، وأنهم بريئون من تلك الأعمال الدنيئة، ويلفتون نظر الأهالي جميعاً إلى ما ثبتت حقيقته من أن بعض هؤلاء الأشرار ينتهزون الفرص ليصطادوا في الماء العكر، كما أن بعضهم مدفوع من قِبَل دائرة الاستخبارات السرية الإنكليزية، وإنها تستأجرهم لذلك بقصد توهين صفوف الأمة، وإيقاع الفساد بينها، وتشويه حركة الجهاد المقدسة، وقد حدث أن شخصاً داهم في المدة الأخيرة منزل رجل عربي ليلاً وطلب منه مالاً وهدّده بالقتل إن لم يدفع، فاستعان الرجل ببعض الناس وقبضوا عليه وفتشوه فوجدوا معه مسدس بوليس رسمي وأوراق تدلّ على أنه ذو صلة بدائرة الاستخبارات الإنكليزية، وأن هذه الدائرة قد استخدمت بعض الأفراد والجماعات للقيام بهذه الأعمال السافلة.

والمجاهدون الذين أخذوا على عاتقهم متابعة هؤلاء الأشرار الأُجراء ومطاردتهم يرجون كل من يقع له حادث مثل هذا ويتمكّن من معرفة فاعليه أو الاشتباه بهم، أن يتوسّل لإبلاغ ذلك إلى قيادة أي فريق من المجاهدين لينالوا شرّ الجزاء على ما تقترفه أيديهم الأثيمة.

وإننا نهيب بكل مسلم وعربي أن ينهض للجهاد في سبيل الله ويساعد المجاهدين على الدفاع عن البلاد المقدّسة التي هي أمانة في عنق كلٍّ منهم يُسأل عنها أمام الله والناس والتاريخ، ونحن ماضون في هذا السبيل إن شاء الله إلى أن يُكتب النصر لهذه الأمة أو يأتي الله بأمر من عنده ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ﴾ [الحج: ٤٠] إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم، والله وليّنا وهو نعم المولى ونعم النصير.

قيادة الثورة العامة في فلسطين

بلاغ رقم (٢)[١]

﴿نَصۡرٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتۡحٞ قَرِيبٞۗ﴾

احتلال مدينة جنين ومعارك دامية:

قررت القيادة العامة القرارات التالية:

أولاً: مهاجمة مركز بوليس بيسان. ثانياً: احتلال جنين. ثالثاً: مهاجمة مراكز الجيش نابلس. رابعاً: مهاجمة الدوريات العسكرية التي تتجوّل بين نابلس وجنين.

وتنفيذاً لهذه القرارات خرج فصيل **عمر بن الخطاب**، وقام بمهاجمة مركز (الخنيزر) تابعة لبيسان، فاستولى على جميع أسلحته وأمتعته، ثم قامت الفصائل الأربعة: فصيل القسَّام وحمزة بن العباس وعمرو بن العاص وأبو بكر، وطوّقوا جنين من جميع جهاتها، ثم هاجموها بالتكبير والتهليل، تتقدّمهم المدافع الرشاشة التي كانت تصبّ

---

(١) بلاغ حزبيّ يظهر فيه أسماء فضائل المجاهدين بتأثير العصبة القسَّامية، مع العلم بأن قائد المنطقة قسامي. انظر صورة البيان في ملحق الكتاب.

نيرانها الحامية على مراكز البوليس والجند مما جعلتهم أن يولوا هاربين إلى البيوت ملتجئين، ودخل المجاهدون المدينة، واستولوا على ما فيها من ذخيرة وبنادق.

أما فصيل **علي بن أبي طالب** فقد اتّجه شطر نابلس، وهاجم قوات الجيش في مراكزها في الشرق والغرب وأصلاها ناراً حامية.

وهاجم فصيل **خالد بن الوليد وأبي عبيدة** الدوريات العسكرية التي تتجوّل بين نابلس وجنين، فاصطدمت معها في وادي (دعوق)، وقد قتل سائق السيارة المصفّحة وهو يهودي، وسائق سيارة ثانية وهو جندي، طوّقه الثوّار، وحاول أن يغريهم بالدراهم التي معه ليتركوه، ولكنّهم رفضوا وطلبوا إليه تسليم نفسه فأبى، وأشهر مسدسه عازماً على غدرهم، وعندها أطلق الثوّار النار فقتلوه.

قائد منطقة نابلس وجنين
(الشيخ عطية)

أعضاء عصبة القسّام السرية ـ في الثلاثينيات

القيادة المسؤولة :

الشيخ عزّ الدين القسَّام .

الشيخ خليل العيسى (أبو إبراهيم الكبير) .

الشيخ سليمان عبد القادر حمام .

سرور برهم العودة .

الشيخ عطية أحمد عوض .

محمود زعرورة .

توفيق إبراهيم (أبو إبراهيم الصغير) .

الحاج حسن حمادة .

محمد محمود غزلان (أبو محمود الصفوري) .

المجاهدون في معركة يعبد :

الشيخ عزّ الدين القسَّام (استشهد في المعركة) .

يوسف عبد الله الزيباوي (استشهد في المعركة) .

سعيد عطية أحمد المصري (استشهد في المعركة).

محمد أبو قاسم خلف (استشهد قبل المعركة برصاص البوليس).

الشيخ نمر حسن السعدي (جُرح في المعركة).

الشيخ حسن الباير (أُسر في المعركة).

أحمد الحاج عبد الرحمن (أُسر في المعركة).

عربي البدوي (أُسر في المعركة).

محمد اليوسف (أُسر في المعركة).

أسعد مفلح الحسين (فُقد بعد المعركة).

قادة القواعد والفروع:

- الشيخ محمد عبد الكريم الأسعد.
- أحمد أبو ذان المزرعاوي.
- حسن الباير.
- شريف السيلاوي.
- الشيخ نمر السعدي
- صالح أبو حشمة.
- الشيخ فرحان السعدي.
- أحمد الغلاييني.
- الشيخ محمد الحنفي.
- أحمد التوبة.
- ناجي أبو زيد.
- عيسى البطل.
- داود خطاب.
- الشيخ ذيب الديوان.

ـ سعيد عطية .
ـ عبد القاسم أبو طـٰه .
ـ محمد الصالح .
ـ محمد سيلاوي .
ـ أبو خضر عارف إبراهيم .
ـ حسن شبلاق .
ـ الشيخ عارف أحمد .
ـ ممدوح العلي .

* * *

١٠ ـ تراجم قسّامية:

● **فرحان السعدي: (١٨٦٠ ـ ١٩٣٧م).**

أحد القسّاميين، وقائد من قادة ثورة (١٩٣٦ ـ ١٩٣٩م)، وُلد في قرية (المزار) بقضاء جنين، وتلقّىٰ دراسته الابتدائية في قريته، ثم في جنين، ونشأ نشأة دينية، فحفظ القرآن، ودرس الحديث والفقه.. ثم عمل في الزراعة.

وعندما نشبت ثورة ١٩٢٩م (ثورة البراق) قاد مجموعةً من المقاتلين في قضاء جنين، وأخذو يهاجمون البريطانيين واليهود حيثما وجدوهم، ثم قبضت عليه سلطات الانتداب، وحكمت عليه بالسجن ثلاث سنوات، وحين أُطلق سراحه عاود نشاطه الجهادي، فانضمّ إلى حركة القسّام، وشارك في معركة أحراج (يعبد)، ثم كان له شرف إطلاقِ الرصاصة الأولى في الثورة الكبرى سنة ١٩٣٦م، فقد قام هو ومجموعته بمهاجمة قافلة صهيونية على طريق نابلس وطولكرم، فكان ذلك إيذاناً ببدء الجهاد المسلّح وتتابعت بعد ذلك أعمال الثورة، وخاض السعدي معارك كثيرة، وجرح في معركة (عين جالود)، ولكنه استمرّ يقاتل بعد ذلك.

وفي ٢٢/ ١١/ ١٩٣٧م هاجمت القوات البريطانية بيته في قرية (المزار)، وألقت القبض عليه، وحُكِمَ عليه بالإعدام شنقاً في سجن

عكا، وفي ١٤ رمضان سنة ١٣٥٦هـ ـ ٢٧/ ١١/ ١٩٣٧م نُفِّذ فيه حكم الإعدام وهو صائم، وكان عمره سبعة وسبعين عاماً[١].

● **نمر السعدي (١٩٠٥ـ١٩٤٨م):**

ولد في قرية صفورية عام ١٩٠٥م.. وكان من المجاهدين المخلصين الذين خرجوا مع الشيخ القسّام، وشارك في معركة (يعبد)، وأصيب بثلاث رصاصات، استقرّت رصاصتان منها في قلبه، وأُسر، فوُضع في المستشفى حتى ٢٧/ ١٢/ ١٩٣٥م، فنقل إلى مستشفى سجن القدس المركزي، ومنه إلى سجن نابلس، فسجن عكا، ليكون على مقربة من الناصرة، حيث كان يجري التحقيق مع القسّاميين الأسرى.. وحُكم عليه بالسجن سنتين، وجدّدها حاكم لواء الجليل سنةً ثالثةً، وتوفي بآلام الرصاصات التي استقرّت في قلبه سنة ١٩٤٨م.

● **يوسف سعيد أبو دُرَّة: (١٩٠٠ـ١٩٣٩م).**

ولد في قرية (سيلة الحارثية) بقضاء جنين، وتلقّى دراسته الأوّلية

---

(١) وقد أشار إلى ذلك الشاعر عبد الكريم الكرمي ـ أبو سلمى ـ في قصيدته المشهورة (لهب القصيد) فقال:

قوموا انظروا فرحان فوق جبينه أثر السجودِ
يمشي إلى حبل الشهادة صائماً مشي الأسودِ
سبعون عاماً في سبيل الله والحقّ التليدِ
خجل الشباب من المشيب بل السنون من العقودِ

في قريته، واشتغل بالزراعة، ثم انتقل إلى حيفا، حيث عمل في السكك الحديدية، تعرّف في حيفا على الشيخ عزّ الدين، وأُعجب به، فانضمّ إلى حلقته، واشترك معه في معركة أحراج (يعبد)، واستطاع أن يفلت من الطوق الذي ضربته القوات البريطانية حول الأحراج. . ثم التحق بالثورة الكبرى سنة ١٩٣٦م تحت قيادة الشيخ عطية أحمد عوض قائد منطقة جنين، ثم خلفَه في القيادة بعد استشهاده. . وكان يوقّع تقاريره العسكرية بـ(المتوكل على الله سعيد أبو دُرَّة). . وبقي مجاهداً صلباً، حتى سنة ١٩٣٩م، حيث توقفت الثورة، فانسحب إلى دمشق، ثم إلى الأردن، فاعتقلته دورية من جيش غلوب باشا في الأردن، ثم سُلِّم إلى سلطات الانتداب في فلسطين، فحُكم عليه بالإعدام، ونفِّذ فيه الحكم في القدس في ٣٠/ ٩/ ١٩٣٩م.

● **عطية أحمد عوض (ت ١٩٣٨م):**

قسَّامي، وقائد منطقة جنين في ثورة (١٩٣٦ ـ ١٩٣٩م)، ولد في قرية (بلد الشيخ) قرب حيفا، وفيها نشأ، وتلقّى بعضَ التعليم، ثم انتقل إلى حيفا، حيث عمل في أعمال مختلفة، وتعرّف على الشيخ عزّ الدين القسّام، فانضمّ إلى حلقته، وبعد استشهاد القسّام أخذ عطية أحمد عوض يؤسس فصائل من الشبّان المستعدّين للجهاد، وينظّمهم ويدرّبهم، متعاوناً مع خليل محمد عيسى (أبي إبراهيم الكبير)، وحين بدأت الثورة الفلسطينية الكبرى برصاصات الشيخ فرحان السعدي، كان الشيخ عطية

إلى جانبه . . وفي أوائل شهر آذار ١٩٣٨م اشتبك مع القوات البريطانية في معركة (اليامون) قرب جنين، واستشهد مع نفر من مقاتليه، وتولّى قيادة المنطقة بعده يوسف أبو درّة.

عُرف الشيخ عطية بالشجاعة، واستقامة الخلق، والاندفاع في القتال، والتعفف، وحسن القيادة، والحكمة.

● **خليل محمد عيسى (أبو إبراهيم الكبير) (ت١٩٧٩م):**

قسّامي، وأحدُ قادة الثورة الفلسطينية الكبرى، كُنِّي أبا إبراهيم الكبير، تمييزاً له من القائد الآخر أبي إبراهيم الصغير.

ولد في قرية (المزرعة الشرقية) من قضاء رام الله، ثم عمل فلاحاً في قرية (شفاعمرو) بقضاء حيفا، ثم انتقل إلى حيفا، حيث افتتح حانوتاً لبيع الصوف والأكياس. وانضم في حيفا إلى حلقة الشيخ القسَّام، وشاركه في مراحل جهاده التنظيمي والتنفيذي، ثم أصبح من قادة التنظيم القسّامي.

وبعد استشهاد القسّام تولّى قادة حركته قيادة قطاع الثورة الكبرى، الممتد من شمال فلسطين حتى وسطها، واستلم أبو إبراهيم قيادة المنطقة الشمالية، وكان يوقع بياناته بـ(المتوكل على الله أبو إبراهيم).

غادر فلسطين بعد سنة ١٩٣٩م إلى العراق، واشترك في ثورة رشيد عالي الكيلاني سنة ١٩٤١م، وعندما أخفقت الثورة غادر بغداد، وعاد إلى

فلسطين بعد نهاية الحرب العالمية الثانية، واشترك في القتال قائداً لبعض القطعات في شمال فلسطين، وحين وقعت النكبةُ استقرّ في عمّان، حتى وافاه الأجل.

● **توفيق إبراهيم (أبو إبراهيم الصغير) (ت ١٩٦٦):**

واحدٌ من القسّاميين ومن قادة الثورة العربية الفلسطينية الكبرى، ولد في قرية (أندور) بقضاء الناصرة.. التحق بحركة الشيخ القسّام، وخاض معه معركة أحراج (يعبد)، وفي الثورة الكبرى أُسندت إليه قيادة بعض المناطق في لواء الجليل، فقام بأعمال حربية أقضّتْ مضاجِعَ الأعداء. لجأ بعد النكبة إلى دمشق، وتوفي بها.

● **نوح إبراهيم (١٩١٣ ـ ١٩٣٨م):**

ولد في حيفا، وتلقّى فيها دراسته الابتدائية، ثم ترك الدراسة، واشتغل عاملاً في إحدى المطابع.. وتفتّحت فيه روحُ الشاعر الشعبي، وهو في سِنٍّ مبكّرة، فأصبح الروحَ الحيّة في الأنديةِ والمنظّمات الكشفية والميادين الوطنية.

ارتبط بالشيخ عزّ الدين القسّام وبحركته الجهادية، فأُطلق عليه لقب (تلميذ القسّام) وعندما استُشهد القسّام، رثاه بزجلٍ طويلٍ لحّنه وغنّاه، وسجّله بصوته على أسطوانة، وردّدتها فلسطينُ آنذاك. وقد أثبتنا القصيدة في الفصل التالي الأخير (المدوّنات الأدبية). التحق بصفوف

المجاهدين في الثورة الكبرى، واستُشهد في إحدى المعارك.

● **عمر البدوي المحسن (١٩١٦ ـ ١٩٨٤م):**

ولد في قرية (قبلان) عام ١٩١٦م، تعلّم في مدرسة القرية.. وانتقل إلى حيفا للعمل، وانضمّ إلى عصبة القسّام، وخرج معه إلى أحراج (يعبد)، وأُسر، وحُكم عليه عشر سنوات.

● **عطية أحمد المصري:**

مصري الأصل من القاهرة، قدم حيفا سنة ١٩١٣م، وعمل في جمرك حيفا، وانضمّ إلى عصبة القسّام، وخرج معه إلى أحراج (يعبد) واستُشهد، ودُفن في (بلد الشيخ) بجوار عزّ الدين القسّام.

● **حسن الباير (١٨٩٥ ـ ١٩٨٤م):**

ولد في قرية (برقين) بقضاء جنين عام ١٨٩٥م، وكان من أوائل المجاهدين الذين ارتبطوا بحركة القسّام، وكان صهراً للشيخ القسّام، خرج مع القسّام إلى أحراج (يعبد) فأُسر بعد المعركة، وحُكم عليه بالسجن أربعة عشر عاماً. وعاش بعد النكبة في سورية، وتوفي بدمشق بتاريخ ١٥/ ٤/ ١٩٨٤.

● **محمد عارف محمد الحنفي (١٨٩٨ ـ ١٩٧٨م):**

الحنفي: تلقّب به في فلسطين، أما اسم العائلة في مسقط رأسه فهو (حنّوف) واستبدل (حنفي) بحنّوف عند إصدار الهُويّة الفلسطينية في

حيفا للتمويه على السلطات البريطانية.

ولد الشيخ محمد حنوف في مدينة جبلة، وعند قيام الحرب الأولى سيقَ مع المجنّدين العرب، فخدم الجيش التركي في الناصرة. ومن ذكرياته أيام الحرب، أنّ كمال أتاتورك زار موقع الجيش في الناصرة، فاصطفّ الجنود لتحية القائد، وهتف أحدهم: تحيا الأمّة العثمانية، فغضب كمال أتاتورك لهذا الهتاف، ووبّخ الجندي، وعلّمه أن يقول: تحيا الأمّة التركية.

وبعد هزيمة الجيش التركي المرابط في فلسطين أُسرَ محمد حنوف مع مَنْ أُسر، وحُمل إلى مصر حتى انتهت الحرب، فأُطلِقَ سراحه، وعاد إلى بلدته جبلة، فلازم الشيخ عزّ الدين القسّام، وتتلمذ له في مسجد جبلة، وعندما دعا القسّامُ إلى جهاد الفرنسيين رافقه إلى منطقة (الحَفَّة)، فكان عيناً لجماعة المجاهدين، وبريدهم بين ساح المعركة والأهل في جبلة.. ثمَّ رافقَ القسَّامَ في رحلته إلى حيفا، ولازمه في مجالسه ورحلاته، فكان من أقرب المقرّبين إلى الشيخ القسَّام، وأصبح أمينَ سرّ الجماعة وأحد خزنة مالها، ومثمّر قدرتها المالية، والعارف بمستودع أسلحتها. وكان يشرف على الأراضي الزراعية التي استأجرها الشيخ، فيجني محاصيلها، ويدّخر ثمنه في صندوق الجماعة لوقت الطلب. ويتلقّى الأسلحة التي تشتريها الجماعة ويدفنها في أرض المزرعة في (أشرفية بيسان).

وفي الثـورة الكبرى (١٩٣٦ ـ ١٩٣٩م) قـام بدور فعّال، فكـان البريد الجوّال الذي يربط بين الفصائل، وناقل أحمال الأسلحة إليها. . وفي سنة ١٩٤٧م هاجر إلى دمشق، وكان من أوثق المصادر الشفوية عن سيرة القسّام وحركته.

تـوفي رحمه الله في دمشـق، وترك ذريّةً صالحةً، ورجالاً أكفاء، أشهرهم أبو محمد عبد الرحمن وأبو طارق خليل، والشيخ الصيدلي صلاح.

١١ ـ رجالٌ عاصروا القسَّام:

● محمد كامل القصاب: (١٨٧٣هـ ـ ١٩٥٤م):

يُوصف القصاب، بأنـه صديق القسَّام، واشـتراكهما في تـأليف (النقد والبيان) دليلٌ على اتحادهما في الرأي، ودليلٌ أيضاً على وجود رابطة الصداقة. . فهل كانت هذه الصداقة حميمة، أم أنها كانت رفقة عملٍ أو معرفـة عابر طريق، وأن وَصْفَه بأنـه صديق القسَّـام من كلام المؤلفين؟،

لقد ظهر لي ـ والله أعلم بالحقيقة ـ أن العلاقة بين القسَّام والقصاب لم تصل إلى درجة (الصداقة) مصدر (الصديق) الذي يصدقك المودّة والنصيحة. فقد يعرِف الإنسان مئة، يصادق منهم خمسة، وما يطّلعُ الناسُ على حقيقة العلاقة بين رفيقين أو صاحبين، فيحسبونهما صديقين،

أو يطلقون عليهما لفظ (الصديقين) تساهلاً ومجازاً.

وليس هذا الحكمُ تحاملاً على القصاب، أو انحيازاً إلى القسَّام، وإنما هو حُكْمُ الواقع التاريخي.

فالعلاقة بين الرجلين لم تتعدَّ حدود وجودهما في (حيفا) ولم تسبق زمنَ اللقاء الأول في مدينة حيفا. فالقسَّام كان في جبلة وضواحيها، والقصاب كان في دمشق الشام. وقيل: إن القسَّام استجاب لنداء السلطان العثماني بالدعوة إلى الجهاد ـ قُبيل الحرب الأولى ـ فالتحق بالجيش العثماني في (الكسوة) القريبة من دمشق. ولكن لم يثبت وجود علاقة بين القسَّام والقصاب في أثناء هذه المدّة.

وكان القصابُ عضواً في جمعية (العربية الفتاة) السريّة، ومنهمكاً في الأسفار بين مصر والشام والحجاز، للتشاور في أَمْر الثورة على الأتراك، والتحالف مع الإنكليز، ولم يكن القسَّام من هذا الاتجاه. وظلَّ القصاب أيام الثورة العربية في الحجاز، وعاد إلى دمشق بعد نهاية الحرب... وعندما غزت فرنسة سورية لم يطلق رصاصةً واحدةً عليها، فقيل: إن الفرنسيين حكموا عليه بالإعدام، فهرب إلى (حيفا) وعندما كان في (حيفا) لم يُنْقَل عنه أنه دعا إلى طرد الإنكليز من فلسطين، ولم يشارك في مظاهرة، ولم ينتسب إلى نادٍ من النوادي، أو جمعيةٍ من الجمعيات.

وكل ما وصلنا أنه اتصل بالجمعية الخيرية في حيفا، ليتعهد

مدرسة (البرج) فطرد الطلاب الفقراء والأيتام الذين كانوا يدرسون مجاناً، ونقل الدكتور حسين عمر حمادة عن محمد الحنفي ما يشير إلى أنَّ القصاب كان متهماً بموالاة الإنكليز أثناء وجوده في حيفا، ومما قاله: «إن القسَّام ساند القصاب آنذاك إزاء الانتقادات والاتهامات الفاحشة التي وُجِّهتْ ضد سلوك القصاب، قائلاً: «اعلموا أنَّا ضد الإنكليز واليهود، وحذَّر عبد الله الحاج، وعبد السلام الناطور وسواهم من التعرُّض للقصاب، وإذا مدَّ أيُّ مخلوق يده على الشيخ كامل القصاب فستُقْطَعُ»[١].

ولعلَّ القسَّام دافع عن القصاب، لأنه لا يريد أن يأخذه بالشُبْهة. فالقصاب لا يُعلن الموالاة للإنكليز، ولا يعلن العداوة لهم، وليس هناك وثائق تدينه... والقصاب محسوبٌ من رجال الدين الإسلاميّ، وإثباتُ ولائه للإنكليز أمرٌ مستهجنٌ، يسيء إلى رجال الدين الإسلامي بعامّة.. ولعلَّ الله يهديه إلى الحقّ بسبب ما يحمله في صدره من الآيات القرآنية المحذّرة من موالاة الكفار.

واتصال القصاب بالإنكليز قبل دخوله فلسطين، ثابتٌ في كتب التاريخ.. فقد نقل أكثر من مؤرخ أن جمعية (العربية الفتاة) انتدبته للسفر

---

(١) أليس في قول القسَّام هذا دلالة على ثقته المطلقة، وصداقته الوثيقة بالشيخ القصاب، وأن ما تلوكه الألسنة حوله هو مجرد أكاذيب يراد منها تشويه صورته؟. (الناشر)

إلى مصر، والتقاء أقطاب اللامركزية، وهؤلاء كانوا على صلة وتشاور مع الإنكليز حول استقلال البلاد العربية، وسلخها عن الحكومة العثمانية.

وفي القاهرة، كان القصاب واحداً من السوريين السبعة الذين قدموا إلى السلطات البريطانية مذكرة توضح مطالب العرب مقابل تحالفهم مع الإنكليز.

وبعد حلول القصاب في فلسطين، كان للقصاب صلة وثيقة ـ خلال سنة ١٩٣٦م ـ مع الوسطاء، بين بريطانية واللجنة العربية في فلسطين، لإنهاء الإضراب العامّ... فنقل الدكتور حسين حمادة عن محمد عزّة دروزة ـ وهو ثقة فيما يروي ـ في مذكراته «بات الشيخ كامل القصاب ليلة أمس الأربعاء ١١/ ١١/ ١٩٣٦م في بيتي، وفي الصباح جاءَتْه برقية من المعتمد السعودي في دمشق يُبلِّغُه فيها نصّ برقية وردتْ إليه من الملك ـ عبد العزيز ـ يأمر الشيخ القصاب فيها، أن يقول للحاج أمين بأن يرسل مطالب العرب للحكومة الإنكليزية على أن تكون معتدلة ومعقولة وغير متجازوة للحدّ».

فإذا كانت هذه حال (القصاب) وقد عرفْنا من قبلُ مذهب القسَّام ومنهجه، فإننا نرجح أن القصاب كان واحداً من هؤلاء الذين تعامل معهم القسَّام، بوصفهم مواطنين يمكن صلاح حالهم وتقويم ما اعوجّ من سلوكهم، ولا بأس من موادّتهم.

أما مشاركته في تأليف رسالة (النقد والبيان) أو نسبة الرسالة إلى الرجلين، فليس فيها دلالة على الصداقة الحميمة. وقد تحدثنا عن قصة الرسالة في الفقرة السابقة.

● عزّ الدين التنوخي: (١٨٨٩ ـ ١٩٦٦م):

عالِم بالأدب، من أعضاء المجمع العلمي العربي بدمشق، مولده ووفاته بدمشق وتعلَّم بها، وبمدرسة (الفرير) في يافا ثم بالأزهر، ثم درس الزراعة في فرنسة.

كان لقاؤه الأول مع عزّ الدين القسّام في جوار الأزهر بالقاهرة. جمع بينهما (رواق الشوام) والانكباب على طلب العلم... وتعاونا على تذليل صعاب الغُربة.

فعندما نفد ما بحوزتهما من نفقة، اتفقا على أن يصنعا كل يوم (صَدْر هريسة) لبيعها للطلاب... فكان القسامُ يعلن عن البضاعة، وكان التنوخي يقف بجواره، وذات يوم جاء التنوخي الكبير لزيارة ابنه في القاهرة، فوجد ابنه إلى جوار القسّام، وكلاهما خلْفَ صدر الهريسة.. فسأل التنوخي متعجباً: ما هذا؟.

فظنَّ الابنُ أنَّ الأبَ ينكر ما رأى.. فأجاب رادّاً التهمة عن نفسه:

إن عزّ الدين القسّام علَّمني، وهو صاحب الفكرة.. ولم يصدق الابن حين سمع أباه يقول: حقّاً لقد علَّمك الحياة! فحفظها التنوخي

الصغير، وكانت من أسباب توثيق الصداقة بينهما، «فالصديق كما قيل: الذي ينفعك وقت الضيق».

ثم افترقا ـ فذهب القسَّام إلى بلدته جبلة، وذهب التنوخي إلى دمشق.

وعندما قامت الثورة على الأتراك انضم إليها رغبةً في إنقاذ الوطن العربي من الفناء الذي يهدّده، لغلبة النزعة الطورانية في الدولة التركية..

وفي بداية العهد الفيصلي عُيِّنَ التنوخي عضواً في لجنة الترجمة والتأليف، ثم عضواً في (مجلس المعارف) نواة المجمع العلمي العربي الدمشقي.. وبقي يعمل في خدمة الدولة العربية حتى جاء الاحتلال الفرنسي، فعُيِّنَ مترجماً في مديرية البرق والبريد، وفي هذه المرحلة يكون لقاءٌ بين التنوخي وصديقه القديم عزّ الدين القسَّام.. حيث جاء القسَّام إلى دمشق سرّاً، واتصل بصديقه التنوخي، واستطاع ـ بتدبير من التنوخي ـ أن يحصل على جواز سفرٍ يجتاز به الحدود إلى حيفا.

وبعد الاحتلال الفرنسي لسورية، قصد التنوخي فلسطين، وعمل في الزراعة مدّةً، وكان له تعاون مع القسَّاميين في هذا الميدان، وروى عبد الرحمن بن محمد الحنفي أنَّ التنوخي أراد أن يردَّ للقسَّام مبلغاً من المال أخذه من القسَّام أيام طلب العلم بالأزهر، فرفض القسَّام ذلك، وقال: إنما أهديتُ لك المال بوصفك طالب علم.. ولم تطل إقامة التنوخي في فلسطين، ولكن حبل الودّ بقي موصولاً مع القسَّاميين بعد النكبة، وكان

بين آل الحنفي وآل التنوخي مصاهـرة، فتزوّج خليل بن الشـيخ محمد الحنفي ابنة قيس بن عزّ الدين التنوخي.

● الحاج محمد أمين الحسيني (١٨٩٧هـ ـ ١٩٧٤م):

الكلام على العلاقة بين عزّ الدين القسّام والحاج أمين الحسيني مثيرة للجدال، ولشيءٍ من السخط والإنكار. فقد نشأ الجيلُ الذي وُلد وتربّى في ظلّ الاحتلال البريطاني، على تعظيم اسم (الحاج أمين)، وعلى رَفْع مقامه فوق كلِّ مقامٍ من أهل عصره، بل لم يكن يعرف الناسُ في جنوب فلسطين إلا الحاج أمين. وحفظتُ مما كان ينشده الناسُ أهازيج تمجّد الحاج أمين، وتستنجد به لينقذ البلاد والعباد من الفقر..، وليحرر البلاد. وأحفظ من أناشيد الطفولة:

يا حاج أمين تعالْ شُوفْ هالعيشهْ

بعد الرُّز أكلنا جريشه

يا حاج أمين تعال شوف هالحالة

بعد الرز أكلنا نْخالة

وينشدون أيضاً:

حاجْ أمين يا منصورْ

وبسيفك هَدّينا السورْ

مع العلم أنَّ هذه الأهازيج لم نكن نأخذها من إذاعة، أو صحافة..

وإنما كانت من إنشاء الناس، بسبب الدعاية الإعلامية التي جعلت الناس يضعون كلَّ آمالهم عند الحاج أمين: فهو مُفْتي فلسطين، ورئيس المجلس الإسلامي الأعلى، والموجّه الروحي للحزب العربي، وهو رئيس اللجنة العربية العليا، التي كانت تتحدث نيابةً عن أهل فلسطين إبّان ثوراتها من سنة ١٩٣٦ ـ ١٩٤٧م ثم صارت باسم (الهيئة العربية العليا) وبقي الحاج أمين متربّعاً على كرسيّ رئاستها في المنفى.

وفي ظلّ هذه الهالة الكبيرة التي أحاطت بالحاج أمين، يصعبُ على الناس أن يستمعوا إلى رأي مؤرّخ موضوعيّ غير منحاز لأحدٍ.

والعلاقة بين القسَّام والحاج أمين، من أكثر القضايا التي تُغضِبُ أهل الهوى في حُبِّه.

لأن التجربة القسَّامية كانت الأولى والأخيرة في جهاد أهل فلسطين، لم يسبقها ما يدانيها، ولم يلحقها ما يضاهيها. فمن الناس مَنْ غبطه عليها، وأحبَّ أن يكون له مثل ما كان للقسَّام، فاجتهد للوصول، ولكنه لم يصل، ويُؤْجَر على اجتهاده.

ومن الناس مَن حسدَ القسَّام على تجربته، وأحبَّ أن تكون له وحده، فادّعى أن القسَّام كان يعمل تحت رايته، وبتوجيهه ومشورته، ومن هؤلاء جماعة الحاج أمين الحسيني، فزعم أميل الخوري ـ أحد رجالات الحاج أمين، أن فكرة إنشاء منظمة جهادية سرية كانت من تدبير الحاج أمين، وأن الأخير قد كلّف القسّام بإنشاء هذه المنظمة، واختيار

أعضائها . . وأن القصاب كان صلة الوصل بين القسَّام والحاج أمين ، فكان القصاب ينقل توجيهات الحاج أمين إلى المنظمة، ويتسلم منه الأموال المطلوبة للإنفاق عليها وتسليحها، ثم يسلمها إلى القسَّام، ليتولى إنفاقها . . » .

ورواية أميل الخوري ملفّقةٌ بلا سندٍ ولا توثيق ، ورائحة الوضْع فيها تزكم الأنوف .

وقوله : إن الحاج أمين ، كان ينفق على المنظمة ويسلحها . . أقوى دليل على كذب الرواية . . فلو كان الحاج أمين ينفق على عُصْبة القسَّام ما تأخَّر ظهور الحركة حتى سنة ١٩٣٥ م وما كان القسَّام وأصحابه يعيشون في أدنى دركات الفقر . . ولعرفنا ذلك من أصحاب القسَّام . . حيث تربّى أصحاب القسَّام على قول كلمة الصدق، ونسبة الفَضْل لأهله، وما كان القسامُ يكتم شيئاً عن قادة تنظيمه .

وقد حصل خلاف بين المؤرخين حول الوظائف التني تولاها القسَّام : أكانت بأمر من الحاج أمين ـ بوصفه رئيساً للأوقاف الإسلامية ـ أم كانت من تعيين رئيس الأوقاف في حيفا .

وإذا ثبت أنَّ الذي عيَّن القسَّام هو المجلس الإسلامي الذي يرأسه الحاج أمين ، فإنَّ هذا التعيين ، لا يدلُّ على وجود علاقة مودّة بين القسَّام والحاج أمين ، ففي فلسطين مئات المساجد ، ولكل مسجد مؤذن وخطيب وإمام، ولا يشترط أن يكون متولي هذه الوظيفة أو تلك على علاقة

بالرئيس الأعلى . . . لأن إثبات العلاقة شبهةٌ قد تجعل الوظيفة في أيدٍ غير قادرةٍ على أدائها .

أما وظيفة المأذون الشرعي : فإن القسَّام قد نالها بناءً على منافسة ، خاض من أجلها اختباراً فقهياً ، فنال الدرجة الأعلى على المتنافسين .

وأما وظيفة جامع الاستقلال فقد تولاها القسَّام بعد أن ذاع صيته في المجتمع الحيفي ، وأثبت قدرته على العطاء ، فلم يكن في الميدان أجدر منه بها ، وكان رجال الجمعية الخيرية الذين يشرفون على بناء المسجد على معرفة وثيقة بالقسَّام ، فكلّفوه بهذه الوظيفة ، ثم بُلّغ المجلس الإسلامي الأعلى فأقرّه .

والحقُّ الذي لا مراء فيه ، أن بين الرجلين اختلافاً كبيراً ، يمنع من التصديق بأن الرجلين التقيا في طريق واحدة حتى زمن استشهاد القسَّام :

١ ـ فالقسَّامُ رجلٌ عصاميّ[1] ، وصل إلى مكانته التي حُسد عليها ، بالعلم الغزير ، والإخلاص في العمل ، والجرأة في قول الحق ، ومقارعة الباطل ، وكثرة الاختلاط (بأنصار الأنبياء) الفقراء والمساكين والعمال والفلاحين والمظلومين .

---

(١) في المثل : «كن عصامياً ، ولا تكن عظامياً» ، قالوا : فلانٌ عصاميّ ، أي : يبني مجده بيده واجتهاده ، ولم يرثه من آبائه . وأما العظامي فهو الذي يرث المجد ، ولا يزيد عليه .

والقسَّامُ اتخذ الإسلامَ كلَّه منهجاً، وركّز على فرض الجهاد، بلفظه ومعناه الإسلامي، بوصفه الأسلوب الصحيح لمحاربة الإنكليز، ودعا إلى ذلك جهرةً، وصرّح بعدائه للإنكليز، ودعا من على المنبر إلى إعداد الوسائل العسكرية لطرد الاستعمار البريطاني وسحق المشروع اليهودي.

والقسَّام اتخذ الوظيفة وسيلةً للتربية والتعليم، وسخّرها للدعوة إلى الجهاد.

وكان جريئاً لا يهابُ السجنَ أو الموت، فصبر مع الذين دعاهم إلى مقارعة الأعداء، ولم يهربْ ليدير المعركة من بُرجٍ عاجي في المنفى.

٢ ـ أما الحاج أمين فهو رجلٌ (عِظامي) نال منصب الإفتاء وراثةً، قال محمد عزّة دروزة: «وكان منصب الإفتاء في الأسرة الحسينية خلال مدة غير قصيرة، ولم يكن الحاج أمين من رجال الدين، وكان متطربشاً، فلم يكد أخوه المفتي الشيخ كامل ينتقل إلى رحمة الله، حتى لبس العمامة وأطلق اللحية، استعداداً للاحتفاظ بهذا المنصب التقليدي في أُسرته». وعندما جرى انتخاب المفتي تقدَّم لهذا المنصب الشيخ حسام الدين جار الله والحاج أمين الحسيني، فكانت درجة الحاج أمين أقلّ من درجة الشيخ حسام، ومع ذلك فقد اختار المندوب السامي (هربرت صموئيل)[1]

---

(١) راجع الفصل الثالث، حيث أثبتنا نصَّ مذكّرة مرفوعة من وجهاء حيفا إلى المندوب السامي البريطاني، يطلبون فيها تعيين الحاج أمين مفتياً لأهل فلسطين.

الحاج أمين لهذا المنصب، فكان هذا الاختيار من عوامل نجاح الحاج أمين في انتخابات المجلس الإسلامي الأعلى، وفوزه بالرئاسة».

ومع أن الحاج أمين تولى أكبر منصبين إسلاميين في البلاد، فلم يكن الإسلام هو الركيزة الأساسية الوحيدة في منهجه الوطني، ولم يحرص على بناء قاعدة إسلامية مؤمنة ومنظمة من حوله، تُعينُه على أداء مهمّته، ولم يُعْنَ بجوانب الإعداد والتربية الإسلامية لأتباعه.

والحاج أمين الحسيني كان حريصاً على البقاء في الوظيفة (المفتي) ورئيس المجلس الإسلامي الأعلى أكثر من حرصه على العمل الوطني.. بل وجّه نشاطَه الوطني نحو الذَّنَب، وترك الرأس: خوفاً على منصبه. ورأس الأفعى هم الإنكليز، فكان يوجّه نشاطه نحو اليهود، ولم يجرؤ على قول كلمةٍ واحدةٍ في الهجوم على الإنكليز.. مع أنَّ الإنكليز هم الذين ينفّذون صك الانتداب ـ لإقامة وطن قومي لليهود ـ خُطوةً خطوةً. وما يهاجر اليهود إلى فلسطين إلا بإذن من الإنكليز حُرّاس الموانئ والمطارات، وما تنتقل الراضي إلى اليهود إلا بقوّة الإنكليز المسلّحة.

وكان الحاج أمين حريصاً على ألاَّ يُغْضِبَ الإنكليز، وكان يثق بوعودهم، ويلتزم في معارضة سياسة الإنكليز بالطرق (المشروعة) التي شرعها الإنكليز، في صورة مظاهرة مأذون بها، أو تقديم عريضة إلى المندوب السامي، أو حضور مؤتمر يدعو إليه الإنكليز..

ولم ينزل الحاج أمين إلى قيادة الحركة الوطنية، وتبنّي الجهاد

المُسلّح إلا بعدَ إعلان الثورة الكبرى سنة ١٩٣٦م.

وعندما نُصّب قائداً للثورة من خلال (اللجنة العربية العليا) لم يكن الحاج أمين محرّك الثورة، ولم يكن من دُعاتها، فالذين حركوا الثورة هم جنود عزّ الدين القسّام، ثم جاء الحاج أمين، وممثلو الأحزاب لقيادتها، ليسجلوا لأنفسهم شرفاً لم يكونوا من صُنّاعه، ولإنقاذ هيبتهم التي تمرّغت في الوحل[1].

وإليك ما سجّله أكرم زعيتر في مذكراته بتاريخ ٢٧/ ٤/ ١٩٣٦م في إثر اتفاق الأحزاب على تكوين اللجنة العربية العليا برياسة الحاج أمين: إن خلافنا معه ـ مع الحاج أمين ـ كان حول توجيه القضية نحو مقارعة اليهود، دون الانتداب.

وما كان خلافنا مع الحاج أمين شخصياً، فإذا تقدَّم الصفوف، وعالَنَ الإنكليز العداء زال أيُّ داعٍ إلى الخلاف معه.. ثم إنه يعلم الآن، أنَّ منزلته في هذه الدنيا مرتبطة بهذه الحركة... على أن زعامة الحركة

---

(١) قال محمد عزّة دروزة في وصف (اللجنة العربية العليا) التي ترأسها الحاج أمين: «إن التنافس والتشادّ والتجاذب والروح الحزبية الشخصية لم تكن لتنقطع في اللجنة بين الفئات المجلسية (جماعة الحاج أمين) والمعارضة (جماعة آل النشاشيبي) وكان كلاهما يتربص بالآخر ويرصده. وكانت اللجنة أقلّ اندفاعاً وحماساً من الشعب، ويصحّ أن يقال: إنها كانت مسوقةً بحماس الشعب واندفاعه أكثر منها سائقةً له» (القضية الفلسطينية): ١/ ١٢٣.

الوطنية الثائرة أعظم كثيراً من رئاسة المجلس الإسلامي الأعلى.

وقال: «أمّا الحاج أمين فقد أنقذ مكانته بنزوله إلى الميدان، ولن يكون الخاسر على أيّ حال»

على أكبر فرق بين القسّام وأمين الحسيني: أنَّ القسّام كان يمكنه الفرار، ولكنه ثبت، وضرب بنفسه المثل الأعلى في الشهادة.

أما الحاج أمين، فقد هرب إلى خارج البلاد، وترك الأمة وحدها، مع أنَّ أقسى ما يمكن أن يقع عليه هو السجن الذي يضمن له الحياة... والزعيم الحقيقي هو الذي يلازم شعبه ويُعطي لهم من نفسه المثل في الفداء.

١٢ ـ هل أحدثَ القسّام فكراً جديداً؟ وهل يَصِحُّ أن تتحول العصبة القسّاميّة إلى حزبٍ (إسلاميّ)؟

الجواب: إنَّ القسّام لم يأتِ بفكرٍ جديد، ولم يبتدع تنظيماً جديداً، ولا يصح أن تتحول العصبة القسّامية إلى حزبٍ يُوصف بأنه (إسلامي).

أ ـ أما كونه لم يأت بفكرٍ جديد، فلأنَّ القسّام وصل ما انقطع، وبعث ما اندثر، وعلَّم الجاهلين، وأيقظ الغافلين، وهدى الضالين، وسقى العطشى من منهلٍ نهل وعَلَّ منه الأسلاف، وضلَّ عنه الأخلاف..

إن القسّام جدَّد للأمة دينها، ولم يأت بدينٍ جديد، فهو من

المجدّدين في القرن الرابع عشر الهجري. فقد بعثه الله لهذه الأمة ليجدّد لها دينها تحقيقاً لقول رسول الله ﷺ: «إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كلِّ مئة سنة مَن يجدد لها دينها»[1].

ويشمل الحديث حملة العلم وحُماة العَلم والثغور والأمراء والقادة المجاهدين، بدليل أنهم عدّوا عمر بن عبد العزيز أول المجدّدين على رأس المئة الأولى، وكان أميراً عالماً، وكان في الأمة مَن هو أعلم منه بالسنّة؛ فالزهري عاصر عمر بن عبد العزيز، وكان أعلمَ أهل زمانه بالحديث النبوي، ولكنهم جعلوا عُمَرَ هو المجدّد، لأنه أحيا العمل بالسنّة في مؤسسات الدولة.. ولذلك يمكن أن نعدَّ من المجددين القادة المجاهدين أمثال نور الدين زنكي، وصلاح الدين الأيوبي.

وقلتُ: إنَّ القسَّام مجدد، والمجدد لا يأتي بجديد في الدين، لأن الإسلام دخل إلى بلاد الشام، واستوطن فيها، وصار أهله من المسلمين منذ زمنٍ بعيد، وكانت (فلسطين) من أوائل البلاد الشاميّة فتحاً، فاعتنق أهلُها الإسلام، وسكنها الصحابة والتابعون، وظهر من أهلها عَبْر القرون رواة العلم الشرعي، والفقهاء والمحدّثون... إلخ.

وإنما احتاج الناسُ إلى أمثال القسَّام، لخلوّ البلاد زمناً طويلاً من العلماء العارفين للسنة، وفشوّ الجهل بأصول الدين، وآلت حالهم إلى

---

(١) أخرجه أبو داود، والحاكم في (المعرفة) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وهو حديث صحيح، انظر (صحيح الجامع الصغير وزياداته) رقم (١٨٧٤).

الصفة التي يحتاجون فيها إلى المجدّد. . الذي يشرح ويوضح، وينبّه، ويقود المجتمع إلى الطريق الصحيحة. . مع أنّ الناس لم يخرجوا عن كونهم مسلمين مقرّين بالشهادتين، منهم مَن يؤدي حق الإسلام عليه كاملاً، ومنهم مَن يؤديه منقوصاً، ومنهم مَن زادَ عليه ما ليس منه، ومنهم مَن قصَّر عن ذلك.

ب ـ وهذا يقودنا إلى الجواب عن الشقّ الثاني من السؤال الذي عنونّا به هذه الفقرة: هل يصحُّ اعتبار العصبة القسَّامية حزباً إسلامياً، أو تحويلها إلى حزبٍ إسلامي؟.

وقد رأينا امتناع كون العصبة القسَّامية حزباً إسلامياً أو تحويلها إلى حزبٍ إسلامي. وكان القسَّام مدركاً تأثير المسمّيات في الحياة العامة فلم يضع اسماً لتنظيمه، ولم يضع أتباعُه من بعدِه اسماً لتنظيمهم مع ما كان لهم من وجود مؤثر في الثورة الفلسطينية الكبرى، مع تسابق الأحزاب إلى إبراز دَوْرهم، وإقامة اللجنة العربية العليا، لقيادة وتوجيه الثورة. وقد أطلق الناسُ على تلاميذ القسَّام اسم (القسَّاميين) أو (المشايخ) وليس للقسَّاميين رأيٌ في هذا الاسم، فهو من اختيار الناس، أو اختيار الكُتّاب.

والعقلاء المفكرون في مجتمع جلّ سكانه من المسلمين يرفضون وصف جماعتهم بالإسلامية. ونرفض أن يُقال (التيار الإسلامي في فلسطين)، أو (الاتجاه الإسلامي) وذلك للأسباب التالية:

الأول: لأن الإسلام قَسَّمَ الناس في الدولة الإسلامية إلى (مسلمين) و(مُعاهَدين) والمعاهَدون هم أهل الكتاب.

وجعل كلَّ مَن ينطق بالشهادتين أمةً واحدة، يتفاضلون عند الله بالتقوى، والمسلم المقصّر يبقى مسلماً، والأمير الجائر لا يُخرجه جورُه عن كونه مسلماً، والمسلم الذي يقترف الآثام يُوصف بأنه مسلم، وقد يقال: إنه فاسقٌ أو فاجر، لأنه يقترف المعاصي وهو مقرٌّ بالشهادتين.

الثاني: إن الذين ينضمون إلى هذا الحزب الإسلامي، قد يكونون قلّة، وهذا يهوّن أمر المسلمين في البلاد، ويحوّلهم إلى أقليّة، لا يحق لهم بسط سيطرتهم على المجتمع المسلم.. ولذلك فقد أخطأ الحاج أمين عندما رضي بإنشاء (المجلس الإسلامي الأعلى) في بداية الانتداب، لأنه نزل بالمسلمين ـ وهم الأكثرون في البلاد، إلى مستوى الطائفة التي كانت طابع الأقليّات، فقصر إدارة المسلمين لأنفسهم في مسألة (العبادة) فقط، وترك أمر السياسة والاقتصاد، والداخلية والدفاع للإنكليز.

الثالث: إنَّ الإخبار عن جماعة قليلة بأنهم يمثلون تيَّاراً إسلامياً، فيه إقرار بأن أهل الأحزاب الأخرى ليسوا من المسلمين، وهذا يُحدِثُ التباعد والجفاء بين أهل الملّة الواحدة، ويؤدي إلى فتنة تفرّق المسلمين. ذلك أن أهل الأحزاب الأخرى لا ينكرون دينهم الإسلامي، وكثيرٌ منهم ملتزمٌ بأداء الفرائض والأركان، بل يفاخرون بأنهم مسلمونَ، ويدافعون عن كلِّ مقوّمات الأمة الإسلامية. وكان في رجالات حزب (الاستقلال)

علماء أعلام خدموا الإسلام بما قدَّموه من أبحاث ومؤلفات . . وأضرب لذلـك مثلاً محمد عزّة دروزة الذي أغنى المكتبـة الإسـلامية بالكتب الإسلامية النادرة : في التفسير ، والسيرة ، وفي بيان المنهج الإسلامي في موضوعات متفرقة .

١٣ ـ عزّ الدين القسَّام في دواوين الأدب :

ذاع نبأ استشهاد عزّ الدين القسَّام ، وعرف الناسُ بوجود العصبة القسَّامية المجاهدة . . عندئذٍ استبشر الناسُ خيراً ، وحلَّ الرجاءُ محلَّ القنوط ، وألقى حَدَثُ الشهادة والشهداء ظلاله على الأدب ، وأوحى الكتّاب والشعراء ، وهيَّجَ خواطرهم ، فسجَّلوا ما يمكن أن يؤرَّخ به لهذا الفجر الجديد . وأُثبت في هذه الفقرة مقتطفات دالّـة مما قيل في سـنة ١٩٣٥م وما بعدها حتى سنة ١٩٩٥م ، حيث عُدَّ عزّ الدين القسَّام المثَل الأعلى للجندي الذي نتطلّع إليه :

أ ـ قال الشاعر فؤاد الخطيب[١] في رثاء عزّ الدين القسَّام :

أوْلَـتْ عمـامَتُـكَ العمـائـم كُلَّهـا شـرفـاً تُقصّـرُ دونـه التيجـانُ

---

(١) فؤاد الخطيب : ولد في قرية (شحيم) قرب بيروت . . شاعر نقيّ الديباجة ، غزير المعاني ، من أعضاء المجمع العلمي العربي بدمشق ، عمل معلّماً في يافا ، والخرطوم ، واتّصل بالحسين بن علي ، وابنيه فيصل وعبد الله ، وأخيراً عمل سفيراً للسعودية في أفغانستان ، وتوفي سنة ١٩٥٧م .

إنَّ الـزَّعـامـةَ والطـريـقُ مخـوفـةٌ غيـرُ الـزعـامـةِ والطـريـقُ أمـانُ
ما كنتُ أحسبُ قبلَ شخصِكَ أنَّهُ فــي بُــرْدَتَيْـهِ يضمُّهــا إنســانُ
يا رَهْطَ عزّ الدين حَسْبُكَ نِعْمَةً فـي الخُلْـدِ لا عَنَـتٌ ولا أحْـزانُ
شهــداءُ بَــدْرٍ والبقيــعِ تهلَّلَــتْ فَـرَحـاً وهـشَّ مُـرحّبـاً رضـوانُ

● وقال الشاعر نديم الملاّح[1]:

مـا كـان ذَوْدُكَ عـن بـلادِكَ عـارا بـل كـان مَجْـداً بـاذخـاً وفخـارا
سَمَّوْكَ زُوراً بالشقيّ[2] ولم تكنْ إلا بهـــمْ أشقـــى البـــريّـــة دارا
قتلــوا الفضيلــة والإبــاءَ بقتْلهــم لـك واستـذلّـوا قـوْمَـكَ الأحـرارا
أنكرتَ باطلهم وبَغْيَ نفوسهم فـاستـرسلـوا فـي كَيْـدك استكبـارا
كثــروا عليــك بمــأزِقٍ لــو أنَّــهُ ريـعَ الخميـسُ[3] بـه لطـار فِـرارا
فَثبـتَّ بيـن رصـاصهـم مستبسـلاً يترون منكَ، وتدركُ الأوتارا[4]
ورأيتَ كأس الموت أطيبَ مورداً مــن عيشــةٍ مُلئــتْ أذًى وصغــارا
يــاشيــخُ عــزُّ الــديــن رُزؤكَ إنَّــه أذكـى شُعـورَ نفـوسِنـا وأثـارا[5]

---

(١) نشرتها جريدة (الجامعة الإسلامية) في ٢٧/ ١١/ ١٩٣٥م.

(٢) قوله: سمّوك زوراً بالشقيّ: يشير إلى بلاغ السلطة الإنكليزية الذي وصف الشهداء في معركة (يعبد) بالأشقياء.

(٣) الخميس: الجيش الكبير.

(٤) يترون: بالتاء المثناة الفوقيّة، أي: يثأرون.

(٥) قوله: (يا شيخ عز الدين) الوجه في ضبط (شيخ) الضمُّ فقط، ولا يصحّ نصبه،=

عَلّمتنا كيف الذيادُ عن الحمى إنْ راعه باغٍ عليه وجار
خَلَصَتْ إلى الديّان رُوحُكَ حُرَّةً فحباك منه في الجنان جوارا
حُمّلتَ فيهم مثل أجرِ مُجاهدٍ وتحمّلوا في ظُلمكَ الأوزارا[1]

● وقال الشاعر صادق عرنوس[2]:

مَنْ شاءَ فليأخذ عن القسَّامِ أنموذجَ الجنديّ في الإسلامِ
تركَ الكلامَ وَرَصْفه لهُواته وبضاعةُ الضعفاءِ مَحضُ كلامِ
أوما ترى زُعماءَنا قد أتخموا الآذان قَوْلاً أيّما إتخامِ
تركوا العدوَّ يعيث في أوطانهم وتشاغلوا بتراشقٍ وترامِ
ياليت عزَّ الدين يُبْعَثُ بينهمْ ويكونَ فيهم درسُه إلزامي[3]

= لأن الإضافة تفسد المعنى، فلو أضفته إلى عزّ الدين، يصبح المنادى شيخ عزّ الدين، بمعنى أستاذ عز الدين، وأما عزّ الدين: فيجوز فيه الضم اتّباعاً للفظ المنادى، ويجوز فيه النصب اتّباعاً للمحل، أو على تقدير فعل محذوف (أعني) أو على تقدير حذف أداة نداء، ويجوز عند البصريين إبدال المعرفة من النكرة، كقوله تعالى: ﴿إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٥٢ صِرَٰطِ ٱللَّهِ﴾ [الشورى: ٥٢ـ٥٣].

(١) قوله: (تحملوا.. الأوزارا): يريد تحمّل الإنكليز الأوزار بسبب ظلمهم، وهو باطلٌ شرعاً لأن الإنكليز كافرون، وليس بعد الكفر ذنبٌ، فهم خالدون في جهنم ـ بكفرهم ـ ولم لو يقتلوا القسَّام.

(٢) نشرتها جريدة (الجامعة الإسلامية) في ١٥/ ١٢/ ١٩٣٥م.

(٣) الوجهُ أن يقول: ويكون درسُه إلزامياً، لأن (إلزامي) خبر يكون. وسهل ياء=

حتـى يبيّـن لهـم سبيـل قيـادةٍ خرجوا بها عن واجبِ الأحكامِ
ويـداوي الجـرح الـذي أضنـاهـمُ جُـرحَ الخمـول بمَـرْهَـمِ الإقـدامِ
مـا كنـتُ أعـرفُـه ولا أدري بـه حتـى تضـوَّع طيبُـه فـي الشـامِ
وكذلك النفسُ الكبيرة إنْ نَوَتْ عَمَـلاً أسَـرَّتْـه لحيـنِ تمـامِ

● الزجّال الشعبي نوح إبراهيم (١٩١٣ ـ ١٩٣٨م) ارتبط بالشيخ عزّ الدين القسّام وعصبته فأطلق عليه لقب (تلميذ القسَّام). وعندما استشهد القسَّام، رثاه بزجلية طويلة، لحّنها وغنّاها وسجّلها بصوته على أُسطوانة، رددتها فلسطين كلّها آنذاك، يقول فيها:

عـزّ الـديـن يـا خسـارتـكْ رُحـتْ فـدا لأُمْتَـكْ
ميـن بينكـرْ شهـامتـكْ يـا شهيـد فلسطيـنْ
عـزّ الـديـن يـا مـرحـومْ مـوتـكْ درس للعمـوم
آه لـو كنـت تـدوم يـا رئيـس المجـاهـديـنْ
ضحيـت بـروحـك ومـالـكْ لأجـل استقـلال بـلادك
العـدو لمـا جـالـك والعِـدا منَّـكْ هـابـتْ
فلسطيـنْ منيـنْ شـافـتْ مثْـل غيـرةْ عـزّ الـديـن
أسسـتْ عُصبـة للجهـاد حتـى تحـررْ البـلاد
غـايتهـا نصـر أو استشهـاد وجمعـتْ رجـال غيـوريـنْ

= (إلزامي) وحقها التشديد، لأنها ياء النسبة.

جمعـــتْ رجـــال مـــن المـــلاح	مِـنْ مـــالـــك شـريـــت اســـلاح
وقلــــــت هيّـــــا للكفـــــاح	لنصـــر الـــوطـــن والـــديـــن
جمعـــــت نُخبـــــة رجـــالْ	وكنــــــت مَعْقــــد الآمـــــال
لكــــن الغـــــدر يـــا خـــال	لعـــــب دَوره بـــــالتمكيـــــن
لعبـــتْ الخيـــانـــــه لُعبـــــه	وقـــامـــــت وقعـــتْ النكبـــــه
وســــال الـــدم للـــــركبـــــه	ومـــا كنـــت تسلّـــمْ وتْليـــن
كنـــــت تصيـــــح الله أكبـــرْ	كـــــالأســـــد الغضنفـــــر
لكـــــن حُكْـــــم المقـــــدّرْ	مشيئـــــة ربّ العـــالميـــــن
مَحْلـــــى المـــــوت والجهـــــادْ	ولا عيشـــــــة الاستعبـــــادْ
جـــاوبـــوا رجـــالَ الأمجـــادْ:	نمـــــوت وتحيـــا فلسطيـــنْ
الجســـم مـــات والمبـــدأ حـــيّ	والـــدّمـــا مـــا تصيـــر مـــيْ
معـــــاهـــــد الله يـــــا خـــــي	نمـــوت مـــوتـــة عـــزّ الـــديـــنْ
اقـــرؤوا الفـــاتحـــة يـــا إخـــوانْ	علـــــروح شهـــــدا الأوطـــــان
وسجـــلْ عنـــدك يـــا زمـــانْ	كـــلّ واحـــد منّـــا عـــزّ الـــديـــن

ب ـ وبعد مرحلة الرثاء، جاءَت مرحلة القدوة والمثل، والأنموذج، فقد آمن الملخصون أنّ طريق القسَّام هي الطريق الوحيدة للتحرير. فأخذ الشعراء والأدباء يدعون الشباب إلى الاقتداء بالقسَّام في جميع العقود التي تلت الاستشهاد حتى يومنا. وهذا أمثلة مما سجّله الشعر:

١ ـ الشاعر الشهيد عبد الرحيم محمود[1]: يقول من قصيدة بتاريخ ٢/ ١١/ ١٩٤٦م:

حفـي اللسـانُ وجفّت الأقـلامُ   والحـالُ حـالٌ والكـلامُ كـلامُ
إنـي رأيـتُ الحـقَّ فَصْلُ خطابه   يتلـوه فينـا الفيصـلُ الصمصـامُ
اصهـرْ بنـارك غُـلَّ عُنْقـك ينصهـرْ   وعلـى الجمـاجم تُـركـزُ الأعـلامُ
وأقم على الأشلاء صَرْحَك إنّما   مـن فـوقهـا تُبنـى العُـلا وتُقـامُ
وخذ الحقوق إليك لا تَسْتجدِها   إن الأُولـى سلبـوا الحقـوق لئـامُ
هـذي طـريقـكَ للحيـاةِ فـلا تَـزغْ   قـد سـارهـا مـن قَبْلـك (القسّـام)
ذاك الـذي هجـر الكـلام لفَتْكَـةٍ   بِكْـرٍ وهـلْ فَـكَّ القيـودَ كـلامُ

٢ ـ وقال الشاعر حسن الباش سنة ١٩٩٢م، في ندوة عُقِدت في

---

(١) عبد الرحيم محمود (١٩١٣ ـ ١٩٤٨م) شاعر مجاهد من قرية (عنبتة) بقضاء طولكرم، استُشهد في معركة الشجرة بمنطقة الناصرة، وكان ضابطاً في جيش الإنقاذ.. تنبأ بضياع القدس منذ ١٩٣٥ عندما خاطب الأمير سعود بن عبد العزيز يوم زار فلسطين سنة ١٩٣٥م، فقال: من قصيدة:

يـا ذا الأميـرُ أمـام عينـك شـاعـرٌ
ضمّـتْ علـى الشكـوى المـريـرةِ أضْلُعُـهْ
المسجـدُ الأقصـى أجئـتَ تـزوره
أم جئـتَ مـن قَبْـل الضيـاعِ تـودّعُـه
وغـداً ومـا أدنـاه لا يبقـى سـوى
دمـعٍ لنـا يهمـي وخـدٌّ نقـرّعـه

جَبلة، مسقط رأس القسَّام:

بيْنـي وبينـكْ أسـرارٌ وشطـآنُ	حَيْفـا وجَبْلـة والقسَّـامُ إخـوانُ
بيني وبينك عـزٌّ جئت مـولـدَه	مـن كـرمـلٍ مَجْـدُه قبـرٌ وإنسـانُ
حَيْفا التي ما رَوَتْ حاراتُها قِصصاً	إلا وكـان لـه مـن مجـدهـا شـانُ
يا أُمتي في رُبا الإسراءِ ملحمةٌ	فرسـانها في صدى القسّـام ألحانُ
ذاك الذي سطر التاريخ من دمه	وصـاغ مِنبَـرَهُ عَقْـلٌ وإيمـانُ

وقال الشاعر عبد الكريم الكرمي (أبو سلمى) من قصيدة:

إيـه رجـالَ العُـرْب لا	كُنْتـم رجـالاً فـي الـوجـودِ
هـل تشهـدون محـاكـم التفتيـ	ـشِ فـي العصـر الجـديـدِ
قـومـوا اسمعـوا مـن كـلِّ نـا	حيـةٍ يصيـح دمُ الشهيـدِ
قـومـوا انظـروا القسَّـام يُشْـ	ـرقُ نـورهُ فـوق الصـرودِ
يُـوحـي إلـى الـدنيـا ومَـنْ	فيهـا بـأسـرار الخلـودِ

جـ ـ أما النَّثرُ الأدبي، فقد ضمَّ ديوانُ الأدب منه خير ما يُكتب في رجل، وأجتزئ منه بالكلمة التي ألقتْها ميمنة بنت عزّ الدين القسَّام في المؤتمر النسائي الذي عُقد في القاهرة سنة ١٩٣٨م. . وجاء فيها:

«هل تَسْمَحن أنْ تتكلَّم عربيةٌ يا سيداتي، أبوها شيخٌ جليلٌ، عالمٌ من علماء الدين، له أنصارٌ وتلاميذ، ألَّف منهم عُصبةً كريمةً مجاهدةً، ومضى بهم إلى أحراش (يعبد) وروابي (جنين)، وهنالك وقف في وجه

جيشٍ من الظالمين، وهتف بإخوانه: الله أكبر، الله أكبر، ثباتاً ثباتاً، موتوا في سبيل فلسطين، وما هي إلاَّ ساعة، حتى كان أبي وملاذي الشيخ عزُّ الدين القسَّام، صريعَ الظُّلمِ والعُدوان، يخضب دمُه عمامَته البيضاء، ويسقي شجرة الاستقلال في ثرى فلسطين. وقال التاريخ: عزُّ الدين أوَّل شهيد في الثورة، دقَّ باب الحريّة، بيده المخضّبة بالدماء[1]، فكان في استشهاده أُستاذاً في الفداء، أما طلابُه ومريدوه، فمنهم مَنْ قضى نحبه، ومنهم من ينتظر، وما بدّلوا تبديلاً!

نعمْ، منهم مَن خاض الغمرات، وغشيَ المعامع، واستبسلَ في الوقائع، وهو لايزالُ في الجبال والوهاد، في المغاور والكهوف، لم يُلقِ سلاحه، ولم يستسلم حتى تنجو فلسطين من كيد الكائدين.

أما أنا فلستُ أقول سوى: الحمدُ لله ثم الحمدُ لله الذي شرَّفني باستشهاد أبي، وأعزَّني بموته، ولم يُذلّني بهوانِ وطني واستسلامِ أمتي...».

١٤ ـ حلْية[2] الشيخ محمد عزّ الدين القسَّام:

---

(١) لعلّها اقتبست هذا التعبير من قول أحمد شوقي:

وللحـــريـــة الحمـــراءِ بـــابٌ
بكـــلِّ يـــدٍ مُضـــرَّجـــةٍ يُـــدَقُّ

(٢) الحِلْية: بكسر الحاء المهملة: الخِلْقة. والحلية: الصفة والصورة. والتحلية: الوصف. وتحلاّه: عرف صفته. والحليـة: تحليتك وجه الرجل إذا وصفته=

كان أبو محمد عزّ الدين القسّام أَمْيَل إلى القصر منه إلى الطول، وأقرب إلى النحافة، أسمر اللون، أسود العينين، كثّ اللحيةِ، طلق المحيّا، مهيبَ الطلعة، وقوراً، سديد الرأي، صادق الفراسة، ثبت الجنان، شجاعاً، حاضر البديهة، سريع الخاطر، محدِّثاً لبقاً، واثقاً من نفسه، مستبشراً دائماً، ومتفائلاً إيماناً منه بالله وبقضائه وقدره.

وكان رحيماً بالناس، متواضعاً، وراضياً باليسير من المأكل.

وكان صادقاً، إذا قال فعل، دؤوباً على العمل، شديد التحمل للمشاق، مرّت سنوات من حياته في حيفا، وعمله يبدأ من الفجر، ولا ينتهي إلا في الساعات الأخيرة من الليل. يبدأ بعد صلاة الفجر بتعليم الأميين من العمال والكادحين، وإعدادهم للجهاد في مدرسة (البرج الإسلامية) أو في جامع الاستقلال.

ويصرف وقته منذ الضحى حتى صلاة الظهر في الاتصال الحيّ بالناس، والعمال في مواقع عملهم، ومواطن جلوسهم. ويعود ظهراً إلى بيته، ومعه غالباً بعض المجندين لمحاورتهم، ويمضي مُدّة ما بعد العصر في تقديم الدروس الجهادية، ويقوم بتدريب الحلقات على استعمال السلاح في جبل الكرمل.

= والحلية تكون منظورة، ومعنوية، تشمل الشكل والخلق والأدب.
وقد آثرت لفظ (الحلية) لأنه المستعمل في كُتب الأولين.

وكان أبيَّ النفس، يعيش من عمل يده. . وقد روينا من قَبْلُ قصته مع رفيقه التنوخي في مصر، عندما نفد ما عندهما من النفقة، فأخذ القسَّام يصنع كلَّ يوم (صدر هريسة)، ويتعاون مع التنوخي على بيعها، ليوفِّرا من ربحها حاجتهما من المال.

وكان عزّ الدين القسَّام عالماً بالشريعة، ومصلحاً اجتماعياً، قويَّ الإيمان بالله. عظيمَ الاعتماد على هذه القوة، منذ مطلع حياته العملية، ومنذ حمل رسالة التوجيه. ففي سنة ١٩١٩م جاءَت إلى اللاذقية لجنة من الأمريكيين لاستفتاء الناس في شأن مصيرهم، واختيار دولة تكون وصية عليهم فشخصَ وَفْدٌ من جبلة لمقابلتها، وكان الشيخ من أعضائه. وعندما سئل عن رأيه جهر بالقول: لا وصايةَ ولا حماية، فقال رئيس اللجنة: نعتقد أنكم لا تستطيعون إدارة أنفسكم، وحماية بلادكم، فردَّ الشيخ قائلاً:

«إننا نستطيع، وليس غيرنا أقدر منا على ذلك، ولدينا قوة لا يملكها سوانا».

وأخرج المصحف من جيبه وقال: هذه قوتنا.

وكان ذا غيرة على الدين ونقائه، وسيفاً مصلتاً على أعدائه، فحارب البهائيين الذين انحدروا إلى حيفا من إيران، والقاديانيين الذين قدموا من الهند، وفضح زيف معتقداتهم التي ترمي إلى إفساد عقيدة العامّة من المسلمين، وتوجيههم لخدمة الإنكليز واليهود.

وكان يدعو إلى الإجماع الوطني، والتعاون بين العرب على اختلاف مذاهبهم، ويعدّ الخروج على هذا الإجماع خيانةً للأمة.

وكان القسَّام واسعَ الأفق في فهم جوهر الدين وحقائقه، ومفهوماته الإنسانية والحضارية، ومدركاً وظيفة الدين ورجاله على مسرح الحياة العامة. فالدينُ عندَه عقيدةٌ ونظامٌ، يؤلِّفان وحدةً تهدف إلى تحقيق مصلحةِ الأمةِ ومنافعها، وإصلاح حالها، وتقرير الأمن والطمأنينة فيها، وتوفير عزّتها وسعادتها. وكان يؤمنُ أنَّ في أحكام الشريعة من اليُسر والسَّعة ما يتيح الاستجابة لحاجات المجتمع ومطالبه، في جميع الأمكنة والأزمنة والظروف.

وانطلاقاً من هذا الإدراك لم يخصص دروسه وخطبه على تفقيه الجمهور بالعبادات فقط، بل تعدّاها إلى شؤون الحياة بعامّةٍ، وإلى القضايا الوطنية بخاصّةٍ.

١٥ ـ المُثُل التربويّة في سيرة عزّ الدين القسَّام:

كان عزّ الدين القسَّام أمةً وحده في وقته: يُعطي ما لا يستطيع الآخرون، ويقصده الناسُ لأخذِ ما لا يجدونه عند الآخرين.

وجمع اللهُ في شخص عزّ الدين مواهبَ شتّى: فكان معلّماً مؤثّراً، وعسكريّاً مُدرّباً، واقتصادياً مُدبّراً، وسياسياً محنّكاً، وأثبت الإحصاءُ أنّ هذه القُدرات المتفوقة كان لها تطبيق في أرض الواقع، وكان القائم بها

وحده في بدايـة الدعوة، فلم يُعرَفُ مِنْ أصحابِ القسَّـام - في بدايـة الطريق، أو في وسطها، مَن تخرَّجوا في المعاهد العليا أو الجامعات، وكان جُلُّ أتباعه من العمّال، والفلاّحين، والباعة الجوّالين، أزال عن أكثرهم الأمّية بجهده، وثقّفهم في المسجد وفي البيت، والحفلات العامّة، وجعلهم رجالاً أكْفاء للمهمّات الجهادية.

● بدأ عزّ الدين بما بدأ به القرآن الكريم يوم نزل على محمد ﷺ لتربية أمَّة مجاهدة:

﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴾ [العلق: ١ - ٤]، فهناك قراءة، ومادّة مقروءة، وكتـابة تُعَلَّم بالقلم.

وهذا يعني أنَّ المهمـة التي تنتظر المسـلمين تحتـاج إلى رجال جمعوا ثلاثة عناصر: الإيمان، والعلم، والعمل.. والإيمان أولاً، والعلمُ ثانياً، والعمل ثالثاً.

وبهذا رتّب البخاري (صحيحه)، فبدأ بكتاب (بدء الوحي) لأنّ الوحي مصدر التشريع والتوجيه، ثم كتاب (الإيمان) وهو يعني الإيمان بالوحي المنزل من عند الله. ثم كتاب (العلم) وهو العلم بما أنزل الله، أو بما أوحى الله إلى رسوله محمد ﷺ.

ثم جاءت كُتبُ العبادات: (الصلاة والزكاة، والحج والصوم،

لأنّ التزام المسلم بها دليلٌ على إيمانه بالله والرسول ﷺ، ثم جاءَت كتب (المعاملات) لأنها تؤدي إلى إقامة الروابط الاجتماعية المتينة. . ثم جاء كتاب (الجهاد).

فالمجتمع الجاهلُ، الذي لا يؤمن، ولا يؤدّي حقّ الإيمان عليه، لا ينتصر في المعركة. . ولهذا بدأ القسَّام بغرس الإيمان في قلوب الناس، واعتنى بالتعليم، فاشتغل بالتعليم في المسجد والمدرسة، وبذل لهذا العلم جُلّ وقته، ووجَّه رعايته لجميع طبقات المجتمع؛ الأطفال، والشباب، والكهول.

فالأطفال ينتظمون في المدارس الصباحية، والكبار ينتظمون في المدارس المسائية، والمدارس المبكرة قبل الانطلاق إلى العمل.

فربط القسَّام بين التعلم والعمل والإنتاج؛ لأن أكثر تلاميذه من العُمّال، والحِرفيين، فراعى الظروف الواقعية لتنفيذ منهجه التربوي. والتعلّم ليس (قراءة وكتابة) فقط، وإنما يشمل التوجيه والإرشاد، واكتشاف عناصر القوة، واستغلالها فيما ينفع الناس.

والتعليم: رعاية دائمة في المنزل والسوق ومكان العمل، ومواساة التلاميذ وإعانته، ومساعدة الشباب على تأمين المَهْر للزوجة الصالحة، وبثّ الأمل والثقة في نفوس الأنصار.

بهذا المنهج المستمدّ من السيرة النبوية حوّل الفقراء المُعدمين إلى

أغنياء، وبنى مكان الأخصاص والأكواخ قصوراً شامخة، وربّى رجالاً قادةً أوفياء.

قال جمال الحسيني - رئيس الحزب العربي الفلسطيني - يوم تأبين القسَّام:

«ثم نخرج يا سادتي نتلمّسُ أين نبتَ نورُ الإيمان، وفي أية بيئة ترعرع، ومن أي ماءٍ رُوي. فنمشي إلى بيت الشيخ يوسف الزيباوي - أحد شهداء معركة (يعبد) - في قطعةٍ واطئةٍ بطرف هذه المدينة - حيفا - قد غرق بالوحل، وتكدّست فيه بيوت بل أخصاص من (التنك) المخرّق الذي تلعبُ فيه الرياح، فلا هي بالبيوت تقي صاحَبها عوادي الطبيعة، ولا هي بالأخصاص تقيهم عاديات الناس.. وأنت فيها في دفع جيوش الذباب مشغولٌ في نفسِك عن التفكير في الإخلاص والإيمان الذي يتوق لك أن تفكِّر فيه من مكان هادئ وسكون شامل.

من هذه الأخصاص، من هذه الوحول، من هذا الفقر المدقع، من هذا البؤس خرج نور الإيمان، وأضاءَ نورُ الصدق والإخلاص بقبس منه تجلّى في نفس الشيخ يوسف الزيباوي.

عند هذا وقفنا مدهوشين، بل مشدوهين، فصحنا: سبحانك ربّنا، تعطي وتمسك، تهبُ هؤلاءِ كلَّ الإيمان، وتحرمنا من بعضه..

هذا ما كان عليه القسَّامُ وصحبه، وهذا ما خرجوا من أجله،

خرجوا يصيحون بنا: الإيمان نورٌ، والتضحيةُ لذَّةٌ، فمَنْ آمن وعمل نجا، ومَن لم يؤمن قعد وهلك، فهل لنا أن نتزوَّد من هذا الإيمان، ونتقدّم إلى هذه التضحية، فنعمل وننجو»

هذا المنهج الذي سلكه القسَّامُ كان الأَوْلى بالبداية، ولا بديل له، بل تفرضه أحوال المجتمع الفلسطيني في ظلّ الانتداب الإنكليزي.

قال إبراهيم الشنطي ـ رئيس تحرير جريدة (الدفاع) اليافيّة في يوم تأبين القسّام ٥/ ١/ ١٩٣٦م:

«وسطا الإنكليز على رجولتنا، فرموا البلاد بنظام تعليمي يحرم فتيانها تربية الجيش والعسكرية، فنشأ مَن نشأ من أبنائكم أجساماً بلا أرواح. يا ذُلَّ الوطن عندما يموت الجيل الذي خاض حروب اليمن، وشناق قلعة، وقناة السويس»[1].

● وفي الحقل الاقتصادي رأى القسَّامُ الاعتماد على الموارد الذاتية للإنفاق على الحركة الجهادية، فالأفراد المؤمنون بمبدأ الجهاد، يشترون السلاح لأنفسهم، ومَنْ كان قادراً على شراء بندقيتين، يعطي واحدة لأخيه العاجز عن شراء السلاح.. ولا تستعين العصبةُ بمَنْ لا ينضوي تحت لوائها.. فسرّيّة التنظيم توجبُ ألاّ يطلب معونةً ممَّن

---

(١) يريد الذين كانوا جنوداً في الجيش العثماني (وشناق قلعة) أصلها قلعة شناق في تركية. وحرب قناة السويس في بداية الحرب الأولى بين الأتراك والإنكليز.

لا يؤمنُ بالجهاد عقيدةً وعملاً.

وثبات العُصبة على الأسلوب المقتبس من السيرة النبوية يمنعُ أخْذ العونِ المالي من زعيمٍ أو حزبٍ أو دولةٍ لها مأرب تخالف مأرب العصبة.. هناك جهاتٌ كثيرةٌ تكرهُ الإنكليز، وتريد خلعهم عن فلسطين، ولكن غاياتهم ليستْ غايات العُصبة القسّامية، وهؤلاء تتبدّل أهواؤهم، وتكونُ مقايضة، يضحّي فيها الحليف بحليفه، وتقع الكارثة.

فالمعونات الماليّة ممَّن لا يوافقكَ، ولا يرافقك إلى آخر الطريق؛ تسلب الإرادة، وتقيّد حركة التنظيم، وتحولُ دون نموّه، وقد يتوجّه العمل حيث يُشيرُ مصدرُ المال، وقد يوظّفه المموِّلُ في خدمة مصالحه ومنافعه.

ولذلك حصر القسَّامُ موارد العُصبة في تبرعات الأعضاء، وفي التبرعات التي يجودُ بها أهل الخير.. ومن إقامة بعض المشروعات الزراعية، فقد أشار القسَّام على أفراد العصبة بالاتجاه للزراعة، باستئجار الأراضي وزراعتها، أو بطريق المزارعة.. فكانت للعصبة أراضٍ في أشرفية بيسان، يشرف عليها الشيخ محمد الحنفي. ويروي الحنفي أنَّ القسَّام أخذ منه خمسمئة جنيه فلسطيني لشراء السلاح، نصفها من مورد المزرعة، ونصفها الثاني من صندوق الجمعية.

وقد أثبتتْ التجارب التالية في حركة النضال الفلسطيني صحة نظرية القسَّام.. فإنَّ المنظَّمات والفصائل الفلسطينية التي تأسست بعد

سنة ١٩٣٩م ـ أي بعد غياب العصبة القسَّاميَّة ـ كانت تعتمدُ على التمويل الخارجي، وأقصد بالخارجي البُعد عن التمويل الذاتي، ولذلك فإننا نجدها تضعف وتقوى، بمقدار ما يأتيها من تمويل، وبمقدار ما تنفّذ من التوجيهات التي تحرّكها من خارج ذاتها. وكم من منظّمة ظهرت ثم ماتت دون أن تؤدي عملاً . . بل إنَّ تعدّد هذه المنظّمات دليل على تعدّد انتماءاتها الخارجية، مع أنَّ القضية واحدة والهدف واحد، والأسلوب يجب أن يكون واحداً، لأن المعارك الفاصلة لا تحتمل تعدّد الأساليب والخطط؟ ولذلك كانت النهاية خاسرة، مع أنّ هذه المنظمات، جمعت من الأموال ما يؤسسُ جيشاً كبيراً مسلّحاً قادراً على إزالة إسرائيل، والموازنة بين أثر عصبة القسَّام الفقيرة مالياً، وبين أثر المنظمات الكثيرة الثريّة التي تأسّست فيما بَعْدُ، هي موازنة بين العدم والوجود. ففي الثورة الكبرى ١٩٣٦ ـ ١٩٣٩م استطاعت العصبة القسّامية أن تحرّك ثورة وتديرها، وتحتل قرى ومدناً ومناطق واسعة من فلسطين، وتقتل عشراتٌ من الإنكليز واليهود.

ومن سنة ١٩٤٨م حتى سنة ١٩٩٥م، لم تستطع المنظّمات الفلسطينية ـ ومنها منظمة التحرير ـ أن تتقدّم شبراً واحداً، وقُتل برصاص هذه المنظمات عشراتٌ من الفلسطينيين بسبب الخلافات بين القادة، وفي زمنهم فقدنا فلسطين كلّها، وتمّ الاعتراف رسميّاً بملكية اليهود لفلسطين التي احتلّوها سنة ١٩٤٨م. . فماذا نفعت الأموال وأكداس السلاح التي اشتروها.

١٦ ـ عزّ الدين القسَّام، البطل القوميّ:

قال جمال الحسيني في يوم تأبين القسَّام:

«القسّام.. القسّام.. اسمٌ سوف يبقى في فلسطين يتردّد في أجوائها، فيوقع الرُّعب في قلوب الذين يسيطرون عليها بحرابهم، ويتلى في صفحات تاريخها الخالدة، فيملأ نفس القارئ إكباراً وإعجاباً».

وقال الشيخ سليمان التاجي الفاروقي، صاحب جريدة (الجامعة الإسلامية):

«وعسى الأمَّةُ العربيةُ في فلسطين أن تخلّد ذكرى هذا البطل ـ عزّ الدين القسَّام ـ ورفاقه الميامين، بالاستكثار من التسمّي بأسمائهم والتوفّر على دَرْس سيرتهم».

وأرسل جميل مردم بك ـ الأمين العام لمكتب الكتلة الوطنية في دمشق ـ إلى الجمعية الإسلامية في حيفا، كلمة لتُتلى في يوم تأبين القسّام، جاء فيها:

«إن المصاب بالقسّام وإخوانه الأبرار، لمُصابُ العروبة في شتّى أقطارها وأمصارها، فلأرواحهم الطاهرة جنّةٌ عرضها السماوات والأرض إن شاء الله، وللعروبة جميلُ الصبر، أمّا العزاءُ، فيومه يوم تحقيق الآمال، وبلوغ ذُرى الاستقلال.

أيها العربُ: لقد عرف القسَّامُ وإخوانه طريق العمل المثمر، وهو التضحية، فلتكن التضحيةُ شعارنا جميعاً».

ومن كلمة أرسلها الدكتور توفيق الشيشكلي نيابةً عن مدينة حماة: «إنّ شهيدنا البارّ، الأستاذ المجاهد عزّ الدين القسّام أحيا بعمله عهداً مطويّاً سبقه إليه السلفُ الصالح، وتقاعس الأخلافُ عن السير على سنّته، فاستُعمِرَتْ بلادهم، وأصبحوا أذلاّء في ديارهم، ولولا تفرُّقُ الكلمة، وكثرة الأحزاب، وتخاذل القوم وتحاسدهم، لكُتب للقسّام الظفر، كما كُتبتْ السلامة لصاحب الغار عليه الصلاة والسلام... والنصر حليف العرب مادامت كلمتهم متّحدة وماداموا جادّين في جهادهم، مقتفين أثر الشهيد القسَّام، وصحبه الكرام، الذين خلَّدوا في عصرنا الحاضر خير أمثولة يُتحدَّث بها بين الأنام.

وقال أكرم زعيتر: «فليس من سبيل إلى الخلاص، إلا الجهاد الدامي، وقد فتح فقيدنا القسَّامُ البابَ فلنلجْه، وإنَّا لفاعلون».

هذه الكلمات التي نقلتها، لم يكتبها أفرادٌ من (حزب) القسَّام، لأنه لم يدعُ إلى حزبٍ سياسيٍّ يقوم على النفاق.. ولم يكتبها واحدٌ من قبيلة القسّام، لأن القسَّام لم تكن له عصبية جاهلية، فقد كان ينتمي إلى الإسلام ولسان حاله يقول:

أبي الإسلام لا أبَ لي سواه ... إذا افتخروا بقيس أو تميم

ولم يدبج هذه الكلمات واحدٌ من عُصبة القسَّام، لأن أصحابه لم يكونوا من أهل صناعة الكلام، وإنما كانوا مجاهدين.

لقد كتب هذه الكلمات رجالٌ كانوا يرسمون في مخيّلتهم صورة بطل، يرجون وجوده بينهم، ليكون قائدهم وقدوتهم، ثم بدا لهم أنّ هذا البطل كان موجوداً بينهم في شخص عزّ الدين القسَّام، يقود عُصبةً من المؤمنين المجاهدين.. فقالوا: إنّ الأمرَ لم يكن خيالاً، وإنَّ في الأمّة مَنْ يعجز الخيال عن رسم صورته.. عندئذٍ تداعى الناسُ إلى التمسّك بالمُثُل العليا التي ضربها القسّامُ للناس، وأصبح القسّامُ البطل المرتجى للخلاص، وانتظم في سلك القادة الذين ينادَوْن في الملمّات، أو ينادَى أمثالهم.. فكما ضرب المَثَلُ بصلاح الدين، ونودي أنموذجه بعد وفاته، كذلك ضُرب المثل بعزّ الدين القسّام.. يقول الشاعر محمود حامد في هذا المعنى:

هُزّي تُرابَ المجدِ علَّ الصدى يثبُ الترابُ ويرجعُ (القسَّامُ)

وقال الأستاذ حسن الباش:

إيهٍ فلسطينُ مَنْ للنارِ يضرمها حين استلذّت على الأحلامِ أجفانُ
مَن للجبالِ يسوّي صخرها طرقاً مَنْ للرصاص ومَنْ تغريه نيرانُ
مَن للكُلوم سوى (القسّام) يا بلدي مَن لي إذا اغتُصِبَتْ بالغدر شطآنُ
قُمْ يا معلمُ فاشهد لم يمت شجرٌ في يَعْبُدَ النارِ لم تنهدّ أركانُ

لولا شبابُك حَوْل القدس ما بقيتْ   لأمّة العُرْبِ في الميزانِ أوزانُ[1]

وفي ترجمة العلاّمة المحقق الدكتور إحسان عبّاس، أنه ولد سنة ١٩٢٠م في قرية (عين غزال) ودخل حيفا لإكمال تعلمه في التاسعة من عمره (١٩٢٩م)، فكانت (حيفا) في ذلك الوقت، لوجود القسّام فيها: «مدينة النضال الديني والسياسي السليمين، غير الملطّخين بشوائب الشعوذة والكذب والنفاق. . وتعرف إحسان عباس في حيفا ـ وكان في بداية الطلب ـ على عزّ الدين القسَّام أثناء خطب الجمعة في جامع الاستقلال. . فعرفه بطلاً قوميّاً ومناضلاً ثابت الجأش، لا تخيفه قواتُ العدوّ، ولا ترعبه جحافلهم. . وعندما سقط القسّام شهيداً: أصبح الشعب الفلسطيني ـ وإحسان عباس منه ـ يرى كلَّ بطلٍ عظيمٍ صورة من عزّ الدين القسَّام.

هذا الأثر الذي أحدثه عزّ الدين في المجتمع الفلسطيني، منذ دخل فلسطين سنة ١٩٢١م، وبَعْد استشهاده، لم يستطع زعيمٌ أو قائد أن يُحدثه. . مع تسخير الكثير من وسائل الإعلام لخدمة قواد وزعماء جاؤوا بعد القسَّام، ولم يتفق النـاسُ على بطلٍ قومي أو إقليمي، كما اتّفقوا على بطولة القسّام، وكلُّ الزعماء الذين جاؤوا بعد القسّام، ذُكرتْ لهم محاسن، وذُكرت لهم مساوئ، ومدحهم قومٌ، وطعن فيهم

---

(١) إشارة إلى أبطال الحجارة من أشبال فلسطين. (الناشر)

آخرون. . أما عـزّ الدين القسَّـام فلم يسـتطع أحدٌ أن يطعنَ في نـزاهته وإخلاصه وصدْق جهاده وشجاعته. فاستحقّ أن يكون (البطل القومي) الوحيد في تاريخ القضية الفلسطينية، لأنّ من أول شروط (البطل القومي) أن يكون شُجاعاً مُجرَّباً في الحروب، لا يهاب الموت، ولا يفرُّ من عدوّ مهما عَظُم.

وهذه الأوصاف لا تنطبق إلاَّ على عزّ الدين القسَّام وعصبته، وكلُّ مَنْ وُصِفَ بـأنه قائد أو زعيم أو (رمـز) أو (منـاضل) أو (وطنـي) في فلسطين. . . بعد عزّ الدين القسَّام، ليس له من هذا الوصف مقدار قُلامة ظفر. . ففي الثورة الكبرى (١٩٣٦ ـ ١٩٣٩م) التي حرّكها وقادها إخوان القسّام. . وأجبر بعضُ الزعماء على تأييدها باللسان، لم يستشهد منها إلا رجالُ القسَّام، ومَنْ نهج نهجهم[1]. . وأما الزعماء الكلاميّون فقد فرّوا جميعاً من الميدان، وما جاءت نهاية سنة ١٩٣٩م حتى كان جلُّ الزعماء يسـكنون دمشق وبغداد والقاهرة. . وتركـوا الشـعب يصارع الإنكليز واليهود. . ولعلّ أشهر هؤلاء الزعماء، الحاج أمين الحسيني الذي فرَّ إلى لبنـان، ومنها انتقل إلى بغداد، وعدُّ بعضُ الكتّاب نجاة (المفتي) أو هروبه أكبرَ نصرٍ للقضية.

وفـي مـرحلـة مـا بَعْـدَ الهجـرة والنكبـة (١٩٤٨م) شُهـرَ أحمـد

(١) كالشهيد البطل عبد القادر الحسيني. (الناشر)

الشقيري، بوصفه رئيساً لمنظمة التحرير الفلسطينية، ولم يُعرف أنّه حمل السلاح يوماً.

ثم انتقلت الزعامة إلى قُوّاد ما يُسمّى (المنظّمات الفدائية) فكانوا يقودون النضال من بعيدٍ، ولم يُعرف أنّ واحداً منهم دخل فلسطين للهجوم على الأعداء المحتلّين.. ولم يُعرف أنّ زعيماً منهم باع بيته، أو باع أساور زوجته؛ ليشتري به السلاح، ولكنّهم كانوا يملكون في كل بلد بيتاً.. وفي كل مصرف رصيداً.. وكلّها من الأموال التي كانت تُجمَعُ لإعانة الأيتام والأرامل وأبناء الشهداء.

وعندما قُتِل أحد القوّاد كان أبناؤه يتعلّمون في الجامعات الأمريكية من أموال الأيتام، ووضعتْ زوجة أحدِهم مولودَها البكر في (باريس).. ومات مَنْ مات منهم، وقُتِلَ مَن قُتل، في بيته أو على فراشه.

فأين هؤلاء من عزّ الدين القسّام، وعصبة عزّ الدين القسَّام!!

١٧ ـ في أشرفِ الفردوسِ عزُّ الدين:

وهذه أبيات نُقشَت على شاهدة قبره تؤرِّخ لوفاته سنة ١٣٥٤هـ[١]:

---

(١) أخذنا تأريخ الوفاة من حسابِ مجموعُ حروف قوله: في حساب الجُمل: «قُلْ في أشرف الفردوسِ عزُّ الدين»، وتفصيلها كالأتي: =

هـذا الشهيـدُ العـالـمُ المِفْضـالُ مَنْ كان في الإرشادِ خيرُ معينِ
هــو شيخُنــا القسَّــامُ أولُ رافــعٍ عَلَـمَ الجهـادِ بنـا لنَصْـر الـدِّيـنِ
كـانـت شهـادتُـه بـوقعـة (يعبـدٍ) فــي شهـر شعبـانٍ بحُسْــن يقيـنِ
ولئن تصف مَثْواه في التاريخ قل: في أشرفِ الفردوسِ عِزُّ الدينِ

● ● ●

= ق ل ف ي أ ش ر ف ا لـ ف ر د
١٠٠+٣٠+ ٨٠+ ١٠+ ١+ ٣٠٠+ ٢٠٠+ ٨٠+ ١+ ٣٠+ ٨٠+ ٢٠٠+ ٤+
و س ع ز ا لـ د ي ن
٦+ ٦٠+ ٧٠+ ٧+ ١+ ٣٠+ ٤+ ١٠+ ٥٠= ١٣٥٤هـ.
هذا، وقد ولد القسام سنة ١٣٠٠هـ فتكون سنّه يوم استشهد أربعةً وخمسين عاماً هجرية، واثنين وخمسين عاماً ميلادية، للفرق بين السنة القمرية والسنة الشمسية.

ملحق الكتاب

عريضة من وجهاء حيفا للمندوب السامي تطالب بتعيين الحاج أمين مفتيا للقدس

الجمعية الاسلامية

بحيفا

١٣٢٧

بجانب فخامة المندوب السامي المعظم

نحن الموقعين ندلّه مسوّغ انتخاب وتعيين حضرة العالم الفاضل السيد محمد امين الحسيني مفتيا للقدس الشريف لما نعرفه بفضيلته من الأهلية والكفاءة تحريرا

صورة عريضة من وجهاء حيفا للمندوب السامي

تطالب بتعيين الحاج أمين مفتياً للقدس

ورقة الضبط

المحكمة الشرعية في حيفا

س- ما هي موانع النكاح

س- ما الفرق بين النكاح الفاسد والباطل

س- ما الحكمة من جعل الطلاق بيد الزوج لا بيد الزوجة

س- ما حكمة التنوع في الصداق وما حكمة اشتراط الولي في النكاح

ج- [illegible]

ج- [illegible]

ج- [illegible]

ج- [illegible]

صورة ورقة الإجابة التي تقدم بها الشيخ عز الدين القسام لامتحان المحكمة الشرعية في حيفا الخاص بالمتقدمين بوظيفة (مأذون أنكحة)، وهي بخط يده

النقد والبيان

في دفع اوهام خزيران

تأليف

محمد كامل القصاب و محمد عز الدين القسام

نزيلي مدينة حيفا

طبعت على نفقة مؤلفيها

الطبعة الاولى

١٣٤٤ هـ مطبعة الترقي بدمشق ١٩٢٥ م

صورة لغلاف كتاب (النقد والبيان) الذي ألّفه (القصّاب والقسّام)

بيان المجاهدين
الى الأمة العربية الكريمة

قد بلغ المجاهدين في فلسطين ان بعض الاشرار قاموا باقتحام بعض المنازل في القرى العربية ولمدوا لفريق من المارة العرب او بعثوا بكتب التهديد بقصد النهب وسلب الاموال، وانهم فعلوا ذلك باسم المجاهدين وتحت ستار الجهاد المقدس.

ان المجاهدين قد باعوا انفسهم لله، وخرجوا في طاعته لم يخرجوا الا ابتغاء وجهه، والجهاد في سبيله والفوز بمثوبته واكتساب مرضاته لا يرضون بذلك بديلا ولا يبغون عنها حولا، صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا، وهم يتسابقون الى ميدان الجهاد والشهادة انتصاراً للحق واقامة العدل ودفاعا عن امتهم الكريمة وبلادهم المقدسة قد فارقوا في سبيل ذلك اهلهم وتركوا اموالهم وعطلوا مصالحهم

ومن كان هذا حالهم، وكان كل مبتغاهم ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة من الله لا من سواه، حاشا لله ان يفسدوا في الارض ويسلبوا اموال اخوانهم، فيبطلون بذلك اعمالهم ويخرجون من زمرة المجاهدين الابرار الى زمرة السفلة الاشرار.

ولذلك فان المجاهدين يعلنون بان هؤلاء السلابين ليسوا منهم وانهم بريئون من تلك الاعمال الدنيئة ويلفتون نظر الاهالي جميعا الى ما ثبت حقيقته من ان بعض هؤلاء الاشرار ينتهزون الفرص ليصطادوا في الماء العكر كما ان بعضهم مدفوع من قبل دائرة الاستخبارات السرية الانكليزية، وانها تستأجرهم لذلك بقصد توهين صفوف الامة وايقاع الفساد بينها وتشويه حركة الجهاد المقدسة، وقد حدث ان شخصا داهم في المدة الاخيرة منزل رجل عربي ليلا وطلب منه مالا وهدده بالقتل ان لم يدفع فاستعان الرجل ببعض الناس وقبضوا عليه وفتشوه فوجدوا معه مسدس بوليس رسمي واوراق تدل على انه ذو صلة بدائرة الاستخبارات الانكليزية وان هذه الدائرة قد استخدمت بعض الافراد والجماعات للقيام بمثل هذه الاعمال السافلة.

والمجاهدون الذين اخذوا على عاتقهم متابعة هؤلاء الاشرار الأجراء ومطاردتهم يرجون كل من يقع له حادث مثل هذا ويتمكن من معرفة فاعليه او الاشتباه بهم، ان يتوسل لابلاغ ذلك الى قيادة اي فريق من المجاهدين لينالوا شر الجزاء على ما اقترفته ايديهم الاثيمة.

وانا نهيب بكل مسلم وعربي ان ينهض للجهاد في سبيل الله ويساعد المجاهدين على الدفاع عن البلاد المقدسة التي هي امانة في عنق كل منهم يسأل عنها امام الله والناس والتاريخ، ونحن ماضون في هذا السبيل ان شاء الله الى ان يكتب النصر لهذه الامة او يأتي الله بامر من عنده (ولينصرن الله من ينصره) ان تنصروا الله ينصركم ويثبت اقدامكم، والله ولينا وهو نعم المولى ونعم النصير.

قيادة الثورة العامة في فلسطين

صورة نص بيان أيام الثورة الكبرى يظهر فيه الأسلوب الإسلامي في التعبير عن غايات المجاهدين، وهو من تأثير العصبة القسّامية

بلاغ رقم (٢)　　　　　　(نَصْرٌ مِن اللهِ وفتحٌ قريبٌ)

احتلال مدينة جنين ومعارك داميه

قررت القيادة العامة القرارات التالية :

اولا مهاجمة مركز بوليس بيسان ثانيا احتلال جنين ثالثا مهاجمة مراكز الجيش نابلس رابعا مهاجمة الداوريات العسكرية التي تتجول بين نابلس وجنين

وتنفيذاً لهذه القرارات خرج فصيل عمر بن الخطاب وقام بمهاجمة مركز الخبرر تابعة لبيسان فاستولى على جميع اسلحته وامتعته ثم قامت الفصايل الاربعة فصيل القسام وحمزة بن العباس وعمرو بن العاص وابو بكر وطوقوا جنين من جميع جهاتها ثم هاجموها بالتكبير والتهليل تتقدمهم المدافع الرشاشة التي كانت تصب نيرانها الحامية على مراكز البوليس والجند مما جعلهم ان يولوا هاربين الى البيوت ملتجئين ودخل المجاهدون المدينة واستولوا على ما فيها من ذخيرة وبنادق

اما فصيل علي بن ابي طالب فقد اتجه شطر نابلس وهاجم قوات الجيش في مراكزها في الشرق والغرب واصلاها ناراً حاميه

وهاجم فصيل خالد بن الوليد وابي عبيده الداوريات العسكرية التي تتجول بين نابلس وجنين فاصطدمت معها في وادي دعوق وقد قتل سائق السيارة المصفحة وهو يهودي وسائق سيارة ثانيه وهو جندي طوقه الثوار وحاول ان يغريهم بالدراهم التي معه ليتركوه ولكنهم رفضوا وطلبوا اليه تسليم نفسه فأبى واشهر مسدسه عازماً على غدرهم وعندها اطلق الثوار عليه النار فقتلوه

قائد منطقة نابلس وجنين

(الشيخ عطيه)

صورة بلاغ حربي يظهر فيه أسماء فصائل المجاهدين
بتأثير العصبة القسّامية

المــراجع

- أربعون عاماً في الحياة العربية والدولية، أحمد الشقيري.
- الأعلام، حرف الميم (محمد عزّ الدين)، خير الدين الزركلي.
- ألف يوم مع الحاج أمين الحسيني، زهير المارديني.
- البطل المجاهد الشيخ عزّ الدين القسَّام، مصباح غلاونجي، في مجلة (التراث العربي) الدمشقية، العددين (١٣ ـ ١٤)، سنة ١٩٨٤م.
- تاريخ فلسطين الحديث، عبد الوهاب الكيالي.
- تجربة الشيخ عزّ الدين القسَّام، علي حسين خلف.
- التيار الإسلامي في فلسطين، محسن محمد صالح.
- ثورة الشهيد عزّ الدين القسَّام، وأثرها في الكفاح الفلسطيني، عوني العبيدي.
- الثورة العربية الكبرى، صبحي ياسين.
- جهاد شعب فلسطين، صالح مسعود أبو يصر.

ـ جوانب مجهولة من حياة الشيخ عزّ الدين . ، حسين عمر حمادة في كتاب (الشهيد عزّ الدين القسّام) .

ـ حرب العصابات ، صبحي ياسين .

ـ الحركة الوطنية الفلسطينية (١٩٣٥ ـ ١٩٣٩م) ، أكرم زعيتر .

ـ رجال من فلسطين ، عجاج نويهض .

ـ الشهيد عزّ الدين القسّام ، لمجموعة من الكتّاب ، ندوة برعاية المستشارية الثقافية للجمهورية الإيرانية ، بدمشق .

ـ الشيخ عزّ الدين القسّام ، حسني أدهم جرّار .

ـ الشيخ المجاهد عزّ الدين القسّام ، عبد الستار قاسم .

ـ صفحات عن حيفا ، الشيخ عبد الرحمن مراد .

ـ فلسطين عبر ستين عاماً ، أميل الغوري .

ـ فلسطين والانتداب البريطاني ، كامل محمود خلّة .

ـ فلسطين وجهاد الفلسطينيين ، محمد عزّة دروزة .

ـ القسّام ، عبد الله الطنطاوي .

ـ قضية فلسطين في دورها البلدي ، إحسان النمر .

ـ القيادات والمؤسسات السياسية في فلسطين ، بيان نويهض الحوت .

- كفاح شعب فلسطين، عبد القادر ياسين.

- مجلة حضارة الإسلام الدمشقية، شباط وآذار ١٩٦٩م.

- مجلة الجيل، تموز ١٩٨١م، عبد الله شليفر (بحث).

- المقاومة العربية في فلسطين، ناجي علّوش.

- مقدمة في تاريخ فلسطين الحديث، عبد العزيز محمد عوض.

- من ثورة المجاهد عزّ الدين القسَّام إلى ثورة أبطال الحجارة، عبد الوهاب زيتون.

- الموسوعة الفلسطينية: في مواطن متفرقة، ترجمة عزّ الدين القسَّام، وثورة ١٩٣٥، وثورة ١٩٣٦م، وتراجم أصحاب القسَّام: فرحان السعدي، ونوح إبراهيم، ويوسف أبو درة... وغيرهم.

- النقد والبيان في دَفْع أوهام حزيران، محمد عزّ الدين القسَّام، ومحمد كامل قصاب.

- الوعي الثوري: دراسة في حياة عزّ القسَّام، سميح حمودة.

- وثائق الحركة الوطنية الفلسطينية (١٩١٨ - ١٩٣٩م)، من أوراق أكرم زعيتر.

* * *

الفهـــرس

الموضوع | الصفحة

الفصل الثالث ـ في حيفا :

الفصل الرابع ـ العُصبة القسّامية :

الفصل الخامس ـ العصبة القسَّامية في ميدان الجهاد :

* * *